

www.christianlib.com

سنة المصري

هوامش

الفتح العربي لمصر

مختارات الكرمة



هوامش
الفتح العربي لمصر

سناء المصري

هوامش الفتح العربي لمصر





لمزيد من المعلومات عن الكرمة للنشر: www.facebook.com/alkarmabooks

حقوق النشر © سناء المصري ١٩٩٦، ٢٠٠٤، ٢٠١٧

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

جميع الحقوق محفوظة. لا يجوز استخدام أو إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة من دون الحصول على الموافقة الخطية من الناشر.

المصري، سناء.

هوامش الفتح العربي لمصر / سناء المصري - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠١٧.

٢٨٠ ص؛ ٢٣ سم.

تدمك: 9789776467538

١ - فتح مصر.

أ - العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٦ / ٩٥٥٩

٢٤٦٨١٠٩٧٥٣١

المحتويات

حكايات الدخول

٩	مقدمة.....
١٥	الفصل الأول.....
١٧	مارية القبطية: غربة حتى الموت.....
٤٥	الفصل الثاني.....
٤٧	وقائع الفتح وسير الفاتحين.....
٦١	العرب يتناحرون على الثروة.....
٨٣	النساء يشاركن في القتال العربي-العربي.....
٨٧	حال قبط مصر.....
١٠١	بورتريهات القادة في مخطوطة يوحنا النقيوسي.....
١٠٩	صوت قبطي آخر.....
١٢١	الوقائع المشتركة بين مؤرخي القبط والمؤرخين العرب.....
١٢٧	الفصل الثالث.....
١٢٩	معارك في كل مكان.....
١٧٣	الفصل الرابع.....
١٧٥	أحداث الفتح العربي لمصر بوثيقة يوحنا النقيوسي.....

رحلة الانصهار

١٨٩	تقديم: بعد الرحيل.....
١٩١	مقدمة.....
١٩٣	مائة سنة مفومة.....
٢٢٧	مارية الثانية: حقيقة أم خيال؟.....
٢٣٣	الكنيسة مع من؟ وضد من؟.....
٢٤١	الأراخنة... الأراخنة... سامحهم الله.....
٢٤٧	ملحق ١: تصحيح خطأ في رواية «البشموري» للكاتبة سلوى بكر.....
٢٤٩	ملحق ٢: الموقع الجغرافي لبلاد البشموريين.....
٢٥٣	ملحق ٣: جدول ولاية مصر في الدولة العباسية.....
٢٥٦	ملحق ٤: جدول قضاة مصر في الدولة العباسية.....
	ملحق ٥: جدول بطارقة الإسكندرية الذين عاصروا الفتح العربي لمصر
٢٥٨	حتى الدولة العباسية.....
٢٦٢	ملحق ٦: ثورات القبط.....
٢٦٣	المراجع.....

حكايات الدخول

مقدمة

لم تكن مصر بلدًا غريبًا على العرب قبل الفتح، وكان تجار قريش يأتون إليها حاملين بضائع الشرق من اللبان والبخور والتوابل والفضة والحريز، فيبيعون بضائعهم، ويشترون منها الثياب الغالية، أو ما يعرف بالقباطي، والمشغولات، والزجاج، بالإضافة إلى أنواع الطعام المختلفة وخصوصًا القمح والذرة. ويذكر البغدادي أن هاشم بن عبد مناف، جد النبي الأكبر، قد هلك في غزة - على أبواب مصر - كما يذكر أن المغيرة بن شعبة قد دخل مصر كثيرًا قبل إسلامه، وكان آخرها تلك الرحلة التي سبقت إسلامه مباشرة، وكانت رحلة دامية قتل فيها المغيرة أصحابه من بني مالك طمعًا فيما يملكون، بعد أن منحهم مقوقس مصر هدايا كثيرة غالية الثمن، وطمع فيها المغيرة واحتال حتى قتلهم، وسلب ما معهم، ثم لجأ إلى النبي معلنًا إسلامه^(١)!

كما دخلها عمرو بن العاص ووصل إلى الإسكندرية محملًا بالعطر والآدم (الجلود). ويذكر بعض المؤرخين أن معرفته الكبيرة بطرق مصر وأخبار مدنها ومكان ثروتها يعود إلى تلك الرحلات التجارية أيام الجاهلية.

وفي العموم، كان تجار قريش يعرفون مصر معرفة كبيرة قبل الإسلام، خصوصًا بعد أن تعاظم دور مكة في التجارة الدولية في القرن السادس الميلادي، واستفادت كثيرًا من النزاع الطاحن الذي كان يدور بين الدولة البيزنطية غربًا، والدولة الفارسية شرقًا^(٢).

(١) انظر: البغدادي، المنمق في أخبار قريش.

(٢) لمزيد من التفاصيل، انظر: فيكتور سحاب، إيلاف قريش: رحلة الشتاء والصيف.

وعبر التجارة بين الشرق والغرب حمل عرب معارف الجانبين، كما حملوا ثرواتهم، وصارت مكة - الوادي غير ذي لزج - عاصمة ثراء الجزيرة العربية من كثرة ما يرد عليها من كنوز الشرق والغرب. وكما يذكر البلاذري في كتاب «فتوح البلدان»، «دنائير هرقل كانت ترد على أهل مكة في الجاهلية. وترد عليهم دراهم الفرس البغلية، فكانوا لا يتبايعون إلا على أنها تبر». وصار كل «قرشي إما تاجرًا أو وسيطًا»^(١).

ولأهمية التجارة البرية في هذه الفترة، نشأت على طريق القوافل، من مصر إلى الجزيرة والعكس، عدة محطات وأسواق تجارية ازدهر بعضها وأصبح له شهرة تجارية واسعة، مثل مدينة نصتان الواقعة بين غزة وأيلة شرق العريش، على الحدود بين الدولة البيزنطية المهيمنة على المنطقة وشبه الجزيرة العربية. ويبدو أن سوق نصتان التجارية الضخمة كانت تخضع لسيطرة أو احتكار تاجر مصري، كما يقول مصطفى العبادي في دراسته عن مدينة نصتان.

وفي العموم، كان «البيزنطيون يلزمون التجار الوافدين أن تمر بضاعتهم عبر مراكز مخصوصة يشرف عليها موظفون ماليون»^(٢) لضمان أداء الرسوم الجمركية، وكانت تلك الأسواق مواطن تماس بين التجار العرب وغيرهم من الشعوب، فتُنزل القوافل رحالها، وتبرك الجمال في الظل، ويعرضون بضاعتهم، ويتبادل الناس الأخبار، ويدفعون ضرائب المرور للدولة البيزنطية، ويلبثون الليل في فندق أو خان بسيط البناء، ثم يعاودون الخوض في آفاق الصحراء المجردة، وأحيانًا كان الطريق البري الذي تسلكه قريش يمتد من عدن جنوبًا حتى غزة شمالًا فيما يعرف بـ «الطريق التهامية»، أما الطريق البري من مكة إلى فلسطين ومنها إلى مصر فكان يعرف بـ «الطريق التبوكية» ويمر قريبًا من المدينة المنورة، أو يثرب في ذلك الحين، ويستغرق قطعه حوالي شهر في الذهاب وآخر في الإياب.

وحينما تعود القوافل إلى مكة كان الجميع يحتشدون فيما يشبه الاحتفال: «فتتقدم الجمال متهادية، وعلى ظهر كل منها نحو مائتي كيلوجرام من البضاعة،

(١) المصدر السابق.

(٢) مصطفى العبادي، «موقع نصتان في ضوء الوثائق البردية قبيل الإسلام وخلال نصف القرن الأول من الحكم العربي».

وكانت تلك هي الحمولة المعتادة في الرحلات البعيدة، ونادرًا ما كان الرجال يصلون أصحاباء، بل متعبين ومنهكين وقد لوحت وجوههم الشمس وشقق العطش شفاههم»^(١) من آثار السير في الصحراء والقفار المهلكة، فيتلقف الناس بضاعة الشام ومصر، وتزدهر الحياة التجارية، وتنعقد مجالس السمر والأخبار في منتديات مكة وأسواقها الثقافية، وتدور الحكايات عن حضارة مصر وروعة مدنها وخصوصًا مدينة الإسكندرية التي أفاض خيالهم في وصف عظمتها.

وبخلاف الطرق البرية من وإلى جنوب الشام، كان هناك طريق بحري يربط الجزيرة بمصر مباشرة حيث ترسو المراكب بسيطة الصنع في ميناء القلزم (السويس اليوم) على شاطئ البحر الأحمر. وكان التجار يصدرون منه الذرة المصرية ومختلف أنواع الحبوب إلى الحجاز واليمن.

وكان التجار يتخذون من مدينة قفط الصعيدية مركزًا لهم منذ أزمان بعيدة، حتى إن المؤرخ الجغرافي «سترابون» الذي زار مصر في أوائل العصر الروماني في القرن الأول قبل الميلاد، يقول عنها إنها مدينة نصف عربية لكثرة ما رأى فيها من الأعراب والتجار الذين كانوا يأتون إليها عبر وديان الصحراء الشرقية والبحر الأحمر، كما كانت الإسكندرية مركزًا لكثير من التجار العرب الذين يتبادلون البضائع مع التجار اليهود والرومان وغيرهم.



وخلال هذا التبادل التجاري، عرف العرب ظاهر مصر، ولمسوا بعضًا من حضارتها، وظلت في خيالهم رمز الوفرة والازدهار، وظل مجيئهم إليها لا ينقطع في رحلات أحادية الجانب من شبه الجزيرة العربية إلى الشام، ثم إلى مصر، والعودة، دون أن يشاركونهم أبناء هذه البلاد في رحلات مماثلة إلى بلاد الجزيرة، وإن صادفنا بين الحين والآخر وجود بعض التجار الرومان هناك.

ونادرًا ما كان المؤرخون يذكرون إقامة مصري في مكة، وإذا وجد فهي استثناءات قليلة جدًا، كما حدث مع النجار القبطي، الذي ذكر الأزرقى عنه أنه شارك في بناء

(١) فيكتور سحاب، المصدر نفسه.

الكعبة حينما غمرها طوفان السيول، فأخذت قريش الأخشاب اللازمة للبناء من حطام سفينة رومانية كانت قد غرقت في ميناء الشعيبة قرب جدة^(١).

ويؤكد الكندي ذات الواقعة بقوله إن «البيت هدم في الجاهلية فولت قريش بناءه رجلاً من القبط يقال له «بقوم» فأدركه الإسلام وهو على ذلك البناء»^(٢).

ولم يذكر لنا المؤرخون أية تفاصيل عما إذا كان هذا النجار دائم الإقامة في مكة، أم أن أهل مكة قد استدعوه للقيام بتلك المهمة.

والأغلب أنه قد تم استدعاؤه لما عرف عن المصريين من مهارات في البناء والنجارة والتشييد. وفي إشارة عابرة نجد ذكر القبطي آخر يدعى «أبو رافع»، وكان عبداً للعباس عم النبي، ثم أهداه العباس إلى النبي الذي أوقفه على زراعة أرض عالية في يثرب، ويقال إن أرض يثرب كانت الزراعة تقوم فيها عموماً بأيدي العبيد المشتريين من الشام والعراق، ثم نجد هذا القبطي يقوم بذات المهمة^(٣).

ولا يمكننا بناءً على هذه الاستثناءات النادرة أن نرصد رحلات مصرية إلى شبه الجزيرة العربية، والحالتان السابقتان من الأمثلة النادرة في إطار المصادر المتاحة أمامنا حالياً.

حتى ظهرت في هوامش السيرة النبوية قبطية مصرية، بل قبطيتان ورجل، قدر لهم أن يدخلوا بيت النبي صدفة، ومن ثم حصلوا على تصريح دخول التاريخ العربي من زاوية أوسع قليلاً، ولكن دون الإفاضة في ذكر تفاصيل حياتهم وتتبع نشاطهم، بسبب اندراجهم تحت طائفة العبيد والجواري غير المستحقين لمكان الصدارة، أو غير المستحقين للاهتمام الكافي من المؤرخين العرب.

وتأثير تجربة القبطيتين والرجل في بلاد العرب كان مقصوراً على الدوائر المحيطة ببيت النبي فقط، ولكنه كان تأثيراً أعمق من تماس التجارة السريع والمبالغات الناتجة

(١) انظر: الأزرقى. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار.

(٢) الكندي، فضائل مصر المحروسة، ص ٢٨.

(٣) يقول اليعقوبي في تاريخه إن أبا رافع مولى النبي هو قبطي أهداه المقوقس، والأصح رواية الكندي، لأن المقوقس أهدى قبطاً آخرين للنبي، ليس بينهم أبو رافع. انظر: تاريخ اليعقوبي، الجزء الثاني، ص ٧٠.

عنه، بالإضافة إلى أنه يعتبر مقدمة التماس الأكبر، القادم مع سنابك الخيل ووقع أقدام الجنود أثناء الفتح العربي لمصر.

وإذا قارنًا تفاصيل التلاقي المصري-العربي، والعربي-المصري، سنلاحظ الاختلاف الجذري بين اللقاءين، حيث ذهب الطرف القبطي في المرة الأولى إلى بلاد العرب رغماً عنه، وأُجبر على الدخول في نسق قيم ومعتقدات الوسط الجديد، وضرورة التخلي عن معتقداته الأولى. وفي المرة الثانية حشد العرب حشودهم مع الجيش الإسلامي، ودخلوا مصر، ثم لم يخرجوا منها ثانية مع احتفاظهم بجسور الصلة المفتوحة مع بلاد العرب، فلم تتوقف الهجرات الجماعية لقبائلهم طوال القرون الأولى من التاريخ الهجري.

ووطد العرب سيطرتهم على البلاد التي صارت فيما بعد عربية. ومع الفتح وبدايات الاستيطان نجد أنفسنا أمام درجة أعلى من التماس بين العرب الوافدين على سهوات الخيول شاهرين السيوف والرماح، وبين المصريين العزل.

فكيف كانت المواجهات الأولى؟ وكيف كان تصور كل طرف عن الآخر؟ وما الذي حدث حقيقةً في اللحظات الأولى للفتح قبل أن تستقر الأمور للعرب؟ أمور شائكة مضى عليها أكثر من أربعة عشر قرناً، وأهال التاريخ على تفاصيلها رماده الصعب، وآثارها القليلة لا زالت تُروى وتُداول من خلال صوت رسمي ووحيد للمتصر الغالب الذي استقرت له الأمور وانكمش أمامه الطرف الآخر رويداً رويداً، وانكمشت معه ذكرياته، حتى كادت أن تُمحى من كثرة التجاهل والنسيان. والآن، هل نكتفي بمجرد ترديد ما سبق قوله ملايين المرات، ونسعد بالدوران في نفس الفلك المعتم؟ أم نحاول أن ننش معاً ذكريات الطرف المنسي، ونُخرج بقايا أوراقه قبل الفتح وبعده؟

ونظراً لاتساع المدى الزمني السابق على حدوث الانصهار بين العرب والمصريين، وكثرة أحداث هذا الزمن، سنكتفي بدراسة أحداث القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني حتى سقوط الدولة الأموية عام ١٣٢هـ، لأنها الفترة التي شكلت مقدمة الانصهار الإجماعي، وجسدت طرق القضاء على مقاومة الطرف المغلوب.

وسوف نحاول تتبع تفاصيل تلك الأحداث، ليس من خلال المصادر العربية فقط؛ ولكن مما تيسر من بقايا الصوت القبطي المعاصر للأحداث، أو الوارث لها بعد ذلك.

وبمضاهاة الصوتين العربي والقبطي ببعضهما، ربما نصل إلى صورة تقريبية لحقيقة تلك الفترة المزدهمة بالتفاصيل والصراعات.

سنمشي على رمال متحركة إذن، ونجمع شذرات متفرقة على الجانبين، ونبحث عن إشارات تلمع بين سطور السياق العام الذي يتواطأ عليها ليخرسها ويطفئها. وما ينتج عن ذلك سيكون مجرد محاولة لاستنطاق الصوت المكتوم تحت الركام الرسمي منذ مئات السنين.

الفصل الأول

مارية القبطية: غربة حتى الموت

مارية القبطية: جارية النبي المصرية المنتزعة من بيئتها الطبيعية بقرية صغيرة من قرى مصر، والمهداة إليه في صحراء العرب البعيدة قبل الفتح العربي لمصر بأكثر من عشرة أعوام، تلك المرأة المشهورة المجهولة، هل كانت تعي أنها تحولت إلى جارية لرجل لم تره من قبل حتى ولو قالوا لها في الطريق إنه نبي؟ كيف انتزعت من بين القرينات والأهل لتصبح جارية في بلاط المقوقس يفعل بها ما يشاء؟ كيف تحولت من حرة إلى عبدة؟ ومتى حدث ذلك؟ هل سمعت من قبل عن مكة والمدينة والعرب والصحراء؟ وكيف تصورتهم وهي الآتية من بلد المزارع الخضراء مترامية الأطراف، والنيل، ووفرة المحاصيل والقرى الراسخة منذ آلاف السنين، تجاورها المدن وعواصم الأقاليم ذات الأبنية الشاهقة والقصور الفخمة والحمامات والمسارح والجيمانيزيم؟

وإذا عرفنا أن مارية لم تكن وحدها في هذه الرحلة إلى المجهول، وأنه كانت تشاركها ذات الظروف والمخاوف والمخاطر والمصير أختها سيرين، لتمنينا أن نعرف نوع الحوار الذي دار بينهما في تلك اللحظات الحاسمة، وأن نرقب نظرات عيونهما وخفقات قلوبهما، بالإضافة إلى رصد انفعالات هذا القبطي المرافق لهما، والذي تقول عنه بعض الكتب إنه أخوهما، وبعضها الآخر يرى أنه كان نسيباً أو قريباً لهما، وأنه كان خصياً ويدعى «مابور»، والمصادر التاريخية جميعاً لا تكاد تشفي نهمنا لمعرفة حقيقة ما حدث لتلك القافلة الصغيرة - مارية، سيرين، مابور - يقودهم عربي غريب عنهم في دروب الصحراء القاحلة إلى مصير يجهلونه، تاركين خلفهم قريتهم الصغيرة حُفْن من كورة أنصنا.

لا، ليست حفن، وإنما هبنو «Hebnou» القبطية، ويسمى الرومان «Hyponaa»، أما الاسم المصري القديم الذي اندثر مع الفراعنة تاركًا آثاره فهو «Hatbmou»، ونلاحظ الجذر المشترك بين الاسم في اللغات الثلاث الهيروغليفية واللاتينية والقبطية، وحينما جاءت العربية بعد ذلك أخذت أيضًا ذات الأصل وغيرت بعض الصوتيات بقلب الهاء حاء والباء فاء فصارت «حفن» وهي قرية قديمة كاسمها، ويقال إنها كانت قاعدة القسم السادس عشر من أقسام مصر الفرعونية؛ وهو القسم المعروف باسم «Oryx» الواقع شرقي النيل، وبها الكثير من الآثار الفرعونية.

وحينما ازدهرت الحضارة القبطية بسماتها الخاصة منذ القرن الثالث الميلادي، كانت قرية حفن - هبنو القبطية - إحدى خلايا تلك الحضارة النابضة بالمقاومة والحياة، فانتشرت بها، وأحاطتها أديرة الرهبان وقلالياتهم وكنائسهم، وغلب عليها طابع وروح الفن القبطي؛ حيث البيوت ذات الأبواب الخشبية والواجهات المنمقة بحجارة منقوشة بألوان العنب وشتى الرسوم الزخرفية، وللأبواب مزليج من الخشب معروفة إلى اليوم باسم «السقاطات»، أما الحوائط فعالية وبها طاقات للتهوية.

ويقسم البيت إلى فناء واسع وحجرة استقبال واسعة، وغرف للتخزين وحظائر خلفية وفرن، وفي الفناء تقف الزبور الفخارية في الأركان ممتلئة بمياه النيل العذبة، كما تمتلئ غرف التخزين بشتى أنواع الجرار الفخارية وأواني المنزل وأدوات الطبخ دقيقة الصنع.

وفي الكثير من البيوت يحتل النول الخشبي والمغزل وخيوط الكتان ركنًا هامًا تصنع فيه المرأة القبطية ثياب عائلتها ومفارش بيتها وستائره وأغطية الوسائد، وفي بعض الأحيان يذهب إنتاجها إلى السوق لتوفير بعض المال اللازم للحياة، بالإضافة إلى مشاركتها في أعمال الحقل والزراعة. وكانت بعض الفتيات يعملن في معاصر النبيذ وفي مصانع القرية الصغيرة وصوامع الغلال، كما كن يشاركن في مواسم جمع الكروم التي تغطي القرية ببهجتها أثناء عمليات جمعه وتحميله على الجمال، ونقله إلى معاصر النبيذ.

ولكنه لم يكن فرحًا خالصًا تمتزج فيه مشاعر فلاحى القرية من الرجال والنساء بتتاج جهدهم وعملهم طوال الموسم، بل كانت تقطعه قسوة جامعي الضرائب من حكام المقاطعات «الباجارك» ونوابهم المنتشرين في كل الأرجاء، وأحيانًا كان حراس الحقول وشيوخ البلد يمنعون الفلاحين من رفع المحصول من المزارع إلا بعد حضور المسؤولين عن الأراضي. وقد تنوعت الملكية بين أراضٍ يملكها التاج الإمبراطوري ويؤجرها للفلاحين، وأراضٍ يملكها مالك كبير يستخدم الفلاحين للعمل عنده، وقد شهد إقليم المنيا - الواقع فيه قرية حفن - وجود عدة أسر كبيرة امتلكت آلاف الفدادين مثل أسرة «الكونت أبيون» و«الكونت أمونيوس». ورغم الثراء الفاحش لهؤلاء الملاك وامتلاكهم لمخازن وبنوك ووحدات حراسة خاصة، وتغلغلهم في جهاز الحكم الإداري، فإن الشواهد التاريخية تؤكد عدم تمتعهم بحقوق الإقطاعي الأوروبي المالك لمصير العاملين في أرضه.

والفلاحون العاملون لدى «الكونت أبيون» أو «الكونت أمونيوس» أو غيرهما، كانت لهم حرية الحركة والانتقال بشرط سداد المستحقات الواجبة عليهم، أو التعهد بسدادها. وقد تمتعت بعض قرى تلك الناحية بنظام الجباية الذاتية، فصار اتصالها بمكتب الوالى مباشرة، أما القرى الخاضعة لكبار الملاك فكانت تتبع موظفي المالك. وسواء أكان النظام الخاضع له فلاحو القرية يتبع الإمبراطور مباشرة أم الكونت، فقد كان ثقل حجم الضرائب وطرق جبايتها وجيش الموظفين القائم عليها يخلق فئة واسعة من هؤلاء المستفيدين من المخازن والشرطة ومسؤولي الضرائب والكتبة والمديرين وموظفي البريد، وغيرهم.

وكان الفلاح المصري يستأجر مساحة صغيرة من الأرض ويعمل على زراعتها لقاء قدر معلوم من الضرائب مثل: ضرائب القمح، «الأنونا الأهلية»، التي تُجمع ليأخذ بعضها حكام الأقاليم، ويُرسَل بعضها إلى الإسكندرية، ومنها إلى عاصمة الدولة البيزنطية فيما يسمى بـ«الشحنة السعيدة»، وكان الفلاح يدفع عن المحاصيل الأخرى ضرائب نقدية، بالإضافة إلى الضرائب العامة التي تشترك القرية كلها في

دفعها لصالح نفقات الإصلاح وتمويل خزائن المقاطعات وإعداد الفرق العسكرية وسد نفقات زيارة الأباطرة، وغيرها من المهام ثقيلة الوطأة. ولتأمين جباية كل نوعٍ من الضرائب (العينية والمالية) «كان لكل قرية مجلس محلي يعينه مجلس شيوخ المقاطعة ويكون مسؤولاً عن تنفيذ أوامر الوالي»^(١). ويتكون من عمدة وشيخ بلد وشرطة، بالإضافة إلى مسؤول مياه فيضان النيل، ومسؤول الخزانة، وحراس الحقول، ثم طائفة الجباة والكتّاب وعمال البريد، وغيرهم ممن يربطون بين القرى ومراكز الأقاليم.

وتحت وطأة وتعسف حكام الأقاليم، لجأ الإمبراطور إلى عمل منصب جديد هو منصب «الحامي». وغالبًا ما كان اختيار القائم بأعمال هذا المنصب يأتي من نفس طبقة الإداريين أو أتباعهم، وكان الفلاحون كثيرًا ما يشكون من هؤلاء الحماة، وربما يعود المثل العامي القائل: «حاميها حراميها» إلى ذكرى هؤلاء الحماة الأئيمة.

وفي العموم، ثقلت الأعباء الضريبية على مجلس القرية حتى كان المصريون يتهربون من القيام بها، ولجأت الإدارة البيزنطية إلى فرض التزامات الوظائف على أعيان القرى فيما يشبه السخرة.

وكانت شكاوى الفلاحين من حكام المقاطعات (الباجارك) الذين يغيرون على القرى بجنودهم، فيعتدون على النساء والراهبات، ويسدون القنوات ويسلبون كل ما يقع في أيديهم بعد فرض الضرائب الاستثنائية على الفلاحين.

وفي كثير من الأحيان كانوا يقبضون على زوجات وأولاد الفلاحين الذين يتأخرون في دفع الضرائب، وهناك برديات تعود للقرن السادس، يلتمس فيها الناس من الحكام الإفراج عن الزوجات والبنات في مقابل تعهدهم بإحضار الأزواج الفارين.

وفي ظل هذا النظام المركب، عانى الفلاح الحر - شكليًا أو قانونيًا - من كثرة المظالم والتعديات وإرهاق الضرائب الزائدة عن قدرته إلى الحد الذي أدى به

(١) زبيدة عطا، إقليم المينا في العصر البيزنطي: في ضوء أوراق البردي.

إلى الهروب الفردي والجماعي من القرى إلى الأديرة والأماكن البعيدة، وترك كل شيء للجباة المتعسفين يفعلون به ما يشاءون، فكانت المقاومة بالهرب أخطر ما يواجه جهاز الدولة البيزنطية.

* * *

وللتعذيب والفرار قصة أخرى في هذه الفترة من تاريخ مصر تتجسد في الاضطهاد الشديد الذي أوقعه «قيرس» البطريك حاكم مصر الروماني - أو «المقوقس» كما تسميه الكتب العربية - بالأقباط المصريين دون هوادة، حتى فر الأنبا بنيامين بابا الكنيسة المصرية ومعه سائر الأساقفة إلى أديرة الصحراء هرباً من الاضطهاد. وقبض جنود «قيرس» على أخي الأنبا بنيامين وعذبوه بالحرق «حتى سقط لحم كلاه»^(١) ومات في أيديهم، وقد وضع «قيرس» بدلاً من أساقفة القبط الهاربين أساقفة آخرين يتبعونه ويدينون بمذهبه الخلقيدوني في مصر كلها، من الإسكندرية حتى أنصنا، أو أنطونيوبوليس، عاصمة الإقليم الذي تقطن فيه مارية وعائلتها. وقد اشتد اضطهاد «قيرس» الخلقيدوني لمركز أنصنا للقضاء على مركز ومكانة الكنيسة القبطية به، التي كانت تمتلك أراضي زراعية كبيرة في تلك المقاطعة، كما كان يتركز بها أكثر من عشرين ديراً وكنيسة قبطية تعتبر مراكز للمقاومة الشديدة، وخصوصاً دير الراهب «بوهور» الذي استشهد تحت التعذيب الروماني وظل ديره مركزاً للمقاومة فيما بعد.

ويعود إنشاء مدينة أنطونيوبوليس - أنصنا فيما بعد - إلى القرن الثاني الميلادي، وبالتحديد عام ١٣٠ ميلادية، حينما زار مصر الإمبراطور الروماني «هادريان»، وقام برحلة نيلية في صعيد مصر، واختار ذلك المكان الذي غرق فيه غلامه المحبوب «أنطونيوس» وبنى عليه مدينة أنطونيوبوليس على طراز العمارة الإغريقي، فضمت المدينة مسارح وحمامات وجيمانيزيم وشوارع يونانية الطراز، وقصوراً ضخمة لا زالت بعض آثارها موجودة حتى الآن «وقد بلغ من حرص الإمبراطور على النقاء الإغريقي لسكان هذه المدينة أن اختار العناصر الأولى

(١) ساويروس بن المقفع، تاريخ بطاركة كنيسة الإسكندرية القبطية.

لسكانها - عن طريق القرعة - من مدينة «بطلمية»، أكثر المدن الإغريقية في مصر تحفظًا وغيره على التراث الإغريقي، كما اختار عددًا آخر من إقليم الفيوم؛ حيث كان لا يزال هناك طبقة إغريقية مغلقة على نفسها ولم تختلط بالمصريين لا ثقافة ولا عنصرًا، وعرفت بطبقة الـ ٦٤٧٥ مواطنًا، وأعطى الإمبراطور سكان مدينته الجديدة حق تكوين مجلس شورى وحقوقًا أخرى»^(١).

وبمرور الزمن فقدت المدينة تزمته الإغريقي العنصري، وسرى فيها تيار التمهير جارفًا، بعد السماح بالزواج من المصريات، ومما ساعد على سرعة التمهير موقع المدينة كمحطة تجارية هامة، ومركز لصناعة النسيج والفخار وعصر النبيذ، بالإضافة إلى تلك الكوكبة من القرى المصرية الغنية بمزارع الكروم والقمح والنخيل التي كانت تحيط بها مثل قرية حفن، موطن مارية وسيرين وعائلتهما. وظلت أنصنا والقرى المحيطة بها حسنة البساتين والمنتزهات، كثيرة التمر والفواكه، كما يقول ياقوت الحموي في «معجم البلدان».

وثمة روابط محسوسة تربط تلك المنطقة وقراها بماضي بعيد للحضارة الفرعونية وتترك آثارها في بعض العادات وطرق الزراعة وأنواع الأدوات المستخدمة في الحياة.

وفي هذا المناخ المشبع بعناصر الثقافة القبطية في اللغة والدين والسلوك، عاشت الفتاتان مارية وسيرين وحملت كل عناصر الثقافة المحيطة - على الأقل في وعيهما الداخلي - مع ملاحظة أنهما شبتا في ربوع القرية العتيقة، وعاشت تفصيل الاضطهاد فيها، أما رفاهية أنطونيوبوليس التي كانت تبعد عن موطنها بمسافة قصيرة، فكانت حكرًا يخص السادة الرومان من الحكام والفرسان والنبلاء وكبار الموظفين، أو هؤلاء المتمصرين الأغنياء الساكنين في بطانتهم، دون غيرهم من فئات الشعب المصري القاطن في القرى المحيطة بها.

(١) زبيدة عطا، المصدر نفسه.

ولنا أن نتخيل كثيرًا من مفارقات الترف والرفاهية بين سكان أنطونوبوليس - عاصمة الإقليم وعروس الصعيد - المستمتعين بالحمامات والمسارح، والقارئين للشعر والمسرح والفلسفة اليونانية، والحفلات ذات الطابع المتأغرق، وبين حياة القرى الغارقة في العمل الزراعي، وما يترتب عليه من أعمال عصر النبيذ، وطحن الحبوب، وعصر الزيوت، وغيرها من الأعمال الشاقة، بالإضافة إلى عبء القيام بالأعمال الإجبارية العامة من حفر الطرق والقنوات والمصارف ومد الجسور، وأداء الضرائب العينية والنقدية، وهوان الفرار المذعور أمام خيول الفرسان الرومان ورجال الحاميات العسكرية، وظلمة السجون الكائنة في انتظار من لا يدفع، وغيرها من صور البؤس التي كان يعاني منها سكان القرى القبطية المحيطة بعاصمة الأقاليم الثرية المرفهة الأنيقة، وقد حفظت لنا أوراق البردي نماذج لبعض دعوات حفلات العشاء المقامة في الجيمانيزيم، أو نصوص المسرحيات، وغيرها من أنماط الثقافة اليونانية لطبقة الرومان والمتمصرين المحيطين بهم.

وبعيدًا عن مظاهر الرفاهية، عاشت الفتاتان مارية وسيرين في قرية حفن الغارقة في الأعباء، ضمن آلاف العائلات القبطية المضطهدة، تألفان الجو المحيط بهما، وتشقيان وتفرحان مع أقرانهما من القبط، حتى امتدت أيدٍ شرسة واقتلعتهما من جذورهما، وقذفت بهما مع مابور إلى قصر المقوقس بالإسكندرية، في رحلة إجبارية يغلب عليها طابع القسر والاستعباد.

وحادثة انتزاع مارية وسيرين ومابور غابت تفاصيلها تمامًا عن كتب التاريخ العربية منها والقبطية، ولكنها تشبه الكثير من حكايات انتزاع زوجات وبنات الفلاحين المصريين من أراضيهم وبيوتهم بسبب عجز الرجال عن أداء الضرائب وتراكم الديون، أو بسبب الاضطهاد الديني لهم بصفتهم أقباطًا مؤمنين بمذهب كنيسة الإسكندرية، أو غيرها من أسباب المظالم الكثيرة المحيطة بالفلاحين المصريين تحت قيود الحكم البيزنطي.

وفي تلك الأثناء على بعد آلاف الأمتار من حدود مصر الشرقية، في بلاد العرب البعيدة، كان النبي محمد يبث دعوته الإسلامية في محيطه العربي،

ويتخذ من المدينة يثرب مركزاً لدولته. وقرر النبي بعد صلح الحديبية (عام ٦هـ) أن يبلغ دعوته لملوك وأمراء العالم المحيط بالجزيرة العربية بعد أن «اتضح أنه السيد الفعلي في شمال الحجاز وتهامة»^(١)، وأنه قادر على عزل قريش سياسياً واقتصادياً.

فاختار نفرًا من أصحابه وأرسلهم إلى إمبراطور الروم، وكسرى فارس، وملك الحبشة، وملك البحرين، وعمان، وحاكم مصر، وكتب لكل منهم رسالة - كل بلغته - ويقال إن كاتبه كان من بني النجار، ويدعى «الخزرجي» «يكتب إلى الملوك ويجيب بحضرة النبي بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية، وأنه تعلم هذه اللغات بالمدينة من أهل هذه الألسن»^(٢).

وحمل خطاب النبي إلى المقوقس عظيم مصر (أو «قيرس» الروماني) شخص يدعى حاطب بن أبي بلتعة، وهو تاجر طعام حليف قبيلة أسد حليفة قريش، وكان يملك عددًا من العبيد - وكان هذا يعتبر أحد مقاييس الثراء لدى العرب - كما كان «من الرماة الموصوفين، ذكره الحاكم في مستدركه، فقال: «كان حسن الجسم، خفيف اللحية، أجنى، إلى القصر ما هو، شئن الأصابع»»^(٣)، أي ليس غليظ الأصابع^(٤).

وقد سلك حاطب طريق التجارة المعروف من المدينة حتى دخل مصر، ثم

(١) أحمد الشبول، «علاقات الأمة الإسلامية في العصر النبوي مع بلاد الشام وبيزنطة».

(٢) المسعودي، التنبيه والإشراف، ص ٢٤٦.

(٣) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، الجزء الثاني.

(٤) سوف نجد أخبارًا بعد ذلك عن خيانة حاطب بن أبي بلتعة للنبي وحزبه، حينما كانوا يعدون العدة لفتح مكة ويحيطون الأمر بسرية شديدة، بغية مفاجأة قريش، فبعث حاطب بتلك الأخبار إلى قريش، وحينما اكتشف أمر خيانتته، وأمسك أصحاب النبي بالمرأة التي تخبئ خطاب حاطب في شعرها، فبرر خيانتته قائلًا: «كان بمكة قرابتي وولدي وكنت غريبًا فيكم معشر قريش» فغفا عنه النبي لأنه شهد وقعة بدر. لمزيد من التفاصيل، انظر: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء.

وهذا الحادث يلقي ظلال الخيانة على حاطب، ويقلل الثقة فيه كصاحب أمين للنبي. وعاش حاطب حتى عام ٣٠هـ، وترك حين مات أربعة آلاف دينار ودراهم وغير ذلك. انظر: محمد بن سعد، المعروف بـ«كاتب الواقدي»، كتاب الطبقات الكبير.

وصل إلى الإسكندرية قاصداً بلاط المقوقس حاكم مصر الروماني، وكان المقوقس «قيرس» في مجلسه المشرف على البحر، كما يقول ابن عبد الحكم^(١)، فركب حاطب البحر حتى حاذى مجلس المقوقس، وأشار إليه بكتاب النبي بين إصبعيه، فلما رآه أمر بالكتاب فقبض وأمر به فأوصل إليه. ولكننا نفهم من رواية ابن سعد أن حاطب قد مكث بباب المقوقس مدة من الزمن حتى سمح له بلاقائه. ورواية ابن سعد أقرب إلى الصحة المنطقية جرياً على عادة الملوك في اتخاذ القصور والحراس والأبواب المغلقة، فيأتي تاجر من الجزيرة العربية ويطلب مقابلة الملك ويظل ببابه حتى يؤذن له بالدخول.

أما رواية ابن عبد الحكم عن المقوقس الذي كان مجلسه يشرف على البحر فيلوح له رجل غريب برسالة من جهة البحر فيؤمر بها، فقول يناسب المبالغات الأخرى التي سيفرط ابن عبد الحكم في ذكرها بعد ذلك. وكان نص الرسالة:

من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد:

فإنني أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط. يا أهل الكتاب، تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون^(٢).

ويفيض ابن عبد الحكم في سرد تفاصيل الحوار الذي دار بين حاطب والمقوقس حتى إنه يذكر حواراً شبه سري دار بينهما ليلاً وليس معهما سوى الترجمان، سأل فيه المقوقس عن حقيقة أفكار محمد وصفاته، وبمجرد سماع المقوقس لصفات النبي تحول موقفه من الشك إلى التصديق، وأخذ يكمل بنفسه ما نسيه حاطب - وكأنه رآه رأي العين - فقال: «قد بقيت أشياء لم أرك ذكرتها، في عينيه حمرة قل ما تفارقه، وبين كتفيه خاتم النبوة، يركب الحمار ويلبس الشملة ويجتزئ بالتمرات والكسر، لا يبالي من لاقى من عم ولا ابن عم»^(٣).

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

ولا نجد ذكرًا لهذا الحوار المغرق في التفاصيل لدى محمد بن سعد، كاتب الواقدي، في «كتاب الطبقات الكبير». وفي الأغلب أن هذه الحكايات وأمثالها هي من موضوعات الرواة والمؤرخين الذين ينسبون إلى المقوقس «قيرس» قوله: «القبط لا تطاوعني في اتباعه ولا أحب أن يعلم بمحاورتي إياك، وسيظهر على البلاد وينزل أصحابه من بعده بساحتنا هذه حتى يظهروا على ما ههنا»^(١). وحسب تلك الرواية يكون المقوقس قد آمن بالنبي وتنبأ بانتصار العرب على أشلاء دولته البيزنطية.

وفي الحقيقة، إن كل هذه الاعترافات النافية للذات والمؤمنة بالآخر إلى حد ذكر صفات النبي الخاصة جدًا - والمقوقس «قيرس» لم ير النبي قط - والتنبؤ له بمستقبل واسع النفوذ على حساب دولة الروم - أي على حساب النفس - هي غريبة كل الغرابة، ولا تتفق مع مجمل مواقف الحاكم الروماني وتاريخه السياسي، وهو المعروف بمدى تعصبه ضد كل من يخالفه في مذهبه الديني، خصوصًا أن نفوذ المقوقس «قيرس» السياسي كان مستمدًا من نفوذه الديني بصفته بطريركًا للمذهب الخلقيدوني المعادي لكل المذاهب الأخرى، واضطهاد كل من يخالفه الرأي من المصريين الواقعيين تحت سطوته وحكمه.

وفي كثير من الأحيان يغلب على روايات ابن عبد الحكم طابع القص الكاريكاتيري، كما في قوله: «إن المقوقس لما أتاه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضمه إلى صدره، وقال هذا زمان يخرج فيه النبي الذي نجد نعته وصفته في كتاب الله تعالى وإنا لنجد صفته أنه لا يجمع بين أختين في ملك يمين ولا نكاح، وأنه يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة، وأن جلساء المساكين، وأن خاتم النبوة بين كتفيه، ثم دعا رجلًا عاقلًا ثم لم يدع بمصر أحسن ولا أجمل من مارية وأختها وهما من أهل حفن من كورة أنصنا فبعث بهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم»^(٢).

والمقوقس «قيرس» في تلك الرواية كملوك الحكايات الأسطورية الذين

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

يعرضون مملكتهم على أول عابر سبيل يمر عليهم، أو كعُراف يقرأ الطالع، ويهذي بيوطن المستقبل المعاكس لوجوده، فيصبح بذلك رجلاً ضد نفسه.

ويبدو النصف الآخر من الحكاية متأثراً بالقصص الشعبية التي تجعل الملوك يبعثون برجالهم ليفرزوا نساء المملكة ويختاروا أجمل الفتيات لتصبح محظية الأمير أو زوجته «ثم لم يدع بمصر أحسن ولا أجمل من مارية»، وكأن مصر كانت قرية صغيرة يمكن فرز نساؤها بسهولة، مع ملاحظة أن محمد بن سعد قد ذكر أن حاطب أقام خمسة أيام فقط لدى المقوقس.

وعذر ابن عبد الحكم وغيره من المؤرخين العرب في ذكر مثل هذه القصص أن مدوناتهم التاريخية جاءت بعد مرور أكثر من قرنين، بعد أن استقرت الأمور للعرب وسقطت دولة الروم واتضحت مصائر البلاد. وكان من السهل أن يحدث نوع من تلبيس المستقبل للماضي، وكأن التاريخ يعيد تشكيل نفسه مع كل رواية جديدة.

وعلى أية حال، تبدو رواية محمد بن سعد، كاتب الواقدي، أقرب إلى الصحة المنطقية، حيث تختفي منها كل هذه المبالغات وتأتي الوقائع بسيطة سلسلة حيث يقول:

أوصل إليه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأه وقال خيراً، وأخذ الكتاب فجعله في حُقٍّ من عاج وختم عليه ودفعه إلى جاريته، وكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم: «قد علمت أن نبياً قد بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان في القبط عظيم، وقد أهديت لك كسوة وبغلة تركبها» ولم يزد على هذا ولم يسلم، فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم هديته وأخذ الجاريتين مارية أم إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأختها سيرين وبغلة بيضاء لم يكن في العرب يومئذ غيرها وهي دلدل، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ضمن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه»، قال حاطب: «كان لي مكرماً في الضيافة وقلة اللبث ببابه ما أقمت عنده إلا خمسة أيام»^(١).

(١) محمد بن سعد، المصدر نفسه، الجزء الرابع، القسم الأول.

فكاتب الواقدي على عكس ابن عبد الحكم يذكر المقابلة باقتضاب، حتى إن النبي بعد عودة حاطب حاملاً رد المقوقس قال: «ضمن الخبيث بملكه»، وتنبأ له بالزوال.

فالنبوءة هنا على لسان النبي وليست على لسان المقوقس «قيرس»، كما جاء في رواية ابن عبد الحكم. كما أن ابن عبد الحكم يوسع مكونات الهدية حتى تشمل ثياباً من قباطي مصر، وعسلاً من غسل بنها، ومال صدقة، بالإضافة إلى الجاريتين والبغلة والحمار والخصي. وجميعها مكونات غريبة بالنسبة لهدية مرسله إلى نبي يتحدث باسم رسالة جديدة، ويطلب من الملوك الإيمان بها!

ولذلك تبدو رواية ابن سعد، على قصرها، أكثر الروايات مناسبة مع وضع المقوقس «قيرس»، وتعصبه لمذهبه الخلقيدوني، حتى إنه يذكر «قد علمت أن نبياً قد بقي وكنت أظن أنه يخرج بالشام»، في صيغة تنفي تصديق المقوقس لخروج النبي المنتظر من أرض العرب، وإجابته قد دفعت النبي إلى الدعاء على ملكه بالزوال. وبعد تسليم حاطب الرد المقتضب ومكونات الهدية الصغيرة خرج الجمع من مصر مكوناً من مارية وسيرين ومابور والبغلة، يقودهم حاطب بن أبي بلتعة، تاجر الطعام، إلى المدينة مركز النبي.

وسارت القافلة الصغيرة في ذات طريق التجارة المعروف إلى المدينة^(١)، وكلما كانوا يتوغلون في اتجاه صحراء الجزيرة العربية ويتعدون عن حدود مصر، كان القلق يزداد، والوحشة تدب في النفوس، وصور البيت والقرية والمدن التي مروا عليها قبل الخروج تمثل في الذهن وتضطرب في اهتزازات سريعة مع اضطراب الروح من أثر المخاوف المحيطة: حفن، المزارع، الكروم، المياه الجارية، أنصنا، أنطونيوبوليس، القصور، الحاميات العسكرية، الأسر، قصر

(١) لأهل مصر وفلسطين إذا جاوزوا، طريقان إلى المدينة: أحدهما على شغب وبدأ - وهما قريتان بالبادية - حتى ينتهي إلى المدينة على المروة، وطريق يمضي على ساحل البحر حتى يخرج بالجحفة فيجتمع بهما طريق أهل العراق وفلسطين ومصر، ومن المرجح أن تكون قافلة حاطب - مارية - سيرين - مابور قد قطعت طريق الصحراء الأول.

الحاكم الروماني، الرجال الغرباء ذوو اللغة المختلفة، والوجوه والملابس المختلفة، والجمال والصحراء.

اللون الأصفر يحل محل الأخضر الآن.

الجفاف بدلاً من المياه الجارية.

جذب الصحراء والمخاطر المحيطة مكان استقرار القرية وثبات بيوتها.

كل شيء غريب ومختلف، حتى هذا العربي الذي يقود قافلته الصغيرة.

وتفرد رواية الطبري بإضافة ملمح الاتصال اللغوي بين حاطب - تاجر الطعام العربي - ومارية وسيرين، حيث يذكر أن حاطب عرض على مارية الإسلام ورغبها فيه فأسلمت هي وأختها... أي أنهما دخلتا المدينة مسلمتين بينما تأخر إسلام مابور عنهما. فبأي لغة عرض عليهما حاطب الإسلام^(١)؟

ونحن نعلم أن الثلاثي المصري (مارية، سيرين، مابور) يتحدث اللغة القبطية ذات اللهجة الصعيدية، وحاطب لا يعرف اللغة القبطية، كما تذكر المصادر التاريخية.

والمؤكد أنهم دخلوا المدينة وقد نال منهم التعب حدًا كبيرًا، بعد أكثر من شهر من الخوض في قيظ الصحراء، وقد كان تجار مكة يصلون إليها وقد نال منهم التعب، وتشققت شفاههم، فما بالنا بفتاتين تخوضان مثل هذه الرحلة للمرة الأولى؟

ودخلت القافلة أسوار المدينة: نخل بين حرتين، أو أرض سبخة بين جبلين شاهقين. فمن أين يُسقى النخيل وليس هناك أثر لأية مياه جارية؟ إنها مياه الآبار إذن. وكان يقوم بالعمل فيها عبيد من الحبش. وكلما كانت القافلة تقترب من مواطن المسلمين، كانت الصورة تتضح شيئًا فشيئًا. البيوت متواضعة وفقيرة مبنية من جريد النخل، وعليه مسح شعر سوداء. سقوفها غير مرتفعة تكاد تمسها الأيدي. ولكن أين النساء؟ ربما هن اللواتي يسرن تحت هذه الأغشية

(١) انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك.

السوداء. ينطبق عليهن وصف الكاتب المعاصر سعيد حوى في ذكر حادثة فرض الحجاب على النساء، بأن المدينة صارت مثل مواطن الغربان. وأشد ما كان مشهد المدينة يختلف عن قريتهم الصغيرة القديمة، حفن، الواقعة في حوض النيل بصعيد مصر!

فأخذت القافلة تتقدم أكثر نحو بناء مركزي (المسجد) وبجواره تسع حجرات مبنية بنفس النمط السابق. وقادهم حاطب بن أبي بلتعة إلى مجلس الرجال يتوسطهم رجل ذو مهابة «مشرب بحمرة، طويل المسربة، عظيم الرأس واللحية، عظيم الكراديس، شئ الكفين والقدمين، لا طويل ولا قصير». وهي صفات النبي كما وردت في «تاريخ المدينة المنورة»^(١)، وكان النبي أبيض وبياضه مشرب بحمرة، ضخم الهامة، أغر أبلج، ضخم القدمين والكتفين، سبط الشعر ينسدل إلى كتفيه... أكحل العينين، وسيماً في عباؤه الحمراء. ويبدو مهيباً بين أصدقائه:

فلما نظر إلى مارية وأختها أعجبتاه وكره أن يجمع بينهما، وكانت إحداهما تشبه الأخرى، فقال: «اللهم اختر لنبيك»، فاختار الله له مارية، وذلك بأن قال لهما: «قولا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله»، فبدرت مارية فتشهدت وآمنت قبل أختها ومكثت أختها ساعة ثم تشهدت وآمنت^(٢).

وسرعة إيجاب مارية بالمقارنة مع أختها - باستخدام لغة الإشارة أو حروف صوتية مكسرة - يفصح عن حاجتها السريعة للأمان وسط هؤلاء الأغراب، كما يفصح عن بروز ملكات شخصية كالذكاء وسرعة التعلم والشجاعة، فاختارها النبي لنفسه، ثم أهدى الأخت بطيئة المبادرة - والبطء هنا يمكن أن يعود إلى زيادة الخوف، ويمكن أن يعود إلى الطبيعة الشخصية - أهداها إلى حسان بن ثابت، أو لمحمد بن مسلمة الأنصاري، أو لدحية بن خليفة الكلبي، أو لزكريا بن جهم؛ على خلاف في الرأي. والأقرب إلى الإجماع أنه أهداها إلى

(١) ابن شبة، تاريخ المدينة المنورة.

(٢) محمد بن سعد، المصدر نفسه.

حسان بن ثابت، شاعر النبي، كتعويض له عن ضربة سيف تلقاها من صفوان بن المعطل، كما أعطاه أيضًا بيتًا من بني حديلة.

وبهذا المصير انتحت سيرين مكانًا مظلمًا في خلفية الصورة، ولن نصادف سيرتها في كتب السيرة إلا في مواقف نادرة كـ«فلاشات» ضوئية سرعان ما تختفي دون أن توضح أية ملامح من ظروف حياة هذه المصرية الوافدة إلى بلاد العرب قسرًا وإجبارًا. أما مارية فقد أنزلها النبي في بيت لحارثة بن النعمان عند أم سليم بنت ملحان، ويبدو أن هذا البيت كان قريبًا من بيوت زوجات النبي، المبنية بجوار المسجد من جريد النخل المغطى بمسوح الشعر السوداء على عادة الأعراب، فيما عدا بيت أم سلمة التي بنت غرفتها باللبن أثناء خروج النبي في إحدى الغزوات. ويقول ابن سعد إن عدد هذه الغرف كان تسعًا، وإنها كانت ضيقة لمجرد الوفاء بالحاجة، وغير مرتفعة، حتى إن الحسن بن علي بن أبي طالب، حفيد النبي، يقول: «كنت أدخل بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم في خلافة عثمان فأتناول سقفها بيدي». وكان عدد زوجات النبي المقيمات في هذه الغرف تسعًا، هن^(١):

- عائشة بنت أبي بكر، عقد عليها النبي قبل الهجرة بثلاث سنوات ودخل بها في السنة الأولى من الهجرة وهي بنت تسع.
- حفصة بنت عمر، تزوجها النبي سنة ثلاث هجرية، وسنها يومئذ عشرون سنة بعد أن اشتكى أبوها للنبي أنه عرضها على أبي بكر وعثمان فلم يقبل أحدهما الزواج منها، فقبلها النبي.

(١) ترتيب زوجات النبي: ١ - خديجة، ٢ - سودة بنت زمعة، ٣ - عائشة بنت أبي بكر، ٤ - حفصة بنت عمر بن الخطاب، ٥ - زينب بنت خزيمة، ٦ - أم سلمة، ٧ - زينب بنت جحش، ٨ - جويرية بنت الحارث، ٩ - أم حبيبة، زملة بنت أبي سفيان، ١٠ - صفية بنت حيي، ١١ - ميمونة بنت الحارث العامرية. (عن سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، لابن عبد الملك العاصمي المكي). وقد جاء في «تاريخ اليعقوبي» لأحمد بن أبي يعقوب، الكاتب العباسي المعروف، أن النبي تزوج إحدى وعشرين امرأة، وقيل ثلاثًا وعشرين دخل ببعضهن وطلق بعضًا ولم يدخل ببعض.

- أم حبيبة بنت أبي سفيان، تزوجها النبي سنة سبع هجرية بعد عودتها من بلاد الحبشة.

- أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة، تزوجها النبي سنة أربع من الهجرة بعد وفاة زوجها في غزوة أحد.

- سودة بنت زمعة بن قيس، تزوجها النبي قبل الهجرة بثلاث سنوات في ذات العام الذي عقد فيه على عائشة.

- زينب بنت جحش بن رثاب، تزوجها النبي سنة خمس هجرية بعد أن كانت زوجة مولاه زيد بن حارثة، فوقعَ نظر النبي عليها وأعجبته، فطلقها زيد وتزوجها النبي.

- ميمونة بنت الحارث بن حزن، تزوجها النبي سنة ثمانٍ من الهجرة أثناء عمرة القضاء. - جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، تزوجها النبي سنة خمس من الهجرة بعد أن كاتبته عن نفسها في غزوة بني المصطلق. وفي ذات العام اتخذ من ريحانة جارية له.

- صفية بنت حيي بن أخطب، تزوجها النبي سنة سبع من الهجرة بعد أن ألقى رداءه عليها أثناء تقسيم سبي غزوة خيبر. وفي ذات العام جاءت مارية من مصر فاتخذها جارية له. وفي ذات العام أيضًا، ولكن بعد مرور عدة شهور على مجيء مارية، كانت سرية زيد بن حارثة إلى بني فزارة في شهر رمضان. وأهمية تلك السرية بمكانة قائدها زيد بن حارثة من النبي فهو مولاه المقرب منه، وزوج زينب بنت جحش السابق الذي دفعه حسن خلقه إلى تطليقها لإعجاب النبي بها.

ويحكي الطبري في تاريخه أن زيد قتل أم قرفة في هذه الغزوة، وهي فاطمة بنت ربيعة بن بدر، وأن قتلها كان عنيفًا بأن ربط برجليها حبلًا بين بعيرين حتى شققا شقًا، وكانت عجوزًا كبيرة وأسر ابنتها^(١). فهل سمعت مارية عن هذا الحادث؟ وماذا كان تأثيره عليها؟

(١) الطبري، المصدر نفسه، الجزء الثاني.

ولأن مارية كانت الجديدة الوافدة من بلاد أخرى، محملة بثقافة أخرى وحضارة أخرى، ولأن النبي كان معجباً بها يكاد يتفرغ لها، فقد تفرغت لمراقبتها وحصارها كل نساء النبي رغم أنهن زوجات حرائر وهي جارية ملك يمين.

والجميلة مارية جاءت بدون حجاب، وكانت تتزين بطريقة المصريات المتوارثة عن أمهاتهن الفرعونيات، حيث تستعمل المرأة المصرية الكحل للرموش واللون الأزرق حول العينين والأحمر للوجه. وتضع القرط الدائري الواسع المعروف الآن باسم «الحلق المخرطة» في أذنيها، أو أقراطاً على شكل عنقود العنب، وتزين معصمها بأساور سميكة تنتهي برأس حية من كل ناحية، ويزين الجيد والعنق عقد من الخرز الدقيق الملون، وأحياناً تلبس «الخلخال» الفضي في قدميها. أما الشعر فكانت المرأة المصرية تصفقه بطرق مختلفة أبرزها تسريحة الشعر المنقوشة في جداريات الفن القبطي، ويكون بتجعيد خصلات الشعر على هيئة بلح مع رفعه إلى أعلى وتزيينه بشرائط ملونة. وأحياناً يكون الشعر قصيراً مرخياً على جانبي الوجه، أو طويلاً ينساب على الكتفين في جدائل ملفوفة.

والملابس من الكتان الأبيض المشغول بالصوف الملون، وخصوصاً باللون الأرجواني الذي كان أعجوبة هذا الزمان. ويطرز الثوب حول الرقبة والأكمام بزخارف مصرية مأخوذة من مفردات الطبيعة المصرية مثل الأعناب وزهور اللوتس. أو بزخارف هندسية دقيقة من خطوط ومربعات ودوائر متداخلة ومتكررة. وتصف زبيدة عطا ملابس النساء في دراستها عن إقليم المنيا موطن مارية، فتقول:

كانت غالبية الثياب منسوجة بطريقة القباطي، وهي أقدم المنسوجات المزخرفة، وهي أول زخرفة نسيجية مكونة من لونين أو أكثر، وغالبية الثوب كانت من اللون الأبيض أو الكحلي أو الأرجواني، أما الزخارف فبالوان متعددة^(١).

وعن موديلات الملابس، تقول: «كان منها الثياب القصيرة كثياب الإسبرطيات ومنها الطويلة ذات الطيات»^(٢).

(١) زبيدة عطا، المصدر نفسه.

(٢) المصدر السابق.

وعلى غير عادة عائشة وحفصة في تزيين النساء للنبي قبل دخوله عليهن، لم تشتركا في تزيين مارية غير المحجبة واضحة الجمال الوضيئة، كما يقول الطبري، واشتدت غيرة زوجات النبي منها، حتى إن عائشة تقول في حديثها عن مارية:

ما غرت على امرأة إلا دون ما غرت على مارية وذلك أنها كانت جميلة من النساء جعدة، وأعجب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أنزلها أول ما قدم بها في بيت حارثة بن النعمان، فكانت جارتنا، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم عامة النهار والليل عندها... حتى فرغنا لها؛ فجزعت فحولت إلى العالية فكان يختلف إليها هناك وكان ذلك أشد علينا^(١).

ويبدو أن نار الغيرة كانت دائمة الاتقاد في بيت النبي، وقد روى شمس الدين الذهبي أن نساء الرسول صلى الله عليه وسلم كن حزينين: فحزب فيه حفصة وعائشة وصفيّة وسودة، والحزب الآخر فيه أم سلمة وسائر أزواجه. وصورة مشاجرات الضرائر وكيدهن لبعضهن في الظاهر وفي الباطن، بل وكيدهن للنبي نفسه كثيرًا ما كانت تحدث بزعامه عائشة وحزبها الذي كتلته من الزوجات القويات أمثال: حفصة بنت عمر وغيرها. وأحيانًا كان يصل الشجار إلى حد التشابك بالأيدي كما حدث حينما جذبت عائشة وحفصة أم سلمة من رأسها، بخلاف المعارك الكلامية الكثيرة بين الحزينين.

وكثيرًا ما اشتعلت نار الغيرة بين عضوات حزب عائشة نفسه فكانت عائشة تدس لحفصة إذا ما تأخر النبي عندها^(٢).

كان ذلك قديمًا ومستمرًا بينهن، حتى جاءت مارية فجذبت الأنظار، وغارت منها عائشة أكثر من غيرها من الأخريات، خصوصًا أن النبي يقضي معها معظم الليل والنهار، ويكاد يتفرغ لها، ووضعها كجارية لا يعطيها حق قسمة الأيام مثل سائر

(١) عمر رضا كحالة، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام.

(٢) محمد بن سعد، المصدر نفسه.

الزوجات^(١). فإذا بها تأخذ معظم الليل والنهار ومن شدة ولع النبي بها كان يدخلها بيوت زوجاته الأخريات، ويعطيها أيامهن أحياناً، فوقفت له حفصة بنت عمر بن الخطاب ذات يوم، وهي الوارثة قوة اللسان عن أبيها، فعاتبته حتى استرضاهما بوعده مقاطعة مارية. والحكاية كما يرويها القاسم بن محمد:

خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم بجاريته مارية في بيت حفصة، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وهي قاعدة على بابه - يقصد حفصة - فقالت: «يا رسول الله أفي بيتي وفي يومي؟»، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «هي عليّ حرام فأمسكي عني»، قالت: «لا أقبل دون أن تحلف لي»، فقال: «والله لا أمسها أبداً»^(٢).

ونزلت في تلك الحادثة آية الإيلاء: «قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَنِكُمْ» وآية: «يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِرَحْمَةٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ».

(١) يذكر شمس الدين الذهبي أن عائشة وحفصة كانتا يداً واحدة، ومع ذلك كانت عائشة تغار من حفصة إذا ما تأخر النبي عندها، ويروي البخاري عن عائشة قولها إن النبي كان «يحب العسل والحلواء، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه فيدنو من إحداهن، فدخل على حفصة بنت عمر فاحتبس أكثر مما كان يحتبس؛ فغرتُ فسألتُ عن ذلك فقيل لي أهدت لها امرأة من قومها عكة عسل، فسقت النبي صلى الله عليه وسلم منه شربة، فقلت أما والله لنحتالن له».

ودبرت عائشة خطة لإبعاد النبي عن حفصة والعسل بأن اتفقت مع سودة بنت زمعة وبقية الزوجات على أن يوحين للنبي إذا اقترب من إحداهن بأن هناك رائحة كريهة للعسل الذي شربه. فقاطع النبي العسل، ثم قاطع نساء شهرًا حتى نزلت الآية: «يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِرَحْمَةٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ». انظر: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء السادس عشر.

ولم تتوقف مكائد الزوجات خصوصاً ضد الزوجة الحديثة، فكانت عائشة تقول لها عند تجميلها: «إن أردت أن تحظي عنده فتعوزي بالله إذا دخلت عليه» فتعوزت أسماء بنت النعمان الكندي في وجه النبي فألقها بأهلها دون أن يدخل عليها، فزعموا أنها ماتت كمدًا. انظر: تاريخ اليعقوبي، الجزء الثاني.

وقد اشتكت أم سلمة من عائشة وكلمت فاطمة... فقالت فاطمة لأبيها: «إن نساءك يشندنك العدل في بنت أبي بكر». كما اشتكتها زينب بنت جحش للنبي «فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهي قاعدة، فسبتها». وكان النبي «ينظر إلى عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها». انظر: شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء.

وهكذا تمتلئ كتب السيرة بقصص المشاجرات بين حزبي زوجات النبي، وبين أعضاء الحزب الواحد، في غيبة النبي وفي حضرته، ولم يكن لتلك الغيرة ومكائدها نهاية طالما بقيت الزوجات التسع.

(٢) المصدر السابق.

وهكذا وجدت مارية - قبطية اللسان والعادات - نفسها محاطة بعدد من الزوجات، بينما يختلف الوضع في بيئتها الطبيعية في مصر عن ذلك كلياً، حيث لا يتزوج الرجل إلا من امرأة واحدة تشاركه حياته، ويتلازم الزوجان حتى موت أحدهما. وتمسك الفكر القبطي بمبدأ الزوجة الواحدة للأبد، واعتبر الجمع بين زوجتين زنى ظاهراً مستمراً، كما حرم التسري، وكما جاء في قوانين «المجموع الصفوي»: «من له امرأة ويجمع مملوكته يعاقب»^(١).

ومبدأ الواحدة الراسخ في البيئة المصرية منذ عصور التاريخ الفرعوني القديم يختلف عن أساس المعاملة في الفكر العربي الذي يمنح الرجل حق الاستمتاع غير المحدود بالنساء باعتباره من مجرد وسائل للذة الحسية. وفوجئت مارية القبطية التي تحرم شريعة دينها ارتباط الرجل بأكثر من امرأة، وتحرم التسري وتضعه في مرتبة الزنى الفاحش، بأنها أصبحت واحدة من حريم واسع لرجل واحد، وأن حلقة الحصار تضيق حولها، حتى إن النبي نفسه قد ضاق بهذا الحصار، وقرر فصلها بعيداً عنهن فحولها إلى العالية بعيداً عن عيون زوجاته التسع.

والعالية، التي تقع جنوب شرقي المدينة، هي نصيب النبي من مغنم غزوة بني النضير عام سبعة هجرية، وتشتهر «بنخيلها وآبارها العذبة وهي كثيرة المياه وتزرع أراضيها القرع واللفت والجزر»^(٢)، وكانت الزراعة تقوم على أكتاف العبيد المشتركين من الشام في أغلب الأحيان.

وأخذ النبي العالية له خالصة «فأعطى من أعطى وحبس ما حبس وكان يزرع تحت النخل زرعاً كثيراً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل له منها قوت أهله سنة من الشعير والتمر لأزواجه وبني عبد المطلب»^(٣). وما يتبقى من عائدها كان يشتري به السلاح والعتاد، والعالية كانت مساحة كبيرة من الأرض الخضراء «وهي سبعة حوائط: الميثب والصفافية والدلال وحسني وبرقة والأعواف ومشرية

(١) ابن العسال، المجموع الصفوي.

(٢) الفيروزآبادي، المغنم المطابة في معالم طابة.

(٣) الواقدي، كتاب المغازي.

أم إبراهيم - نسبة إلى مارية - وكانت أم إبراهيم تكون هناك وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيها هناك»^(١).

وبصعود مارية إلى العالية ابتعدت خطوة عن جو المكائد والمؤامرات الدائرة بين زوجات النبي في غرفهن المحيطة بالمسجد، واقتربت خطوة من بيئتها الطبيعية بعد أن توفرت عناصر الخضرة والزراعة في المكان الجديد الذي يسميه محمد بن سعد بـ«خرافة النخل»، من كثرة زرعه بالنسبة إلى الصحراء المحيطة.

ويذكر محمد بن سعد فرض الحجاب على مارية بعد صعودها إلى العالية، ورغم أنها كانت لا تزال في وضع الجارية، فإن النبي قد فرض عليها الحجاب وهو شارة وعلامة المرأة الحرة بسبب شدة جمالها وشدة غيرة الأخريات منها. وفي حديث عن محمد بن عمر قال: «حدثني ابن أبي سبرة عن إسحاق بن عبد الله عن أبي جعفر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حجب مارية وكانت قد نقلت على نساء النبي صلى الله عليه وسلم وغرن عليها ولا مثل عائشة»^(٢).

ودخلوها تحت ستر الحريم كان علامة فارقة أخرى في حياتها، وهي التي تعودت مثل سائر نساء محيطها على مخالطة رجال مجتمعها دون حجاب، فالفلاحة المصرية تعمل في الحقل كتفاً بكتف مع الرجل، كما تعمل في معاصر النبيذ وأعمال النسيج وشتى الحرف، وفجأة تغير كل ذلك حينما انتقلت إلى البيئة العربية، وفرض عليها العزلة، وأصبحت مقيدة الحركة مثل الأخريات اللاتي ينتظرن هبوط الظلام حتى تخرج الواحدة منهن «من مساكن حيها إلى مكان قصي لتقضي حاجتها ثم تعود»^(٣).

وبعدما كانت «تروح وتغدو كما تريد، تحدث من تشاء وتختلط بالرجال دون الحجاب» مثل سائر النساء المصريات، أصبحت الآن قعيدة بيت العالية لا تستطيع حتى أن تجلب الماء لنفسها. فكان مابور يأتيها بالماء والحطب، لكن كثرة تردهه عليها وضيق الأفق المحيط، أثار اللغظ العربي كثير الشكوك، ويلاحظ ابن كثير في

(١) المصدر السابق.

(٢) محمد بن سعد، المصدر نفسه.

(٣) سعيد حوى، الرسول صلى الله عليه وسلم.

كتاب «البداية والنهاية» أن تردد مابور على مارية كان عاديًا؛ لأنه «كان من عاداتهم ببلاد مصر»^(١).

ولم ينته هذا اللغظ إلا بعد إثبات أن مابور خصي.

وربما حاولت مارية إضافة لمسات مصرية إلى بيتها في العالية، ولكن أنى له أن يصبح كبيوت مصر ذات الستائر المنسوجة بخيوط الصوف والكتان على طريقة القباطي، والمزخرفة برسوم الفواكه أو رسوم الراقصات، والمناشف أو الفوط المزخرفة برسوم الحيوانات، ومسارج البرونز المصنوعة على شكل أسد أو حمامة أو ثور أو طاووس، وقنينات العطر، وأدوات زينة المرأة من الأقراط والخواتم والمكاحل والمراد وعقود الخرز الدقيق الملون وأمشاط العاج وشباك الشعر المزينة بالورد والصفائر المجدولة من اللونين الأبيض والأزرق؟ وحتى لعب الأطفال من الشخايل والتماثيل صغيرة الحجم - وكان القبط يحبون التماثيل الصغيرة جدًا - المصنوعة من الطين في أشكال كاريكاتيرية وتعرف باسم «أنطيو» أو «هادريان» أو المساخيط. أدوات حضارية كثيرة، وإن كانت صغيرة، تركتها مارية خلفها في قريتها الصغيرة حفن، وكان من الصعب تعويضها في البيئة الجديدة.

ويقال إن النبي كان لديه مشط ومرآة ومدهنة وسواك وكحل. وإن المقوقس أهدي له فيما أهدي قدح زجاج كان يشرب فيه، «وقال عاصم هو قدح جيد عريض من نضار»^(٢)، كما أهدي له «ربعة» يضع فيها «المرآة ومشطاً من العاج والمكحل والمقص والسواك»^(٣). وعلى الرغم من صغر هذه الأدوات فإنها كانت مثار إعجاب البيئة المحيطة بالنبي ودليلاً على تميزه، حيث يبعث وجودها على راحة الإنسان وورقي نمط معيشته عمومًا، ويدفع غيابها إلى خشونة الحياة وجهامتها.

وغياب كل تفاصيل الحياة اليومية وأدواتها التي تعودت عليها مارية في موطنها الأول، كان يعني غياب وفقدان الألفة مع المكان الجديد وغربتها

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، الجزء الرابع.

(٢) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، الجزء الأول.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٨٩.

الكاملة عن كل ما يحيط بها. مع ملاحظة جمال مارية وإعجاب النبي بها وغيره النساء منها بسبب اختلافها الحضاري، والذي كان لا يزال يترك آثاره في ملابسها وزينتها وطريقتها في التعامل مع كل ما يحيط بها. فكان النبي كثير التردد عليها ما دام مقيمًا في المدينة، وفي أثناء الغزوات كان يتركها وحيدة في العالية حتى يعود.

ويرى جاك تاجر أن تأثير مارية على النبي كان تأثيرًا حسنًا جدًا؛ فأحب الأقباط من خلالها وأوصى بهم خيرًا، وأنه اطلع على جزء كبير من تفاصيل وضعهم الاجتماعي، ومدى الغبن الواقع عليهم من خلال معاشرته لمارية. وقد زادت مكانتها لديه حينما رزقت بالولد في ذي الحجة من سنة ثمان هجرية بعد حرمانه من الإنجاب لسنوات طويلة تعدت العشرين عامًا، وفقده لابنيه القاسم وعبد الله من السيدة خديجة في طفولتهما الأولى.

وكان ميلاد إبراهيم بعد فتح مكة، فاستخلف النبي صديقه أبا بكر على المدينة المفتوحة، وعاد إلى المدينة. كما بدأت وفود القبائل تهل عليه وتبايعه في المدينة معلنة خضوع الجزيرة العربية كلها لحكم النبي وتوطيد دعائم الدولة الإسلامية.

وحينما جاء أبو رافع، أحد موالي النبي الذين أوقفهم على زراعة العالية، يبشره بالولد فرح فرحًا شديدًا وأعتقه من أسر العبودية، بل أعتق مارية نفسها قائلًا: «أعتقها ولدها».

وكانت سيرين أخت مارية قد أنجبت هي الأخرى ولدًا لحسان بن ثابت يدعى عبد الرحمن. ويبدو أن طول سنوات حرمان النبي من الأبناء الذكور، رغم كثرة زواجه، وبلوغه سن الستين، قد جعل الفرحة بالمولود تتضاعف، فاحتفل يوم سبوعه احتفالًا كبيرًا بأن «عق عنه بشاة»، وحلق رأسه فتصدق بزنة شعره فضة على المساكين، وأمر بشعره فدفن في الأرض^(١).

وكانت زوجة أبي رافع قابلة مارية في الولادة، وقد سميت العالية أو الموضع

(١) محمد بن سعد، المصدر نفسه.

الذي سكنته مارية في العالية بـ«مشرية أم إبراهيم»، لأن مارية «تعلقت حين ضربها المخاض بخشبة من خشب تلك المشرية». ويقول ابن شبة في كتاب «تاريخ المدينة المنورة» إن تلك الخشبة معروفة «حتى اليوم»، ويقصد حتى أيام زمانه في القرن الثالث الهجري، ما يبين مدى حفاوة الجميع بميلاد إبراهيم، خصوصاً أن ميلاده جاء بعد اتساع سطوة الدولة الإسلامية وزيادة نفوذ النبي وخضوع القبائل له واتساع الثروة الآتية من غنائم الحرب. وقد «تنافست نساء الأنصار أيتهن ترضعه، وأحببن أن يفرغن مارية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لما يعلمن من هواه فيها»^(١).

فاختار النبي مرضعة لابنه - على عادة أثرياء العرب - وأعطاه لها يعيش معها بعيداً عن أمه مارية:

فدفعه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أم بردة المنذر بن زيد
لبيد بن خداس بن عامر وزوجها البراء بن أوس، فكانت ترضعه وكان
يكون عند أبيه في بني النجار، ويأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم
أم بردة فيقبل عندها^(٢).

والمرأة العربية التي تدفع وليدها إلى مرضعة تعتبر ذلك من علامات قدرتها وعلو شأنها وثراء أسرتها، أما الفلاحة المصرية فقد تعودت أن تنشئ رضيعها بين أحضانها، وتوفر له كل عوامل الاستقرار والحب. ومارية الفلاحة القبطية الغربية عن جميع من حولها، حينما تنجب طفلاً فهي تتمنى أن يعوض غربتها ووحدها. ومع ذلك فقد انتزعوه من أحضانها وأعطوه لغريبة تحل محل أمه. ترى كيف كانت مشاعر مارية في ذلك الحين؟ وكيف تعاملت مع هذا الوضع؟ هذا ما لا تجيبنا عنه المصادر التاريخية التي لم تلتفت إلى مشاعر الجارية الغربية كشأن العرب المحيطين بها.

أما النبي فكان يرى ذلك عادياً وطبيعياً، وكان فرحاً بابنه الذكر، ويكثر الذهاب إلى بيت المرضعة ويقبل - أي يقضي فترة القيلولة - عندها ويضع إبراهيم في

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

حجره ويلاطفه، وأحياناً يحمله على يديه ويخرج به، ويروي الزهري عن عروة عن عائشة أنها قالت:

دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه ابنه إبراهيم يحمله، قال: «انظري إلى شبهه بي»، قالت عائشة: «أرى شبهها» - تقصد مارية - قال: «أما ترين بياضه ولحمه؟»، قالت: «من قصر عليه اللقاح ابيضَّ وسمن»^(١).

وكان النبي قد أوقف قطعة من الغنم لمارية وإبراهيم يستفيدان من لبنها «فكان جسمه وجسم أمه مارية حسنين»، كما يقول ابن سعد^(٢).

ومن المعروف أن النبي كان يملك عددًا من اللقاح وعددها عشرون ترعى في مكان كثير الزرع يسمى بالغابة. وقد خصص النبي لكل زوجة من زوجاته لقحة (ناقة حلوب)، وكانت لقحة عائشة تدعى «السمراء»، ولقحة أم سلمة تدعى «العريس».

فلم تكن لقحة مارية وابنها بشيء فريد إذن حتى يثير غضب الزوجات اللاتي يثرن ضد غريمتهن بلا سبب واضح أو منطقي، فما بالنا إذا كانت هذه الغريمة هي أم الولد في بيئة تقدر الأبناء الذكور؟

لكن فرح النبي بإبراهيم لم يدم، حيث مرض الطفل في عامه الثاني، وحضرته الوفاة وهو لم يكمل رضاعه بعد. فهل أصابه مرض حمى الملاريا، خصوصاً أن مياه السيول كانت تتراكم في المدينة في هذا الوقت «وتكوّن مستنقعات تؤدي إلى انتشار البعوض الناقل لحمى الملاريا»^(٣)، أم كانت وفاته بسبب مرض آخر؟

ويقال إن النبي حينما بلغه نبأ مرض إبراهيم أخذ بيد عبد الرحمن بن عوف وانطلق إلى النخل الذي فيه ابنه إبراهيم فوجده يجود بنفسه، فأخذه فوضعه في حجره ثم بكى. وقد هرعت سيرين هي الأخرى إلى أختها مارية حينما سمعت نبأ مرضه، فتروي عن ذلك وتقول: «حضرت موت إبراهيم فرأيت

(١) تاريخ يعقوبي، ص ٨٤.

(٢) محمد بن سعد، المصدر نفسه.

(٣) محمد محمود محمددين، «الزراعة والري في الحجاز في العصر النبوي وعصر الخلفاء الراشدين».

رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما صحت أنا وأختي ما ينهانا، فلما مات نهانا عن الصياح»^(١).

فهل كانت مارية وسيرين تصيحان على إبراهيم بالقبطية أم بالعربية؟ أم اختلطت الأصوات لدى الأم الثكلى الآتية من أعماق الصعيد المصري، وفيه تعبر الثكلى عن حزنها بالعديد الحار، وتلطم الخدين، وتحل الشعر، وتتمايل مع اهتزازات إيقاع العديد؟

وسرعان ما انتهت مراسم دفن إبراهيم بالبقيع، وعادت مارية ذاوية إلى العالية... وحيدة وحدة مركبة، وحزينة إلى ما لا نهاية بعد فقد وحيدها.

بينما عادت سيرين إلى حياتها السابقة في بيت حسان بن ثابت مع ابنها عبد الرحمن بن حسان بن ثابت. وقد امتدت حياة عبد الرحمن بن سيرين بعض الوقت في بلاد العرب، وأنجب ابنه سعيد وإسماعيل، اللذين قتلًا بأيدي عربية في رقة الحرة عام ٦٣ هـ أثناء النزاع العربي-العربي على الثروة والنفوذ، وفيها هاجمت جيوش يزيد بن معاوية المدينة لإجبار أهلها على إعطاء البيعة ليزيد. فقتل في هذا اليوم ألف وسبعمائة من العرب، ومن ضمنهم سعيد وإسماعيل، ابنا عبد الرحمن بن ثابت، وانقطع بذلك نسل سيرين القبطية من العرب^(٢).

وبعد وفاة إبراهيم طلق النبي الشبناء بنت عمرو الغفارية، وكان قد تزوجها قبلها بعدة أيام ولم يدخل بها لأنها حاضت «حين دخلت عليه، ومات إبراهيم قبل أن تطهر، فقالت لو كان نبياً ما مات أحب الناس إليه... فسرحتها رسول الله صلى الله عليه وسلم»^(٣).

وفارق النبي الحياة في الثالثة والستين من عمره، وترك مارية شابة صغيرة السن، ولم يذكر لنا المؤرخون عمرها على وجه التحديد، ولكن بالحساب المنطقي لحياة جارية صغيرة جميلة أهديت إليه في ريعان صباها، بينما كان النبي في الثامنة

(١) محمد بن سعد، المصدر نفسه.

(٢) ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، ص ٣٤٧. وقد أبيضت المدينة ثلاثة أيام للقتل والنهب.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الثالث. شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، الجزء الأول، ص ٣٣٢.

والخمسين أو نحوها، وعاشت في يثرب منذ أواخر العام السابع للهجرة، ثم فارقتها النبي في العام الحادي عشر بعد مرور حوالي خمسة أعوام أو أقل على الحياة معه، وتركها للوحدة المطلقة والغربة الشاملة، حيث يطبق عليها قانون عدم الزواج مرة أخرى كشأن سائر زوجات النبي، وإن لم ترقَ إلى مرتبة الزوجة، وأمرها القيمون على الأمر بأن تعتد بعد وفاة النبي، فاستبرأت ثلاث حيضات متتالية، ثم عاشت وحيدة فحضرت زمن خلافة أبي بكر الذي ينفق عليها من بيت المال، دون أن نعرف مقدار عطائها على وجه التحديد، ثم أدركتها الوفاة زمن الخليفة عمر بن الخطاب في المحرم عام ستة عشر من الهجرة، ويقال إن عمر «كان يحشر الناس بنفسه لشهود جنازتها»^(١)، فماتت في ريعان شبابها وهي لم تتجاوز العقد الثالث من عمرها على أكثر تقدير، والأرجح أنها كانت تقترب من عائشة في العمر.

بينما عمرت بقية نساء النبي، وعشن حتى بلغن الشيخوخة، وشهدن أحداث تطور الدولة العربية واتساعها شرقاً وغرباً، فتوفيت أم حبيبة عام أربعة وأربعين هجرية، أي بعد وفاة مارية بحوالي ثمانية وعشرين عاماً وبعد وفاة النبي بحوالي ثلاثة وثلاثين عاماً. وتوفيت حفصة بنت عمر عام واحد وأربعين، بعد وفاة النبي بحوالي خمسة وعشرين عاماً.

وتوفيت عائشة عام سبعة وخمسين هجرية، وكانت سنّها حين حضرته الوفاة خمساً وستين سنة، وشاركت في أحداث كثيرة، وشهدت الفتوحات ونالت العطاء لأكثر من ستة وأربعين عاماً. وكانت هي أقرب الزوجات إلى عمر مارية على وجه التقريب، فعاشت أكثر منها بحوالي واحد وأربعين عاماً، بينما كانت أم سلمة آخر زوجات النبي اللاتي أدركتهن الوفاة، حيث توفيت عام واحد وستين هجرية^(٢).

وموت مارية المبكر جداً يرجع لأسباب كثيرة: ربما المرض، ربما الوحدة، ولكن السبب الأكثر تأكيداً هو الإحساس بالغربة الشاملة. وقد دفنت بالبقيع

(١) النويري، المصدر نفسه.

(٢) روى الطبراني أن أول من مات من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش وآخرهن موتاً أم سلمة.

بعيدة عن بلادها مئات الكيلومترات، دون أن تسمع عن فتح المسلمين لمصر، وطنها الأول.

وإن قدمت هي وأختها شرارة الروح المصرية التي حلت ببلاد العرب بعض الوقت، فبينت مدى الاختلاف بين الحضارتين في السلوك والعادات والتكوين الثقافي.

ولو اهتم المؤرخون قليلاً بمتابعة تفاصيل هاتين المصريتين نصف اهتمامهم بمتابعة سير الزوجات العربيات الحرائر، لكانت الصورة أكثر وضوحاً، وتفصيل الغربة والوحدة أكثر اتساعاً ودقة. مما يجعل الموت المبكر نتيجة طبيعية وحتمية في ظل تلك المفارقات العميقة.

الفصل الثاني

وقائع الفتح وسير الفاتحين

«ذكر أهل العلم والمعرفة والرواية أنه دخل مصر في فتحها ممن صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة رجل ونيف»^(١). كانوا يمثلون قمة الصفوة العربية، ومن خلفهم آلاف الجند الممثلين للقبائل المختلفة: العدنانية منها؛ أو ما يسمى بـ«عرب الشمال»، والقحطانية الأصول؛ أو ما يسمى بـ«عرب الجنوب».

وتتباين هذه القبائل من حيث الثراء والمكانة، فعرب الشمال كانوا يتيهون على عرب الجنوب بالمبالغة في الأحساب والأنساب وحياسة شرف الإحاطة بالكعبة، واحتكار تجارة شبه الجزيرة العربية والثراء، ثم ظهور الدين الجديد بينهم. وكما يقول ياقوت الحموي في «معجم البلدان»: «إن أهل مكة كانوا آمنين يَغْزُونَ النَّاسَ وَلَا يُغْزَوْنَ، وَيَسْبُونَ وَلَا يُسْبَوْنَ، وَلَمْ تُسَبَّ قَرَشِيَّةٌ قَطُّ فَتَوَطَّأَ قَهْرًا». وظلت قريش تتيه على ما عداها من القبائل، وتحتل موضع السيادة بينهم قبل وبعد الإسلام.

وكان الجيش العربي القادم لفتح مصر يتكون من وحدات قبلية تسمى ألوية. ويرفع كل منهم رايته مختلفة اللون والشكل عن رايات القبائل الأخرى، ومن القبائل ما يكون على ميمنة الجيش، ومنها ما يكون على ميسرته، ثم يتوحد الجميع تحت راية القلب حول القائد العام للجيش.

وجاء من عرب الشمال في هذا الجيش ما يمثل حوالي ثلاثين قبيلة، تضم ثلاثين

(١) ومنهم: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء عقبة بن عامر، وأبو ذر الغفاري، ومحمية بن جزء الزبيدي، ونبيه بن صواب المهري، ورافع بن ملك، وربيع بن شرحبيل بن حسنة، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم. انظر: الكندي، فضائل مصر المحروسة، ص ٢٨.

بطناً، من أبرزها: قريش، وفهر، وعامر، وغفار، وثقيف، الذين احتل كبارهم مواقع أمراء الجيش وقواده، وخرج منهم بعد ذلك أصحاب الشرط والقضاة ورؤساء الدواوين والقادة الذين حكموا مصر في العقود التالية للفتح.

ولم تبعث بعض القبائل الشمالية صاحبة السيادة والنفوذ سوى بأعداد قليلة من الرجال لا يكاد عددهم يكفي لتشكيل لواء مستقل للقبيلة كما هي العادة. ومن هذه القبائل قليلة التمثيل: قريش نفسها، والأنصار، وخزاعة، ومزينة، وأشجع، وثقيف، ودوس، وعبس، وجرش من كنانة. ورفض كل وفد من هؤلاء الشماليين الأثرىء الانضمام تحت راية قبيلة أخرى، حتى لا تنقص مكانتهم ويصبحوا تابعين لغيرهم، فرأى عمرو بن العاص القائد العام - بذكائه السياسي - للتغلب على هذه العقبة الداخلية في بناء الجيش أن يبادر إلى «جمعهم معاً وجعل لهم رايته هو بصفته القائد العام»^(١).

وكان عمرو يفضل استخدام راية سوداء اللون على غرار أول راية أعطاها له النبي في غزوة ذات السلاسل، ومن يومها ظلت راية عمرو سوداء، فرفعها في وقعة قيسارية وفي اليرموك وحروب الشام وفي معركة صفين.

أما ملابس عمرو - القائد العام - فيصفها الواقدي في «فتوح الشام» يوم وقعة قيسارية بقوله: «عليه درعه ومن فوقه جبة صوف وعلى رأسه عمامة من صنع اليمن مصبوغة صفراء، وقد أدارها على رأسه كوراً وأرخى لها عذبة، وفي وسطه منطقة وقد تقلد سيفه واعتقل رمحه»، وأنه ظل على تلك الهيئة حتى وهو متوجه إلى أمير الروم في مباحثات ثنائية، وحينما رآه الترجمان ضحك، فقال له عمرو: «مِمَّ تضحك يا أخا النصرانية؟». قال: «من دناءة رؤيتك وحملك هذا السلاح، ما الذي تصنع به ولم تحمله معك وما تريد حرباً؟»، قال عمرو: «إن العرب حمل السلاح شعارهم ووطاؤهم ودثارهم، وإنما حملت السلاح معي استظهاراً ولعلي أن ألقى عدوًّا فيكون ذلك حصناً من عدوي وأحامي به عن نفسي»^(٢).

(١) عبد الله خورشيد البري، القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة.

(٢) الواقدي، فتوح الشام.

وكانت صفة عمرو بن العاص: «قصيرًا عظيم الهامة ناتئ الجبهة واسع الفم عظيم اللحية، عريض ما بين المنكبين عظيم الكفين والقدمين»^(١).

أما عن بقية الجيش، فسنجد الجنود ذوي الأصول القحطانية، والذين شكلوا قاعدة الجيش من الجنود المقاتلة، وبلغوا حوالي ثلاثة أضعاف عرب الشمال ذوي الأصول العدنانية، فجاء منهم ما يمثل حوالي إحدى وستين قبيلة يتفرع منها إحدى عشرة ومائة بطن من أبرزها: الأزد، وتجب، ولخم، وجذام، والمعاقر.

والجدير بالذكر أن بعض هؤلاء الجنوبيين كانوا من العرب المرتدة، الذين انشقوا على الدولة الإسلامية بعد وفاة النبي، رافضين دفع الزكاة، وحاربهم عليها أبو بكر وأحرق من زعمائهم حتى أخضعهم مرة أخرى. وكان أبو بكر يرفض انضمام أهل الردة إلى جيوش الفتح، ثم رأى بعد ذلك أن يسمح لهم بالانضمام إلى جيوش الفتح ووضعهم في أتون المعارك الخارجية. فتح عمر بن الخطاب هذا الباب واسعًا حتى يشغلهم عن الفتن والقتال الداخلية، ويعطيهم فرصة الحصول على بعض المنافع وتغيير وضعية الفقر المدقع التي كانت تحاصرهم، وخصوصًا قبيلتي عك وغافق، أصحاب الكثرة العددية في جيش عمرو بن العاص. كما انضم إلى جيش الفتح عدد من الصعاليك - قطاع الطرق - الذين أسلموا، وعلى رأسهم أبو ذر الغفاري، أحد صحابة النبي.

وقد انضم إلى الجيش العربي في طريقه من الشام وفلسطين إلى مصر عدد من البدو، وبعض الفرس، وبعض الروم المهزومين، وعرب الأنباط الذين قاموا بدور الأدلاء والترجمة والمراسلين.

وهناك في أقصى الطرف المنسي من الصورة، في مؤخرة الجيش، كانت الجمال تتهدى، وفوقها هوداج النساء من زوجات القادة والأمراء ورؤوس القوم، ومن خشي أن يترك امرأته هناك مع القبيلة، أو في مدن الصحراء الناشفة.

جاءت العرب بالظعن - كما يقولون - كعلامة من علامات عزمهم على القتال حتى الموت دفاعًا عن الزوجات والحريم، أو الانتصار على العدو.

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص ٥٣.

وكانت عادة اصطحاب النساء في الحرب عادة عربية قديمة لتحسيس الرجال وقضاء حاجاتهم العاجلة، وظلت تلك العادة سارية في غزوات النبي وبعد الإسلام^(١). وفي جيش فتح مصر جاءت رايطة بنت منبه بن حجاج القرشية^(٢) زوجة عمرو بن العاص، التي لا نجد ذكرها سوى أثناء حصار الإسكندرية، حينما اشتد القتال، وقال بعض المسلمين يحذرون عمرو: «إن العدو قد غشوك ونحن نخاف على رايطة»، فقال: «إذن يجدون رايطة كثيرة»^(٣).

فعمرو يقرر أنه في حالة انتصار الرومان على العرب فإنهم سيجدون رايطات كثيرات مثل زوجته، مما يدل على وجود عدد من زوجات القادة العرب اللاتي جئن بصحبة الجيش، مثل بسيسة بنت أبي يشرح زوجة عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وزوجة معاوية بن حديج، بالإضافة إلى خولة بنت الأزور الكندية، ومزروعة بنت عملوق الحميرية، اللتين يقول عنهما الواقدي إنهما قد «أبلتا بلاء حسنًا في فتوح الشام ومصر»^(٤).

وسار الجيش في طريق غزة-رفح-العريش-الفرما، ومنها إلى الصالحية-بليس وبها حامية رومانية بقيادة «Arteon» الذي سماه العرب «الأرطوبون»، وبعد قتال شهر استولى عمرو على المدينة، ومنها انطلق إلى رأس الدلتا فوصل إلى قرية تسمى «تندونباس» ويسمونها العرب «أم دنين» واستولى عليها، وحاصر العرب حصن بابليون، ولما طال أمر الحصار أحس عمرو أنه في حاجة إلى مدد فأرسل إلى عمر بن الخطاب، وجاء المدد بقيادة أربعة من كبار القادة هم الزبير بن العوام، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد الأنصاري، والمقداد بن الأسود.

(١) روت عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم «كان إذا خرج في سفر أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها، وكان يحب ألا أفارقه في سفر ولا حضر. فلما أراد غزوة المريسيع، أقرع بيننا فخرج سهمي وسهم أم سلمة، فخرجنا معه». لمزيد من التفاصيل، انظر: السيرة النبوية لابن هشام.

(٢) رايطة أسلمت بعد زوجها يوم الفتح، وهي واحدة من الخمس عشرة امرأة اللاتي خرجن لإثارة نار قریش ضد المسلمين، وظلت تجاهر بعداوتها للإسلام حتى يوم الفتح، وهي واحدة من وفد نساء قریش اللاتي أتین بالأبطح وبايعن بشروط معينة.

(٣) ابن عبد الحكم، المصدر نفسه.

(٤) الواقدي. المصدر نفسه.

وكانت صفة الزبير بن العوام «فيما يزعمون، أبيض حسن القامة، ليس بالطويل، قليل شعر اللحية، أهلب كثير شعر الجسد»^(١).

أما عبادة بن الصامت، فكان طويلاً، وقيل إن طوله عشرة أشبار، شديد السواد. وكانت صفة مسلمة بن مخلد، سمياً كثير اللحم ثقيل البدن، وقد قال عنه عمرو بن العاص في إحدى المعارك: «ما بال الستة الرجل الذي يشبه النساء يتعرض مداخل الرجال؟»^(٢).

واشتد ساعد عمرو بهذا المدد، فشدد الحصار وخرج الروم للقائه عند هليوبوليس، وانتصر العرب عليهم، ثم استطاعوا الاستيلاء على حصن بابلين، ومن ثم انطلقوا إلى الإسكندرية - عاصمة الدولة الرومانية - عبر قرى ومدن مصر السفلى، وفتح عمرو في طريقه طرنوط، ثم نقيوس، ثم سلطيس، ثم الكريون، وجاء دور الإسكندرية.

واستمرت أعمال الفتح حوالي ثلاثة أعوام من ١٨ هـ / ٦٣٩ م وحتى تسليم الإسكندرية في ١٦ شوال ٢١ هـ / ١٧ سبتمبر ٦٤٢ م.

وبدت صور اللقاء للوهلة الأولى مختلفة التوازن، متنافرة الأطراف بين الجيش العربي المغطى بغبار الصحراء وآثار القتال المتواصل، والفرسان النحيفين شعث المظهر والجياد النافرة، ويقال إن صفة الجنود اليمينيين المشكلين لقاعدة الجيش العربي أنهم كانوا نحيفين، ناتني العظام، وتغلب عليهم سمات تواضع المظهر وفقر الثياب.

بينما كان الجانب الآخر من الرومان يسرف في الزينة والتأنق والترهل. أيضاً يأكل الخلاف قادتهم، ويقاتل بعضهم بعضاً، ويختفون خلف الحصون، وقد فضل بعضهم الفرار ليلاً تاركين جنودهم للموت.

وكانت مصر مقسمة إلى ثلاثة أقاليم إدارية، تستقل كل منها بحاميتها العسكرية وقائدها المستقل، مما يفسر روح التطاحن الشديد بين القادة، وصمود بعضهم للقتال، وفرار البعض الآخر.

(١) ابن عبد الحكم، المصدر نفسه.

(٢) المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.

وفي طريق الجيش العربي المنطلق من قرية إلى أخرى، ومن مدينة إلى التي تليها كانت جموع الشعب المصري العزل من السلاح ترقب بحذر وهلع أخبار المعارك الدائرة بين العرب والروم، ويكاد الخوف من الجانبين أن يعتصرهم وذكرى حروب الروم والفرس لم تجف دماؤها بعد، وقد فضلت بعض قرى أسفل مصر الانضمام إلى جيش الروم، تقاتل معهم جيوش الغزو العربي.

* * *

هكذا بدت الصورة الخارجية لعناصر الصراع لحظة الفتح العربي لمصر، وتحتها آلاف التفاصيل والتشابكات والتنافرات التي سنحاول الاهتمام بتجميعها وترتيبها، عليها تلقي الضوء على بعض المسكوت عنه في كتب التاريخ، وما تفرع عنها من دراسات ونتائج أخذت صفة القداسة والإطلاق على مرور الزمن. وتحكي بعض المصادر التاريخية أن حديثاً جرى بين عمرو بن العاص وأحد الرومان في الإسكندرية، حينما دعا هذا الروماني قادة العرب إلى ما يشبه المناظرة:

قال عظيم منهم: «أخرجوا إليّ رجلاً أكلمه ويكلمني»، فقلت: «لا يخرج إليه غيري»، فخرجت معي ترجماني، ومعه ترجمانه حتى وضع لنا منبران فقال: «ما أنتم؟»، قلت: «نحن العرب ومن أهل الشوك والقرظ ونحن أهل بيت الله، كنا أضيق الناس أرضاً وشرة عيشاً، نأكل الميتة والدم ويغير بعضنا على بعض، كنا بشر عيش عاش به الناس، حتى خرج فينا رجل ليس بأعظمنا يومئذ شرفاً ولا أكثرنا مالاً، قال: «أنا رسول الله إليكم»، يأمرنا بما لا نعرف وينهانا عما كنا عليه، فشنعنا له وكذبناه ورددنا عليه حتى خرج إليه قوم من غيرنا فقالوا: «نحن نصدقك ونقاتل من قاتلك»، فخرج إليهم وخرجنا إليه وقتلناه فظهر علينا، وقاتل من يليه من العرب فظهر عليهم، فلو تعلم ما ورائي من العرب ما أنتم فيه من العيش لم يبق أحد إلا جاءكم»^(١).

وتكمن المفارقة في هذا الحديث الطويل في إبراز حال أناس يعانون ضيق الموارد أمام أناس يتيهون ببذخ العيش، فلو علم هؤلاء العرب بما تتمتع به مصر

(١) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، الجزء الثاني.

من الخيرات لما بقي أحد منهم إلا وجاء يعب من خيراتها. وليس معنى ذلك الإقرار بأن كل العرب كانوا فقراء مدقعين قبل الفتوحات العربية؛ بل على العكس فقد كان منهم التجار الأغنياء؛ وجهاء قريش وأعيانها مسرفو الثروة، مالكو العبيد والقطعان والإبل والعطر والجلود والحريز، أصحاب قوافل التجارة إلى الشمال والجنوب، وهمزة الوصل بين بضائع الشرق من التوابل والبخور وبضائع الغرب من النسج، أصحاب الروح المرنة، والثقافة المطلعة على تطورات عصرهم. وقد أسلم هؤلاء الوجهاء متأخرًا قبل فتح مكة بقليل أو بعدها، وهم من عفا عنهم النبي وسماهم بالطلقاء، وبعد عداوتهم المفرطة للإسلام - دين المستضعفين - في البداية، أصبحوا هم سادة الدولة الجديدة، كما كانوا سادة القبائل القديمة، وراكموا في الوضع الجديد أضعاف ما راكموا قديمًا.

وعمر بن لخم، قائد الجيش العربي لفتح مصر، والذي أسلم متأخرًا بعد صلح الحديبية، كان ابنًا لرجل من أهم أثرياء قريش، ويحكى أنه اشترى قبل إسلامه حلة بمائة بعير، «وأقبل يخطر فيها حتى أتى بني مخزوم، فناداه عمار بن الوليد بن المغيرة المخزومي وقال: أتبيع الحلة يا عمرو؟»، وقد كان بين الرجلين منافسات عديدة على السيادة والفتوة، فغضب عمرو وأنشد شعرًا يهجو فيه عمارًا، فغضب عمار وقال: «يا عمرو ما هذا التهور؟ إنك لست بعتبة بن ربيعة، ولا بأبي سفيان بن حرب، ولا الوليد بن المغيرة، ولا سهيل بن عمرو، ولا أبي بن خلف»، وكان كل هؤلاء من أغنياء قريش وساداتها^(١)، فرد عليه عمرو بفصاحته المعهودة بأنه إن لم يكن أحد هؤلاء فقد جمع خير ما فيهم^(٢).

وثرء قريش كان يقابله فقر شديد تعاني منه القبائل العربية الأخرى، وخصوصًا القبائل ذات الأصول الجنوبية، والتي نرح بعضها إلى بادية الشمال بحثًا عن الرزق، وهي من يسميها عمرو بـ«أهل الشوك والقرظ»، وإليها تعود غالبية جيشه.

وقد أدرك عمرو منذ بداية فتح مصر فداحة الفرق بين ملابس رجاله وملابس جيش الرومان، فحاول تغيير الصورة وإخراجها من جديد بأن فرض على المصريين

(١) أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، الجزء الثامن عشر: أخبار عمار بن الوليد ونسبه، ص ١٢٣.

(٢) لمزيد من التفاصيل حول مدى ثروة قريش وإسراف ساداتها في التمتع، انظر: المصدر السابق.

إلى جانب ما يؤدونه من الجزية والخراج وواجب الضيافة والمحاصيل العينية، أن يقدموا «لكل رجل من أصحابه دينارًا وجبة وبرنسًا وعمامة وخفين»^(١)، ويؤيد البلاذري الرواية ذاتها بقوله: «وأحصى المسلمين فألزم جميع أهل مصر لكل منهم جبة صوف وبرنسًا أو عمامة وسراويل وخفين في كل عام. أو عدل الجبة الصوف ثوبًا قبطيًا»^(٢).

بعد أن تهدم العرب بثياب أهل مصر غالية الثمن، جاء نفر من القبط - وغالبًا هم من الزعماء - يستأذنون عمرو في الرجوع إلى قراهم وأهليهم فسألهم عمرو: «كيف رأيتم أمرنا؟»، وبحكمة المغلوب على أمره قالوا: «لم نرَ إلا حسنًا»، فقال لهم: «إذن لا حاجة لنا الآن بصنيعكم أعطونا عشرين ألف دينار»^(٣).

وأضيف عبء هندمة الفارس العربي إلى عبء تأمين طعامه الذي يقضي به قانون ضيافة الفارس مدة ثلاثة أيام في أي مكان ينزل به، وتوفير كل ما يحتاج إليه من مأكّل ومشرب وإقامة، وهو الحق ذاته الذي كان الرومان يفرضونه لأنفسهم من قبل. وكان الفلاح القبطي يشكو منه مر الشكوى.



وتنبئنا تلك الفوارق الكبيرة بين القادة والجنود في الأصل القبلي وفي نوع الملابس، وفي غيرهما، أن صورة المساواة الكاملة التي وردت عدة مرات في كتب التاريخ العربي على لسان بعض الرومان - كما في قولهم: «أميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضعهم ولا السيد من العبد»^(٤)، أو فيما وضعوه على لسان المقوقس، أن العرب «ليس لهم رغبة في الدنيا ولا لذة إلا قدر بلعة العيش من الطعام واللباس»^(٥) - هي صورة تحتاج إلى إعادة نظر، لأنها تتناقض مع كثير من حوادث النزاع داخل الجيش العربي الناتجة عن صراع العنجهيات القبلية، ورغبة

(١) المقرئزي، المصدر نفسه، الجزء الأول، ص ٢٩٣.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٥٣.

(٣) المقرئزي، المصدر نفسه.

(٤) البلاذري، المصدر نفسه.

(٥) ابن عبد الحكم، المصدر نفسه.

كل قبيلة في الاستئثار لنفسها بدرجة أعلى من الأخرى، وخصوصًا بالنسبة لقبيلة قريش وقادتها الأقل عددًا والأكثر استحوادًا على المغانم، وقد أدى هذا الوضع إلى ثورة الجنود عدة مرات عليهم.

ويذكر المؤرخون أنه قد حدث سوء تفاهم في أثناء الهجوم على حصن بابلين بين الزبير بن العوام القرشي، ابن عمه النبي وقائد جيش المدد الذي جاء لإنقاذ جيش عمرو بعد فترة طويلة من الحصار، وبين شرحبيل بن حجية المرادي، من قبيلة مراد التي كانت تحتفظ بطابع «بدوي نموذجي على الرغم من أنها كانت تجاور حضارة جنوبي الجزيرة، ويبدو أن بلادهم الجرداء المجذبة كانت مسؤولة عن سمعتهم السيئة وكونهم قطاع طرق»^(١).

وكانوا من أهل الردة المهزومين الذين انضموا إلى جيوش الفتوحات مؤخرًا، وحينما حدث النزاع بين الزبير وشرحبيل بن حجية المرادي، الذي كان قد نصب سلمًا آخر على حصن بابلين بخلاف سلم الزبير بن العوام، وكان من السابقين إلى اقتحام الحصن، تنازعا على شرف بداية الاقتحام ومن يكون صاحبه.

ورأى الزبير أنه القائد وأنه أول المقتحمين - وظل يفاخر بذلك حتى إنه كان يعلق في قصره بالمدينة بعد ذلك - وأنه ليس من حق هذا اليماني أن ينازعه شرف جسارة الاقتحام. وتساعد الخلاف بينهما حتى «عرض عمرو على الزبير أن يستفيد من شرحبيل الذي أهانه، ولكن الزبير استكبر قائلاً: «أمن نغفة من نغف اليمن أستفيد يا ابن النابغة؟»»^(٢).

والنغفة هي الدود الذي يكون في أنوف الإبل والغنم، مما يعكس نظرة شديدة التعالي والعنصرية تغلف نظرة القائد القرشي إلى جندي من الجنود يمنية الأصل، حتى إنه رأى أن فكرة القصاص تضعه في مرتبة قريبة منه، وهو ابن الشرفاء، فرفض فكرة القصاص مكتفياً بوضعه مع أشباهه من دود اليمن المكوّن لغالبية جيش الفتح لمصر.

وحدث نزاع آخر بين عمرو بن العاص وبين أحد الجنود البلويين فأظهر الجندي

(١) عبد الله خورشيد البري، المصدر نفسه، ص ٢١٤.

(٢) ابن عبد الحكم، المصدر نفسه.

سخطه في وجه عمرو بن العاص، وصاح فيه عمرو: «أخرس فإنما أنت كلب»، ورد الرجل قائلاً: «إذن أنت أمير الكلاب»^(١).

وبين التشبيه بالدود والتشبيه بالكلاب مارس القادة من عرب الشمال وخصوصاً من قریش نفوذهم على جنود الجنوب الفقراء النحيلين ناتئي العظام، والحالمين بتأمين القوات النادر الشحيح في بلادهم البعيدة. وظلت قریش تتمتع بمركز قوي ممتاز في السياسة والحكم، حتى إنها احتلت منصب الوالي بنسبة أعلى من كل القبائل الأخرى.

وأثناء تقسيم مدينة الفسطاط وتخصيص خطة لكل قبيلة «تنافس الناس في المواضع، فولى عمرو بن العاص على الخطط معاوية بن حديج وشريك بن سُمي وعمرو بن قحزم وجبريل بن ناشرة المعافري، فكانوا هم الذين نزلوا القبائل وفصلوا بينهم»^(٢).

وربما كان استخدام عمرو بن العاص لرجال جنوبيين مثل معاوية بن حديج وجبريل المعافري هو نوع من الذكاء السياسي لضمان سرعة امتصاص الغضب العام وتهذئة الموقف، ومع ذلك فقد راعت تلك القيادات الجنوبية منزلة القائد العام ورجاله، فاختطت لبني سهم وقریش قريباً من نقطة الارتكاز بجوار الجامع.

وفي مناطق الارتباع اختار عمرو المناطق وافرة الخيرات القريبة من الفسطاط لنزول القبائل الشمالية، والمناطق الأقل وفرة والأكثر بعداً للقبائل ذات الأصول الجنوبية.

وقریش التي اختطت حول خطة عمرو ومسجده بالفسطاط أخذت مرتبها في «كورة منف ووسيم القريبة من الفسطاط حيث كان آل عمرو بن العاص وآل عبد الله بن سعد يرتبعون»^(٣).

أما بالنسبة لديوان العطاء فقد تم ترتيبه في العموم وفق القرابة من النبي،

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ص ٢٦.

(٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان، الجزء الرابع، ص ٢٢٩.

(٣) عبد الله خورشيد البري، المصدر نفسه.

الأمر الذي وضع قريشاً على رأس المنتفعين بهذا الوضع، وتلتها العدنانية، ثم جاءت القبائل ذات الأصول القحطانية في مؤخرة ترتيب الديوان والعطايا. وقد حدثت عدة خلافات أثناء توزيع الغنائم، حينما تمسك رجل من قبيلة مهرة اليمنية بأن ينال نصيبه بعد فتح الإسكندرية تمسكاً أو شكاً أن يفتح باب النزاع واسعاً مع قريش، لولا أن عمرو بن العاص تدارك هذا الموقف أيضاً بدهائه السياسي، وفكر أن يلجأ إلى طريقة لتقسيم الثروة تختلف في ظاهرها عن المتعارف عليه بين العرب، فأقر نظام الروم المعمول به قبل الفتح في جمع الضرائب والخراج. ورفض مبدأ تقسيم الأرض بين الفاتحين، وتمسك برأيه أمام تعنت الزبير بن العوام الذي كان يريد تقسيم كل الغنائم فيئاً، كما قسم رسول الله غنائم غزوة خيبر، الأمر الذي يحفظ لقادة قريش خمس أرض مصر وخمس مالها وخمس سبيها.

ورفض عمرو تلك الفكرة لأنها ستفتح باب الشقاق واسعاً، وتمسك بقانون الرومان الذي يعتبر الأرض كلها وحدة واحدة يدفع عنها المزارعون الخراج، ومختلف أنواع الضرائب الأخرى، وكان هناك ديوان كامل ينظم أمر الأرض وضرائبها.

وحينما عرضوا الأمر على الخليفة عمر بن الخطاب جاء قراره موافقاً لرأي ابن العاص، واشتروا رضا الزبير حينما «صولح على شيء رضي به»^(١).

وأراد بعض القادة تقسيم سلطيس ومصيل وبلهيت، وهي ثلاث قرى انضمت إلى جانب الروم، وقاتلت العرب قتالاً شديداً، لكن الخليفة والوالي رفضا تلك النظرة الضيقة، ونظرا للفائدة الأبعد في إقرار القبط على جباية الروم، وفي ترك الأرض حتى «يغزو منها جبل الحبله»^(٢).

وفي بيوت الإسكندرية وقصورها رأى عمرو أن تكون «أخائذ»، بمعنى أن كل من أخذ منزلاً صار له ولعائلته، فازداد تنازع الجنود على هذه المساكن التي بلغت

(١) المقريزي، المصدر نفسه.

(٢) المصدر السابق.

حوالي أربعة آلاف دار مُحكمة البناء مفروشة بالرخام الملون، وفي كل دار منها كان يوجد حمام تختص به، «فكان الرجل يأتي المنزل الذي كان فيه صاحبه قبل ذلك فيبتدره فيسكنه»^(١).

وأراد عمرو أن تكون هناك علامة لمنع الخلافات بأن يركز الرجل رمحه في الدار وبذلك تصير له دون غيره. لكن هذا الاقتراح لم يضع حداً للنزاعات الشديدة، «فكان الرجل يدخل الدار فيركز رمحه في منزل منها، ثم يأتي الآخر فيركز رمحه في بعض بيوت الدار فكانت الدار تكون لقبيلتين وثلاث»^(٢).

* * *

انتهى الزهد العربي إذن مع أولى خطوات الفتح - هذا إذا سلمنا بوجوده من الأصل - ولم تعد الأقوال الموضوعية على لسان المقوقس وغيره من الرومان، عن زهد العربي في الدنيا واكتفائه ببلعة العيش من الطعام واللباس، ذات معنى، في ظل الأحاديث التي ستروى بعد ذلك عن غرق القادة في مظاهر الأبهة والعظمة.

ويحكى أن عمرو بن العاص كان يحتفظ لنفسه بمظاهر أبهة الإمارة بأن «يلبس الغالي من الثياب والحرير والموشى بالذهب ويتخذ من الحرس والحجاب عددًا»^(٣).

ويقول بجير بن ذاخر المعافري:

جئت أنا ووالدي إلى صلاة الجمعة بهجير، وذلك آخر الشتاء بعدة أيام
يسيرة، فأطلنا الركوع إذ أقبل رجال بأيديهم السياط يزجرون الناس
فرعبت - تملكني الخوف - وقلت: «يا أبت من هؤلاء؟»، فقال: «يا بني
هؤلاء أصحاب الشرط»، فأقام المؤذنون للصلاة وصعد المنبر عمرو^(٤).

ويعصف ذاخر المعافري هيئة عمرو التي رآه عليها في ذلك اليوم، فيقول: «رأيت

(١) ابن عبد الحكم، المصدر نفسه.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة.

(٤) المصدر السابق.

رجلاً أربعة قصير القامة وافر الهامة أدعج أبلج عليه ثياب موشاة كأن بها العقيان^(١).
تتألق عليه حلة حمراء وعمامة وجبة^(٢).

والوالي الذي يحيط نفسه بموكب من الحجاب والحرس ورجال الشرطة - حدًا
يفزع الناس حتى داخل المسجد - ويرتدي الحرير المشغول بالعقيان، لا يمكن
الحديث عن زهده أو مساواته بجنوده أو غير ذلك من صور المساواة الزائفة.
وتدل الرواية السابقة على المفارقة الشاسعة بين أبهة القائد العربي القرشي ومن
يحيط به من القادة ورجال الحاشية، وبين تواضع مكانة بقية جند الجيش العربي
ذوي الأصول اليمنية الفقيرة.

(١) العقبان: ذهب متكاثف في مناجمه خالص مما يختلط به من الرمال والحجارة.

(٢) المصدر السابق.

العرب يتناحرون على الثروة

«تلك الأمة تحب الذهب والفضة والنساء والخيل ولذات الحياة»
من مخطوطة قبطية قديمة لخصت طبيعة الحكم العربي لمصر

وثار كثير من الفتن والقتل فيما بين العرب، ونظر أصحاب العطايا الأقل إلى من يستحوذون على منابع الثروة، ويذكر البلاذري نبذة عن مدى التفاوت في تقسيم العطاء، فيقول: «لكل رجل ما بين ألفين إلى ألف إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلاثمائة ولم ينقص أحداً عن ثلاثمائة»^(١).

وبالطبع يكون التفاوت كبيراً جداً بين مقدار الألفين ومقدار الثلاثمائة، هذا بالإضافة إلى مصادر الثروة الأخرى التي أتاحت للقادة والحاشية المحيطة دون غيرهم من الرجال.

وقد استخدم عمرو بن العاص هذا النفوذ في جمع ثروة طائلة؛ حتى بعث الخليفة ابن الخطاب سألته عن مصدرها بقوله: «بلغني أنك فشت فاشية من خيل وإبل، فاكتب إليّ من أين لك هذا المال»^(٢).

ورد عليه عمرو بن العاص: «أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه فاشية مال فشا لي وأنه يعرفني قبل ذلك، ولا مال لي، وإني أعلم أمير المؤمنين أنني ببلد السعر فيه رخيص وأني أعالج من الزراعة ما يعالجه الناس، وفي رزق أمير المؤمنين سعة»^(٣). وعمرو يعترف في الخطاب السابق بالثروة التي حلت عليه بعد حكم مصر،

(١) البلاذري، فتوح البلدان.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الجزء السادس، ص ٣٨٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٧٧.

فمن أين جاءت؟ هل كان يزرع قطعة أرض، أم كان الأقباط يزرعون له أرض مصر كلها؟

ولم يصدق ابن الخطاب حجج عمرو، وبعث إليه محمد بن مسلمة يقاسمه أمواله، ومعه رسالة عنيفة، يقول له فيها: «إنكم معاشر العمال قعدتم على عيون الأموال فجبيتكم الحرام وأكلتم الحرام وأورثتم الحرام»^(١). وقاسمه ابن مسلمة كل ممتلكاته، فقال عمرو ساخطاً: «قبح الله يوماً صرت فيه لعمر بن الخطاب والياً، فلقد رأيت العاص بن وائل السهمي - أبا عمرو - يلبس الديباج المزركش بالذهب، والخطاب بن نفيل - أبا الخليفة - ليحمل الحطب على حمار بمكة»، فرد عليه محمد: «أبوك وأبوه في النار، ولولا اليوم الذي أصبحت تدم - يعني لولا اليوم الذي عينك فيه ابن الخطاب والياً على مصر - لألفيت نفسك معتقلاً عنزاً يسوءك غرزها ويسوءك بكؤها»^(٢).

ولم يكن ابن الخطاب يطالب عمرو بتقليل حجم الضرائب وعدم جمع الأموال من قبض مصر؛ بل كان يطالبه بزيادة الخراج، والحرص على تحصيل الجزية، وجمع كل ما يستطيع من خيرات مصر، وهو صاحب الكلمة الشهيرة: «أخرب الله مصر في عمران المدينة»، على ألا يحتكر الوالي لنفسه هذه الثروات، بل يبعث بها إلى المدينة موطن الصفوة القرشية الإسلامية، والتي كان ابن الخطاب يحول بينها وبين نزول الأمصار، حتى لا تفسد وتفسد معها الدولة الإسلامية. وكان ابن الخطاب يحرص على جمع ثروات الأمصار في بيت المال الرئيسي، وتوزيعها عليهم حسب منزلة كل منهم.

فسياسة الخليفة كانت تهتم بالصفوة الإسلامية، وسياسة الولاة تنحو إلى الاهتمام بالنفس وبالحاشية المحيطة. ومن هنا كان خلاف ابن الخطاب مع جميع عماله، ومنهم عمرو بن العاص. وقد استمرت ملاحظة عمر للتغيرات التي تطرأ على ابن العاص من جراء إقامته في مصر، وحينما استدعاه إلى المدينة وجده «وقد صبغ رأسه ولحيته بسواد، فقال عمر: من أنت؟ فقال: أنا عمرو بن العاص،

(١) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص ١٤٦.

(٢) المصدر السابق.

قال عمر: عهدي بك شيخاً وأنت اليوم شاب، قد عزمت عليك إلا ما خرجت فغسلت هذا»^(١).

وقد جمع عمرو ثروة طائلة من فترتي ولايته على مصر، ويقال إنه «خلف من الذهب سبعين رقبة جمل مملوءة ذهباً»^(٢)، و«سبعين بهاراً دنانير، والبحار جلد ثور، ومبلغه أردبان بالمصري»^(٣).

ويقال: «خلف عمرو من العين ثلاثمائة ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار، ومن الورق ألف درهم وغلة مائتي ألف دينار بمصر، وضيعته المعروفة بالوهط قيمتها عشرة آلاف ألف درهم (حوالي عشرة ملايين درهم)»^(٤).

ونجد في كتاب «سير أعلام النبلاء» أن عمرو بن العاص امتلك بستاناً بالطائف يسمى «تعريش الوهط»، أدخل فيه «ألف ألف عود كل عود بدرهم»^(٥).

ورغم اقتطاع الخلفاء من مال عمرو - جرياً على سنة ابن الخطاب - فقد ورث ابنه عبد الله - وهو أحد ابنيه - قناطير مقنطرة من الذهب المصري، فكان عبد الله من ملوك الصحابة، ونجد في كتاب «المغرب في حلى المغرب» أن عبد الله امتلك قرية عسقلان بكل ما فيها وما عليها، وهي من حبس عمرو لولده.

والمشهور عن عبد الله بن عمرو أنه زاهد، لم يمنعه زهده من ملكية القرى والديار والأموال، وفي رواية عن سليمان بن الربيع قال: «انطلقت في رهط من نساك أهل البصرة إلى مكة فقلنا لو نظرنا رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحدثنا إليه، فدللنا على عبد الله بن عمرو بن العاص فأتينا منزله فإذا قريب منه ثلاثمائة راحلة». وسأل النساك بدهشة: «على كل هؤلاء حج عبد الله بن عمرو؟ قالوا: نعم هو ومواليه وأحباؤه»^(٦). ولم يكن آل العاص فقط من ظهرت عليهم علامات الثراء الفاحش، بل شاركهم هذا الوضع الزبير بن العوام ابن عمه

(١) ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حلى المغرب، القسم الخاص بمصر، ص ٤٨.

(٢) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، الجزء الثاني.

(٣) المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.

(٤) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، الجزء الثالث، ص ٢٣، «وفاة عمرو بن العاص».

(٥) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، الجزء الثاني.

(٦) محمد بن سعد، كتاب الطبقات الكبير، الجزء الرابع، القسم الأول.

الرسول، الذي أصبح يمتلك خطة في الفسطاط، وخطة في الإسكندرية، ودارًا بالكوفة، ودارًا بالبصرة، وإحدى عشرة دارًا بالمدينة، وأرضين فيهما الغابة التي يبلغ ثمنها في ذلك الحين سبعين ومائة ألف دينار، ومن كثرة اتساع ثروته أنه حينما مات وقسمت ثروته على زوجاته الأربع أخذت كل واحدة منهن ألف ألف ومائة ألف (أي مليون ومائة ألف)، وحسب رواية ابن سعد أن ثروة الزبير كانت تقدر بخمسة وثلاثين مليونًا ومائتي ألف دينار. وكان يحلم بأن يكون خليفة للمسلمين، لكنه قتل يوم الجمل دون هذا الحلم.

أما خارجة بن حذافة الذي كان قاضيًا لعمر، أو كان على شرطته - وقتل فيما بعد بدلًا منه - فقد ترك أموالًا لا تحصى وموالي وعبيدًا.

ويعلق ابن ظهيرة على هذا الوضع بقوله: «ولم تزل ملوك مصر من عمرو بن العاص وإلى وقتنا هذا يجمع كل واحد منهم أموالًا عظيمة لا تدخل تحت الحصر. وكذا الأمراء والوزراء والمباشرون على اختلاف طبقاتهم كل منهم يأخذ أموالًا لا تحصى في حياته»^(١).

ويبدو أن سياسة عمرو بن العاص لم تعجب كل العرب النازحين إلى مصر، خصوصًا بعد أن ركز عمرو عصبية البشرية والمادية في بني سهم - أقاربه من جهة أبيه ومن تحالف معهم.

وكان عمرو كثير الفخر بأبيه العاص بن وائل السهمي القرشي، الذي يقول عنه الألويسي في كتاب «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» إن العاص كان من حكام قريش المعدودين.

وبقدر ما كان عمرو يفخر بأبيه، كان المنتقدون له يعيرونه بأمه التي كانت سبية من بني جلان من قبيلة بلي اليمنية وتدعى «النابعة»^(٢)، وكانت قد أسرت في إحدى

(١) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، ص ١٣٠.

(٢) هي سلمى بنت حرملة، تلقب بـ«النابعة» من بني عزة ثم أحد بني جلان، أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ فاشترها الفاكه بن المغيرة، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت له.

المعارك القبلية^(١)، وكثيراً ما قال الناس: «لولا أمه لكان عمرو من سادة العرب المعدودين».

ورغم أن ثلثي جيش الفتح من أصول يمنية، وكانوا أحوال عمرو بن العاص، فإنه كان يفضل آل أبيه ذوي العصية القرشية في توزيع الثروة، فأنزلهم بأجود الأراضي. وبعد وفاة عمر بن الخطاب، وتولي الخليفة عثمان بن عفان، كثرت شكوى العرب الآخرين - من غير أقاربه - من ذلك، وجعلوا يعملون عليه، وانتظروا من عثمان أن يقيد صلاحياته، وكما يقول ابن كثير القرشي في كتاب «البداية والنهاية» إن كثيراً منهم «كانوا محصورين من عمرو بن العاص... حتى عزل - أي الخليفة عثمان بن عفان - عمرًا عن الحرب وتركه على الصلاة وولى على الحرب والخراج عبد الله بن سعد بن أبي سرح»^(٢).

وفي قول آخر: كان عمرو على الحرب، وابن أبي سرح على الخراج، وأن عمرًا قال ساخطاً: «أنا إذن كما سك البقرة بقرنيها وآخر يحلبها»^(٣). ووقع خلاف كبير بينه وبين ابن أبي سرح «حتى كان بينهما كلام قبيح فأرسل عثمان فجمع لابن أبي سرح جميع عمالة مصر، خراجها وحربها وصلاتها، وبعث إلى عمرو يقول له: لا خير لك في المقام عند من يكرهك، فاقدم إليّ، فانتقل عمرو بن العاص إلى المدينة وفي نفسه من عثمان أمر عظيم وشر كبير»^(٤).

وانفتح باب الفتنة الكبرى، وكان أحد أسسها الهامة: الفوارق الصارخة بين ثراء الصفوة واحتكارها لمواطن المال والنفوذ، في مقابل الانخفاض النسبي لشأن العرب ذوي الأصول اليمنية، وسياسة عثمان بن عفان وابن أبي سرح، وزادت النار اشتعالاً لأن أخا الخليفة من الرضاعة بالغ في التضييق على أتباع عمرو من جانب، والعرب اليمنية من جانب آخر. وقد ذكر المؤرخون قتل «عائذ بن ثعلبة البلوي» اليمني في البرلس عام ٣٥هـ بأيدي عربية دون ذكر أسباب وتفاصيل الحادث. كما

(١) لمزيد من التفاصيل، انظر: النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب. الجزء العشرون، ص ٢٩٧.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، الجزء السابع، «ثم دخلت سنة خمس وثلاثين ففيها مقتل عثمان».

(٣) ابن عبد الحكم، المصدر نفسه، ص ١٧٨.

(٤) ابن كثير، المصدر نفسه.

غالى في جمع الضرائب من القبط وإغراق حاشيته وحاشية الخليفة في مجتمع المدينة بالأموال، «وكثر الخراج على عثمان وأتاه المال من كل وجه حتى اتخذ له الخزائن وأدر الأرزاق، وكان يأمر للرجل بمائة ألف بدرة وفي كل بدرة أربعة آلاف أوقية»^(١).

واشتدت حدة رياح التذمر في المركز، كما في الأمصار، وخصوصًا في مصر، ونجد في كتاب «نهج البلاغة»، نقلًا عن الواقدي والمدائني والكلبي، أن «عبد الله بن أبي سرح أمر بجلد عبد الرحمن بن عديس وعمر بن الحمق - وهما من قبيلة بلي اليمنية - وحلق رؤوسهما ولحاهما وحبسهما وصلب قَوْمًا آخرين من أهل مصر، وهي نفس عقوبة المتأخر عن القتال والمخالف للأمير الذي يوقع عليه عقابًا فورًا يبدأ بإلحاق الأذى بالجسد ويترك علامة فيه تظل تلحق العار بصاحبها أينما حل»^(٢).

وأمام زيادة الثروة، كانت صلاحيات الأمير في إنزال العقاب على مخالفه، واستخدام مبدأ التعزير بترك علامات وحشية على الجسد، والحرمان من مواطن الارتفاع، تنزل على المعارضين وتوسع قاعدتهم. وقد وجد بعض ثائري البيوت القرشية الأخرى - من غير آل عثمان وآل الحكم من أقاربه - في غضب القاعدة العريضة من الجند ذوي الأصول اليمنية ضالته لتفجير الموقف؛ وحتى في تلك الحالة نجد أبناء البيوت القرشية الغاضبة يلعبون دور الزعماء، بينما ظل اليمانيون هم المنفذون والمقاتلون.

وكان محمد بن أبي حذيفة - القرشي الأصل - من أشد المحرضين ضد ابن أبي سرح في مصر، وبعث ابن أبي السرح يشكو محمدًا إلى الخليفة، فحاول عثمان أن يسترضيه بأن بعث إليه «ثلاثين ألف درهم، ومحملاً عليه كسوة، فوضعهما محمد في المسجد وقال يا معشر المسلمين ألا ترون إلى عثمان يخادعني عن

(١) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء.

(٢) الشريف الرضي، نهج البلاغة، وقد تطورت عقوبة الأمير لمخالفه بعد ذلك فنجد أنه لما ولي بشر بن أبي مروان الأموي: «زاد فيه فصار يرفع الرجل عن الأرض ويسمرونه في يديه بمسمارين في حائط فربما مات، وربما خرق المسمار يديه»، انظر أيضًا: المقريزي، المقفى الكبير، الجزء الثاني، ص ٤٢٩.

ديني ويرشوني عليه، فازداد أهل مصر تعظيماً له وطعنًا على عثمان وبايعوه على رئاستهم»^(١). وانضم محمد بن أبي بكر - ابن الخليفة الأول؛ أبو بكر الصديق - إلى صفوف المحرضين على عثمان وابن أبي سرح في مصر، حتى إن ابن أبي سرح اضطر إلى عزل ابن حذيفة وابن أبي بكر في مركب ليس به إلا القبط في غزوة ذات الصواري، بعد أن تحدثا كثيرًا في أمر توزيع الغنائم، وأفاضا في انتقاد الخليفة والوالي، ففرض عليهما ابن أبي سرح أن يركبا سفينة معزولة عن الجند العربي، وليس فيها سوى القبط؛ وبينهما عازل اللغة والتفاهم «فكانا أقل المسلمين نكاية وقتالاً، فليل لهما في ذلك، فقالا: كيف نقاتل مع عبد الله بن سعد، استعمله عثمان، وعثمان فعل كذا وكذا؟»^(٢).

ولم يفلح هذا العزل في إخماد النار، وازداد التذمر بعد عودة الجيش إلى مصر من غزوة ذات الصواري؛ حتى «خرج أهل مصر في أربع رفاق على أربعة أمراء، المقلل يقول ستمائة والمكثر يقول ألف، على الرفاق عبد الرحمن بن عديس البلوي، وكنانة بن بشر التجبي، وعروة بن شسيم الليثي، وأبو عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وسواد بن رومان الأصبحي، وزرع بن يشكر الياضي، وسودان بن حمران السكوني وقتيرة بن فلان السكوني وعلى القوم جميعاً الغافقي بن حرب العكي، ولم يجترئوا أن يعلموا الناس بخروجهم إلى الحرب، وإنما خرجوا كالحجاج»^(٣). وجميعهم من الجند اليمانية كما يتضح من أسمائهم المنسوبة إلى: بلي، تجيب، ليث، خزاعة، أصبح، يافع، وأخيرًا غافق من عك. وفي مقدمتهم عبد الرحمن بن عديس الذي سبق ومثل به الوالي وحلق رأسه وسجنه مع آخرين. وعين ابن حذيفة نفسه واليًا. وما لبث وفود مصر أن دخلت المدينة، وحاصرت عثمان بعد مفاوضات عديدة، وبعد أن انضمت إليهم وفود البصرة والكوفة.

ويقال إن الحصار قد حدث بعد أن قابل أهل مصر في طريق عودتهم من المدينة رسول الخليفة على راحلته ومعه خطاب إلى ابن أبي سرح يطلب منه

(١) النويري، المصدر نفسه، الجزء العشرون، ص ٢٤١.

(٢) لمزيد من التفاصيل، انظر: المقرئ، المقفى الكبير، الجزء الخامس، ص ٥٢٥.

(٣) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الرابع، ص ٣٤٨.

فيه القبض على هؤلاء الثائرين وقتل زعمائهم، مما أشعل غضبهم، وعادوا ليسألوا الخليفة عن ذلك، فنفى صلته بالخطاب، وحاصروه في بيته ثم كان مقتله على يد ثوار مصر. ونلاحظ أن المؤرخين العرب يطلقون على العرب الذين اتخذوا من مصر محلاً للإقامة «أهل مصر»؛ دون أن يقصدوا بذلك أهلها الحقيقيين من القبط^(١).

وانضم هؤلاء الثوار بعد ذلك إلى علي بن أبي طالب في معاركه التالية ضد شيعة عثمان، وكما يقول المؤرخون: إن مصر كانت «علوية الهوى».

وكان لحزب معاوية بن أبي سفيان - الرافع لقميص عثمان - رجال ذوو بأس وقوة وحيلة ودهاء، وعلى رأسهم عمرو بن العاص المقيم مؤقتاً بقصره في فلسطين، والذي خرج من المدينة بعد أن احتدم الخلاف بينه وبين الخليفة عثمان بن عفان، وقال له ابن عفان: «قملت والله جبتك منذ نزعتك عن العمل»^(٢)، كناية عن تواضع حاله بعد قرار عزله عن ولاية مصر، وكانت صلات ابن العاص برجال حزبه في مصر لا زالت قوية، وعلى رأسهم معاوية بن حديج الذي أقام في الصعيد أثناء تلك الفترة، ومنها حارب حزب ابن أبي طالب في مصر، ويقال إنه غزاهم من المغرب بعد أن لجأ إلى عقبة بن نافع - قريب عمرو بن العاص - الذي كان يحكم ولاية برقة، ثم انقض على أعدائه في مصر من جهة الغرب، ومن يقرأ تاريخ تلك الفترة يدرك حقيقة أن كل الفصائل المتناحرة كانت لا تريد استمرار خلافة عثمان بن عفان الذي تزايدت في عهده الثروة بما لا يعقل، وكان بمثابة مرحلة انتقالية بكل ما تحمل من تناقضات السياسة والحكم والثروة والتكتلات القبلية. وحزب عثمان الذي يتخذ من مقتله تكتة للتخلص من الخصوم السياسيين، يريد الآن ما هو أكثر من مجرد الاستمتاع بالثروة؛ إنهم يريدون مباشرة الحكم بأنفسهم، كما سيحدث

(١) ينطبق هذا الكلام على حادثة الرجل الذي اشتكى عمرو بن العاص للخليفة ابن الخطاب، لأنه ضربه بعد أن سبق ابنه، فاستدعى ابن الخطاب عمرو وابنه، وقال له اضرب ابن الأكرمين، وأطلق المؤرخون عليه اسم المصري جرياً على ذات عادتهم في تسمية العرب المقيمين بالمصريين، على الرغم من حداثة وفودهم إلى أرض مصر، فالمقصود هو: الذين امتلكوا أرض مصر.

(٢) الشريف الرضي، المصدر نفسه، الجزء الأول، ص ١٦٢.

مع آل سفيان وآل الحكم، ولمعرفة عمرو بن العاص بمصر كان يرى أن «مصر تعدل الخلافة كلها»، وأنه لا يرضى بغير حكمها بديلاً.

أما علي بن أبي طالب، وطلحة، والزبير بن العوام، فكان لكل منهم مآربه الخاصة في السياسة والحكم^(١).

وفي خلافة علي بن أبي طالب - قصيرة العمر - عين قيس بن سعد على ولاية مصر، وكان في مواجهته حزب عثمان «معاوية بن حديج ومسلمة بن مخلد وبسر بن أرطاة وغيرهم، قد اعتزلوا في رقية ولهم رباع وأولاد وعيال وعبيد»^(٢).

وكانت سياسة قيس بن سعد هي ملاينة رجال حزب معاوية تجنباً لشرورهم، فشك علي بن أبي طالب في واليه، وعين مكانه محمد بن أبي بكر الذي نشب بينه وبين أهل خريتا - مقر ابن حديج - نزاع، ثم خرج معاوية بن حديج ودعا إلى الطلب بدم عثمان، فأجابته ناس وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر بعد أن هدم دور شيعة عثمان ونهب أموالهم وسجن ذويهم^(٣).

وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر، وبلغ الخليفة ذلك، فاستدعى الأشتر وقال له: «ليس لها غيرك فاخرج إليها»^(٤) لكن عمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان دبرا للأشتر قتلاً يليق به، حينما اتفقا مع أحد الرجال لدس السم في العسل، وشرب الأشتر شربة ومات على أبواب مصر قبل أن يدخلها، وكان معاوية وعمرو كثيري التندر على تلك الحادثة بقولهما: «إن لله جنوداً من عسل»^(٥).

وبقي أمامهما محمد بن أبي بكر فأعد له جيشاً، وهزمه في معركة كنانة، ثم لم يكتفيا بذلك؛ بل تبعه ابن حديج حتى قبض عليه وقتله، ثم وضعه في جيفة حمار وأحرقها حتى أكلت النار جثة محمد، مما يبين وحشية الوسائل التي اتبعها العرب في قتال بعضهم البعض من أجل الفوز بالسلطان والنفوذ والمال.

(١) لمزيد من التفاصيل، انظر: طه حسين، الفتنة الكبرى.

(٢) ابن ظهيرة، المصدر نفسه، ص ٢٤.

(٣) المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ص ٢٦٤.

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ.

(٥) المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ص ٢٠٠.

وكان عمرو بن العاص من أوائل المتآمرين ضد عثمان بن عفان، ومن أوائل المستفيدين من قتله، ومن أشد المطالبين بالثأر له، وكما يقول هو عن نفسه: «أنا أبو عبد الله، إذا حككت قرحة نكأتها»^(١).

مما يتفق مع رواية شمس الدين الذهبي حينما ذكر أن عمرو هتك ما كان معاوية يتستر به من النفاق والادعاء أيام وقعة صفين، فقال له: «يا معاوية أحرقت قلبي بقصصك، أترى أنا خالفنا علياً لفضل منا عليه، لا والله، إن هي إلا الدنيا نتكالب عليها. وأيم الله لتقطعن لي قطعة من دنيك، أو لأنا بذنك»^(٢).

وفاز عمرو بمصر طعمة له كما أراد، كما عين الخليفة الجديد عبد الله بن عمرو على الكوفة مكافأة لبيت ابن العاص على ما قدموه لإقامة دعائم الخلافة الأموية، لكن المغيرة بن شعبه أوحى إلى معاوية بن أبي سفيان ببوارد الخطر على الخلافة الأموية، حينما قال له: «عمرو بمصر وابنه بالكوفة فأنت بين نابي أسد»^(٣)، فعزل عبد الله عن الكوفة، واكتفى بترك مصر طعمة لعمرو حتى وفاته.

أما بقية الرافعين لقميص عثمان - الذين أوغلوا في سفك دماء أعدائهم أو إخوانهم من العرب المسلمين - فقد استفادوا أيضاً، مثل بسر بن أرطأة الذي أوفده معاوية لأخذ البيعة له من المدينة ومكة بحد السيف، «فسار حتى أتى المدينة وقتل ابني عبد الله بن عباس، وفر أهل المدينة ودخلوا حرة بني سليم، وفي هذه الخرجة أغار بسر على همدان وسبى نساءهم فكن أول مسلمات سبين في الإسلام»^(٤). وأطلق معاوية يد بسر في الأموال والأموال.

أما معاوية بن حديج فقد تولى قضاء مصر، وكان كثير الأملاك والأموال، ومن كثرة ممتلكاته قيل عنه إنه «سيد الناس كلهم من الفرما إلى الأندلس»^(٥). ويبدو أن ولاء ابن حديج المطلق لحزب معاوية قد تزعزع فيما بعد، حينما قُتل

(١) الطبري، المصدر نفسه، الجزء الرابع، ص ٣٥٧.

(٢) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام.

(٣) ابن عبد الملك العاصمي المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي.

(٤) المقرئ، المقفى الكبير، الجزء الثاني.

(٥) العسقلاني، رفع الإصر عن قضاة مصر، ص ١١٢.

حجر بن الأدبر وأصحابه، وهم من رجال معاوية ابن حديج ومن قبيلته اليمينية فغضب، وقال:

يا أشقائي في الرحم وأصحابي وجيرتي، أنقاتل لقريش في الملك حتى
إذا استقام لهم دفعوا يقتلوننا، أما والله لئن أدركتها ثانية لأقولن لمن
أطاعني من أهل اليمن اعتزلوا بنا، ودعوا قريشًا يقتل بعضها بعضًا فأيهم
غلب اتبعناه^(١).

وندم ابن حديج السابق على معاونته لحزب معاوية ضد حزب علي -
القريشيين - مبني على أساس عنصري يمتزج بالطموح إلى الثروة وإن غلفته
الحنكة السياسية. فهو يساعد حزب ابن أبي سفيان حتى يتمكن من السلطة
بشرط أن يصبح له مكان بارز هو وشيعته في الدولة الجديدة، أما أن يقتل رجاله
على مرأى منه، فذلك ما يهدد ولاءه لحزب معاوية، وربما لاحظ ابن حديج أن
الرجال الآخرين ذوي الأصول القرشية قد نالوا من السلطة الجديدة حظًا أوفر،
خصوصًا أن الخليفة قد عين مسلمة بن مخلد واليًا على مصر سنة سبع وأربعين،
وجمع له الصلاة والخراج وبلاد المغرب دون ابن حديج الذي مات بمصر سنة
اثنتين وخمسين هجرية.

* * *

ولم يتوقف الصراع العربي - العربي في مصر بانتصار الأرسطراطية الأموية
وحلفائها، بل احتدم مرة أخرى أثناء أزمة عبد الله بن الزبير، وظهور بعض الأنصار
له في مصر يتمنون إلى المعافر «قالوا لا نخلع بيعة عبد الله بن الزبير. فضرب مروان
أعناقهم وكانوا ثمانين رجلًا»^(٢).

وتصادف يوم إعدامهم مع يوم موت عبد الله بن عمرو بن العاص، ومن شدة
خوف الناس لم يستطع أحد الخروج بجنازته، فدفن في داره لشغب الجند على
مروان، ثم ضرب مروان عنق الأكدر بن حمام اللخمي - وقبيلة لخم من أصول
يمينية - مما زاد ثورة الجنود ضد مروان. «وتنادى الجند: قتل الأكدر فلم يبق أحد

(١) شمس الدين الذهبي، تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، الجزء الثاني، ص ٣١٧.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.

حتى لبس سلاحه فحضر باب مروان منهم زيادة على ثلاثين ألفاً وخشي مروان وأغلق بابه»^(١).

وتجددت الفتنة مرة أخرى في عهد حوثر بن سهيل الباهلي - من قبيلة قيس العدنانية الشمالية - فقبض على زعماء الثورة ذوي الأصول اليمنية، وقتلهم جميعاً، وقال له حسان بن عتاهية، رئيس شرطته: «لم يبقَ لحضر موت إلا هذا القرن فإن قطعت قطعتها - يعني خير بن نعيم - كان على القضاء، فعزله حوثر»^(٢).

وهكذا لم تخدم النار المشتعلة بين الجند اليمنية من جهة، والأرستقراطية القرشية من جهة أخرى حتى خمدت الدولة الأموية، وانتهت على يد العباسيين، وهم آخر بيت من بيوت قريش، ستشهد معه الدولة الإسلامية في مصر تطورات أخرى.

* * *

وقد سجل أدب تلك الفترة الأولى لفتح مصر تعالي الصفوة القرشية على جنود الجيش العربي، ومارسوا عليهم العنجهية والصلف في كل المناسبات.

ولعل أول قصيدة رويت في مصر هي قصيدة أبي المصعب البلوي، التي هجا فيها العرب القاطنين أرض مصر، لأنهم من أصول يمنية، وكانت تجد هوى كبيراً في نفوس ذوي الأصول القرشية. لأن في نفس معاوية من الثوار الكثير، فكان إذا قدم عليه أحد من أهل مصر سأله أن ينشده هذه القصيدة^(٣) التي يعيب فيها الشاعر على عرب مصر بأنهم حضرميون ليس لهم شرف ولا جد، وأنهم متكبرون.

كما نجد في خطبة عتبة بن أبي سفيان هجاءً حاداً لعرب مصر، وكان من دهاة السياسيين وخطيباً مفوهاً، عده الأصمعي أحد أهم اثنين من خطباء بني أمية، وذكر القلقشندي خطبته التالية في صناعة الإنشا:

يا حاملني ألأم أنوف ركبت بين أعين؛ إنما قلمت أظفاري عنكم ليلين
مَسِّي إياكم، وسألتكم صلاحكم لكم إذ كان فسادكم راجعاً عليكم،
فأما إذا أبيتم إلا الطعن على الأمراء والعتب على السلف والخلفاء،

(١) الكندي، كتاب الولاة وكتاب القضاة، ص ٤٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ١٥١.

فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم، فإن حسمت مستشري
دائكم وإلا فالسيف وراءكم. فكم من عظة لنا قد صمت عنها أذانكم،
وزجرة منا قد مجتها قلوبكم ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذا جدتم
علينا بالمعصية، ولا مؤايساً لكم من المراجعة إلى الحسنى إن صرتم
إلى التي هي أبر وأتقى^(١).

وتصوير عتبة السابق «يا حاملي الأم أنوف ركبت بين أعين» يوحى برغبة عرب
مصر الدائمة في الخوض في مسائل السياسة والحكم، وكشف أفعال الولاة وانتقاد
سياساتهم الجائرة، فهم لا يملون المراقبة، وإظهار المعارضة، والسلطة الأموية
تخص كل من لا يلزم الصمت بتقطيع السياط على ظهره، وإعمال السيف في رأسه.
الصمت أو الموت، كما يقولون.

لكن الجنود يستفزه نهر الثروات النازح إلى الحكام وحاشيتهم، ويقارنون
ما يحصلون عليه وما عبه الآخرون فلا يستطيعون الصمت.

ويحكي ابن لهيعة أنه في زمن ولاية مسلمة بن مخلد، وبعد أن قسم العطاء
وأعطى كل جهة ما كان مقررًا لها: «فأعطى أهل الديوان عطياتهم وعطيات
عيالهم وأرزاقهم ونوائب البلاد من الجسور وأرزاق الكتبة وحمالان القمح إلى
الحجاز، ثم بعث إلى معاوية بستمائة ألف دينار فضل... فلما نهضت الإبل لقيهم
برح بن كسحل المهري - من قبيلة يمنية - فقال: ما هذا؟ ما بال مالنا يخرج من
بلادنا. ردوه، فردوه، حتى وقف على باب المسجد، فقال: «أخذتم عطياتكم
وأرزاقكم وعطاء عيالكم ونوائبكم»، قالوا: «نعم»، قال: «لا بارك الله لهم فيه
خذوه. فساروا به»^(٢).

والعربي اليمني لا ينظر بارتياح إلى المال المشحون إلى مكة والمدينة وعواصم
القبائل العدنانية المفتخرة بأصولها عليه، فيقف على باب الجامع - نقطة ارتكاز
العرب جميعًا ومكان تجمهرهم؛ حيث كان لكل قبيلة فيه عمود ومكان يرتب
حسب مكانة القبيلة ونفوذها أيضًا - محاولاً تحريض العرب أصحاب العطايا

(١) الفلقشندي، المصدر نفسه.

(٢) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.

الأقل، وينهي محاولته بالدعاء على العرب المستفيدين من وضع الاستنزاف. وصيغة الملكية الطاغية على الحديث «ما بال مالنا يخرج من بلادنا» لافتة للنظر؛ حيث كان العرب جميعاً في ذلك الحين - سواء من الشمال أو من الجنوب - حديثي الوفود على مصر، ولم يكن قد مضى ثلاثون عاماً أو أكثر قليلاً على تلك الواقعة، وقد اعتبروها بلدهم - لهم وحدهم بكل ما فيها من أرض وزرع وماء وهواء وكنوز طبيعية وثروات ومبانٍ - كل شيء لهم بمجرد إشهار السيف وخضوع الآخرين لهم. وحتى البشر القاطنين أرض مصر منذ فجر التاريخ هم أيضاً جزء من ملكية العرب العامة، وقد خلقت لضمان استمرار سيلان الثروة عليهم، وانعكست تلك الرؤية العامة واليقين الراسخ على الخطاب العربي الموجه إلى الأقباط بعد الفتح ابتداءً من تدفق أسرى القبط على مدن الجزيرة العربية، وإشارة الخليفة عمر بن الخطاب بتفضيله بقاء المصريين في بلادهم، واستخدامهم في زراعة الأرض لتعميم الانتفاع بهم.

وقد مارس الحكام العرب صفات السيادة وتسخير المصريين في شتى الأعمال الصعبة، ومن هذا المنطلق سخر عمرو بن العاص آلاف الفلاحين في إعادة حفر خليج تراجان أو قناة أمير المؤمنين، كما سخر عبد الله بن سعد بن أبي سرح صنّاع مصر لبناء الأسطول العربي، وفي العموم: كان المصريون يقومون بحفر القنوات وبناء الخطط والبيوت للسادة العرب، بينما يكتفي هؤلاء السادة بصفتهم الفرسان أصحاب السيوف والخيول والجيش باستهلاك الخيرات وإنفاق الثروات.

وكثيراً ما عبر ملوك بني أمية عن العبودية الصريحة في رسائلهم إلى أمراء مصر بقولهم: «إن مصر إنما دخلت عنوة، وإنما هم عبيدنا - المصريون - نزيد عليهم كيف شئنا ونضع ما شئنا»^(١).

وكثيراً ما كانت العنجهية تذهب بهم إلى حد الرغبة في الاستخدام المباشر لثنائية السيادة والعبودية، وعدم الاكتفاء بالوضع العام لقوانين عدم الاختلاط، كما حدث مع هذا العربي الذي سخر ملاحاً قبطياً لنقله عبر النهر بمركبه، وحينما

(١) الطبري، المصدر نفسه، ص ١٠٦.

طلب القبطي أجره، رفض العربي متذرعاً بحق السيادة الذي يخول له استخدام المصريين دونما مقابل^(١).

وطقوس التبعية تتفاوت حدتها من زمان إلى آخر حسب ذكاء الحاكم وقدرته على إدارة الأمور. فنجد المغالاة والتشدد أثناء ولاية حاكم، والانفراج النسبي في ولاية آخر. على أن الميراث العام يتضح في أدبيات القرون التالية للفتح بشكل مبالغ فيه، كما نجد في كتاب: «معالم القربة في أحكام الحسبة»، الذي يقدم شروط دفع الجزية بأن «يقف الذمي بين يدي عامل الجزية ذليلاً، فيلطمه المحتسب بيده على صفحة عنقه، أدّ الجزية يا كافر، ويخرج الذمي يده من جيبه مطبوقة على الجزية فيعطيهها له بذلة وانكسار»^(٢). ومسرحية أداء الجزية هذه تعكس الصورة في أشدّ عصور الظلام قتامة، وإن لم تنفذ بهذه الجهامة في أوقات أخرى كثيرة. حيث لم يكن الحكام العرب الأوائل يهتمون بمثل هذه الطقوس الشكلية بقدر ما يهتمون بمبادئ ترسيخ السيادة العامة وما يترتب عليها من أحكام مالية وعينية.

ووسط هذا الجوّ، كان طبيعياً بروز سلسلة من التناقضات العنصرية بين العرب والمصريين من جهة، وبين العرب أنفسهم من جهة أخرى، طالما أنهم من فئات غير متجانسة، وطالما أن نشأتهم الأولى زرعت فيهم الولاء القبلي الصرف، ولولا حنكة ودهاء القادة الأوائل، واستخدامهم كل وسائل الترغيب والترهيب لسارت الأمور في اتجاهات أخرى.

(١) لمزيد من التفاصيل، انظر: المقرئزي، وآخرين.

(٢) القرشي، معالم القربة في أحكام الحسبة، ص ٩٩.

جدول ولاية مصر حتى سقوط الدولة الأموية

اسم الوالي	تاريخ ولايته	مدة الولاية	الموطن القبلي
عمرو بن العاص	٢١هـ-٢٥هـ	أربع سنين وأشهر	قريش
عبد الله بن سعد بن أبي سرح	٢٥هـ-٣٥هـ	عشر سنوات	قريش
محمد بن أبي حذيفة	٣٥هـ	فترة قصيرة	قريش
قيس بن سعد بن عبادة	٣٥هـ-٣٧هـ	سنتان	من الخزرج / جنوبية
الأشتر النخعي	٣٧هـ	لم يدخل مصر وتوفي على أبوابها	من مذحج / جنوبية الأصل
محمد بن أبي بكر	ال نصف من رمضان ٣٧هـ	خمسة أشهر	قريش
عمرو بن العاص / الثانية	٣٨هـ-٤٣هـ	ست سنوات	قريش
عتبة بن أبي سفيان	ذي القعدة ٤٣هـ-ذي الحجة ٤٤هـ	سنة وشهر	قريش
عقبة بن عامر الجهني	٤٤هـ-ربيع أول ٤٧هـ	سنتان وثلاثة أشهر	من جهينة من الجنوب
مسلمة بن مخلد الأنصاري	٤٧هـ-٦٢هـ	خمس عشرة سنة وأربعة أشهر	من الخزرج / جنوبية
سعيد بن يزيد الأزدي	٦٢هـ-٦٤هـ	سنتان إلا شهرًا	من أصول جنوبية
عبد الرحمن بن جحدم	٦٤هـ	تسعة أشهر	قريش
عبد العزيز بن مروان	٦٥هـ-٨٦هـ	عشرون سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يومًا	قريش
عبد الله بن عبد الملك	٨٦هـ-٩٠هـ	ثلاث سنين وعشرة أشهر	قريش
قرة بن شريك	٩٠هـ-٩٦هـ	ست سنوات إلا أيامًا	من قيس / عدنانية/ شمالية
عبد الملك بن رفاعة	٩٦هـ-٩٩هـ	ثلاث سنوات	من بني ظاغن الفهمي / شمالية

أيوب بن شرجيل	٩٩ هـ - ١٠١ هـ	ستان ونصفًا	من أصبح / جنوبية الأصول
بشر بن صفوان	١٠١ هـ - ١٠٢ هـ	سنة واحدة	من قبيلة كلب / جنوبية الأصول
حنظلة بن صفوان	١٠٢ هـ - ١٠٥ هـ	ثلاث سنوات	من قبيلة كلب / جنوبية الأصول
محمد بن عبد الملك	١١ شوال ١٠٥ هـ	شهر واحد	قرش
الحر بن يوسف	١٠٥ هـ - ١٠٨ هـ	ثلاث سنين	قرش
حفص بن الوليد	١٠٨ هـ	أسبوعان	من حضرموت / جنوبي
عبد الملك بن رفاعه / الثانية	١٠٩ هـ	خمس عشرة ليلة	من بني ظاعن الفهمي / شمالية
الوليد بن رفاعه	١٠٩ هـ - ١١٧ هـ	تسع سنين وخمسة أشهر	من بني ظاعن الفهمي / شمالية
عبد الرحمن بن خالد	١١٧ هـ	سبعة أشهر وخمسة أيام	من بني ظاعن الفهمي / شمالية
حنظلة بن صفوان / الثانية	١١٩ هـ - ١٢٤ هـ	خمس سنوات وثلاثة أشهر	من قبيلة كلب / جنوبية الأصول
حفص بن الوليد / الثانية	١٢٤ هـ - ١٢٧ هـ	ثلاث سنوات إلا أشهرًا	من حضرموت / جنوبي
حسان بن عتاهية	١٢٧ هـ	١٦ يومًا	من تجيب / جنوبية
حفص بن الوليد / الثالثة	١٢٧ هـ - ١٢٨ هـ	سنة واحدة	من حضرموت / جنوبي
الحوثره بن سهيل	١٢٨ هـ - ١٣١ هـ	ثلاث سنوات وستة أشهر	من قيس / عدنانية/ شمالية
المغيرة بن عبيد الله	١٣١ هـ - ١٣٢ هـ	عشرة أشهر	من فزاره / قيسية/ شمالية
عبد الملك بن مروان بن موسى	١٣٢ هـ	شهور قليلة	من لحم / جنوبية الأصل

وهكذا نرى أنه منذ فتح مصر عام ٢٠ هـ إلى سنة ١٣٢ هـ، عام انتقال الخلافة من بني أمية إلى العباسيين، تولى عليها سبعة وعشرون عاملاً، تناوبوها اثنتين وثلاثين مرة، لأن بعضهم كان يعزل ويعود مرة أخرى كعمرو بن العاص، وحنظلة بن صفوان، وحفص بن الوليد فإنه تولى حكم مصر ثلاث مرات.

وكان من بين السبعة والعشرين عاملاً عشرة من قریش فقط، وستة ولاة من قبائل ذات أصول شمالية، وأربعة من أصول جنوبية؛ ولكنها قبائل تقطن الشام وفلسطين، وسبعة من أصول جنوبية صرفة؛ وهو عدد لا يتناسب مع انتماء القاعدة العريضة (الجيش) إلى هذه الأصول الجنوبية.

جدول أسماء القضاة

اسم القاضي	في عهد الوالي / الخليفة	الموطن القبلي
قيس بن أبي العاص	من قبل عمر بن الخطاب، في ولاية عمرو بن العاص	قريش
كعب بن يسار بن ضنه (رفض أن يقبل القضاء، ولكنه قضى بين الناس حتى أعفاه عمر بن الخطاب)	من قبل عمر بن الخطاب، في ولاية عمرو بن العاص	من قيس / شمالية
عثمان بن قيس بن أبي العاص	من قبل عمر بن الخطاب، ثم أقره عثمان بن عفان، في ولاية عبد الله بن سعد بن أبي سرح	قريش
سليم بن عتر التجيبي	من قبل معاوية بن أبي سفيان	من أصول جنوبية
عابس بن سعيد المرادي	من قبل مسلمة بن مخلد، ثم أقره من جاء بعده من الولاة حتى عبد العزيز بن مروان	من أصول جنوبية
بشير بن النضر	من قبل عبد العزيز بن مروان	من أصول شمالية
عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني	من قبل عبد العزيز بن مروان	من أصول جنوبية
مالك بن شراحيل	من قبل عبد العزيز بن مروان	من أصول جنوبية
يونس بن عطية	كان على القضاء والشرط في عهد عبد العزيز بن مروان	من أصول جنوبية
أوس بن عبد الله بن عطية	ولاه عبد العزيز بن مروان، وهو (أي أوس) ابن أخي القاضي السابق	من أصول جنوبية
عبد الرحمن بن معاوية بن حديج	ولاه عبد العزيز بن مروان على القضاء والشرط وخلافة الفسطاط	من أصول جنوبية
عمران بن عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة	ولاه عبد الله بن عبد الملك على القضاء والشرط	من أصول جنوبية

عبد الواحد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج	من قبل عبد الله بن عبد الملك	من أصول جنوبية
عبد الله بن عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني	من قبل قرّة بن شريك	من أصول جنوبية
عباض بن عبيد الله الأزدي	من قبل قرّة بن شريك	من أصول جنوبية
عبد الله بن عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني / الثانية	جمع له عبد الملك بن رفاعة القضاء وبيت المال	من أصول جنوبية
عباض بن عبيد الله الأزدي / الثانية	من قبل سليمان بن عبد الملك	من أصول جنوبية
عبد الله بن يزيد بن خذامر	من قبل عمر بن عبد العزيز	-
يحيى بن ميمون الحضرمي	من قبل هشام بن عبد الملك	من أصول جنوبية
توبة بن نمر الحضرمي	من قبل الوليد بن رفاعة	من أصول جنوبية
خير بن نعيم	من قبل حنظلة بن صفوان	من أصول جنوبية
عبد الرحمن بن سالم الجيشاني	من قبل الحوثر بن سهيل	-

جدول رؤساء الشرط

اسم رئيس الشرط	في عهد الوالي	الموطن القبلي
خارجة بن حذافة بن غانم	عمرو بن العاص	قريش
السري بن هشام بن عمرو بن ربيعة	عبد الله بن سعد بن أبي سرح	قريش
السائب بن هشام بن كنانة العامري	قيس بن سعد	من قبائل مضر الشمالية
عبد الله بن أبي حرملة البلوي	محمد بن أبي بكر	من أصول جنوبية
خارجة بن حذافة بن غانم / الثانية	عمرو بن العاص / الثانية	قريش
زكريا بن جهنم بن قيس العبدري	في عهد عمرو، واستمر في عهد عتبة بن أبي سفيان	قريش
السائب بن هشام بن كنانة العامري / الثانية	مسلمة بن مخلد	من قبائل مضر الشمالية
عابس بن سعيد المرادي	في عهد مسلمة بن مخلد، ثم أقره كل من سعيد بن يزيد، وعبد الرحمن بن عتبة، وعبد العزيز بن مروان	من أصول جنوبية
زياد بن حنافة بن سيف التجبي	عبد العزيز بن مروان	من أصول جنوبية
عبد الرحمن بن حسان بن عتاهية التجبي	عبد العزيز بن مروان	من أصول جنوبية
يونس بن عطية بن أوس الحضرمي	عبد العزيز بن مروان	من أصول جنوبية
عبد الرحمن بن معاوية بن حديج	ولاه عبد العزيز بن مروان على القضاء والشرط وخلافة القسوط	من أصول جنوبية
عمران بن عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة	ولاه عبد الله بن عبد الملك على القضاء والشرط	من أصول جنوبية
عبد الأعلى بن خالد بن ثابت بن ظاعن الفهمي	ولاه عبد الله بن عبد الملك، ثم أقره قرّة بن شريك	من أصول شمالية
عبد الملك بن رفاعة	ولاه قرّة بن شريك على الشرط، ثم استخلفه على الولاية في غيابه	من بني ظاعن الفهمي / شمالية

الوليد بن رفاعه	عبد الملك بن رفاعه	من بني ظاعن الفهمي / شمالية
الشيخ ابن جرو الحضرمي	سليمان بن عبد الملك	من أصول جنوبية
الحسن بن يزيد	أيوب بن شرحبيل	من أصول جنوبية
الحارث بن ذاخر الأصبحي	أيوب بن شرحبيل	من أصول جنوبية
شعيب بن حميد البلوي	بشر بن صفوان	من أصول جنوبية
حنظلة بن صفوان	من قبل بشر بن صفوان، ثم أصبح على الولاية والشرط	من قبيلة كلب/ جنوبية الأصول
محمد بن مطير البلوي	حنظلة بن صفوان	من أصول جنوبية
القاسم بن أبي القاسم السبئي	حنظلة بن صفوان	من أصول جنوبية
حفص بن الوليد	من قبل حنظلة بن صفوان، ثم أقره الحر بن يوسف	من حضرموت/ جنوبي
عبد الله بن أبي سمير الفهمي	الوليد بن رفاعه	قيسية / مصرية/ شمالية
عبد الرحمن بن خالد بن مسافر	الوليد بن رفاعه	من بطون قيس الشمالية

النساء يشاركن في القتال العربي-العربي

برزت في أحداث الفتنة الكبرى أسماء بعض النساء المقيمات في مركز الحكم بالمدينة مثل نائلة بنت الفرافصة آخر زوجات عثمان بن عفان، الخليفة المقتول، ويحكى أن عثمان تزوجها وهو على مشارف الثمانين من عمره بينما كانت هي في ريعان الصبا والشباب، ويقال إنها كانت نصرانية، أو بالأحرى من قبيلة نصرانية دخلت الإسلام^(١).

حينما دخل وفد ثائري مصر المدينة وتصادت الأزمة، أشارت نائلة على عثمان بأن يقبل رأي علي بن أبي طالب في إجابة مطالب الثائرين لتسكين الموقف؛ لكن يبدو أن عثمان كان مترددًا، وتسارعت الأحداث، وحاصر الثوار بيت عثمان، ومنعوا عنه الماء، ثم تسلقوا سور البيت المجاور له وانقضوا عليه يضربونه، ودافعت عنه نائلة وقطعت أصابعها وهي تحاول حمايته من سيوفهم، ولم ينته دور نائلة بموت عثمان؛ بل راحت تؤجج نار الثأر للخليفة المقتول، فخطبت في مسجد المدينة وهي منسلبة في أطمار، معها نساء من قومها، والخطبة طويلة.

وحينما انشغل الناس بأمر الفتنة، وتركوا الخليفة المقتول في داره المحاصرة، أرسلت نائلة إلى قليل من الرجال ليجهزوا عثمان، فقالوا: إنا لا نقدر أن نخرج به نهارًا، وهؤلاء المصريون على الباب، فأمهلوا حتى كان بين المغرب والعشاء فدخل القوم، فحيل بينهم وبينه، فقال أبو جهم: والله لا يحول بيني وبينه أحد

(١) جورج قنوتاي، المسيحية والحضارة العربية، ص ٢٦٣.

إلا مت دونه، احمלוه إلى البقيع، فحملوه وتبعته نائلة بسراج فدفن الخليفة ليلاً دون أن يتبعه أحد.

وبعثت نائلة بقميص عثمان وإصبعها معلق فيه - الخنصر - إلى معاوية بن أبي سفيان في الشام تحرضه على طلب الثأر، ولما أتى التحريض بنتائج واشتعلت الحرب العربية، وامتدت إلى الأمصار، وقتل شيعة عثمان محمد بن أبي بكر، بعثت شيعة عثمان هي الأخرى في مصر بقميص محمد بن أبي بكر الذي قتل فيه إلى المدينة «فوصل إلى دار عثمان واجتمع رجال عثمان ونسأوه وأظهروا السرور، ولبست نائلة بنت الفرافصة القميص ورقصت به، وأرسلت أم حبيبة أخت معاوية بكبش شواء إلى عائشة وقالت: هكذا شوي أخوك بمصر، فحلفت ألا تأكل شواء حتى تلقى الله، ودخلت على أسماء بنت عميس أم محمد بن أبي بكر فقبل لها قتل محمد بمصر وأحرق بالنار في جوف حمار، وكانت في مصلاها فعضت شفتيها وكظمت غيظها فشخبث ثديها دماً»^(١).

ولم تكتفِ نائلة بأن تلبس قميص محمد بن أبي بكر وترقص به؛ بل إنها حينما حج معاوية بن حديج عقب قتله لمحمد بن أبي بكر وإحراقه بالنار «لقيته نائلة وقبلت رجليه وقالت شفيت نفسي من ابن الخثعمية»^(٢).

ومثل هذه القصص تعكس طبيعة الصراع الدائر بين العرب، حينما تمتزج النعرات القبلية بالرغبة في الحفاظ على المكانة والسيادة، ولو كانت النتيجة جريان بحور من الدم.

وردود فعل النساء تجسد الإحساس بالشماتة والمبالغة في إعلان الفرح بمصائب الطرف الآخر من العرب المتناحرين.

وقد دخلت عائشة بنت أبي بكر زوجة النبي المحبوبة وأم المؤمنين دائرة الصراع، فكان دورها في هذه الأحداث كبيراً، وظن كثير من الناس أنها كانت من المحرضين على الثورة، خصوصاً أن ثائري الأمصار كانوا يستخدمون اسمها واسم زوجات النبي الأخريات في تحريض العامة، كما كان يفعل محمد بن أبي حذيفة في مصر.

(١) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، ص ٢٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨.

وبعد مقتل عثمان رأت أن التهاون في القصاص للخليفة المقتول ليس من الإسلام، كما أنه ليس من شيم العرب القاضية بالثأر.

وخرجت عائشة إلى البصرة لتنضم إلى طلحة والزبير، وأطماعهما في الخلافة غير خافية، ضد علي بن أبي طالب الذي كانت تحرض الناس ضده وتتهمه بحماية قتلة عثمان، ورغم أن الناس كانوا يتهمون أخاها محمد بن أبي بكر بالاشتراك في قتله، كانت تصر على التحريض ضد علي بن أبي طالب.

ودارت معركة شرسة بين الأقارب، «وقد كاد أصحاب عائشة أن يهزموا»، ولكن الجمل الذي يحمل هودج عائشة قائم، «وفي الهودج أم المؤمنين تحرض الناس فتردهم إلى الحماسة والجرأة»، حتى صاح علي في أصحابه: «اعقروا الجمل فإن في بقاءه فناء العرب»^(١).

وقد سميت هذه المعركة باسم «موقعة الجمل» لأهمية دور عائشة فيها، ورغم احتجاجها خلف هودج مغلق على ظهر جمل، ورغم أنها لم تحمل سيفاً ولم تقتل أحداً، إلا أنها قد لعبت دور المحرض الأساسي - وهي فصيحة اللسان واضحة البيان - وكلما تفرق الرجال خطبت من جديد، حتى لم يجد علي بدءاً من تسديد الضربة نحو الهدف المركزي؛ وهو الجمل الحامل لهودج عائشة، الذي كان شارة وعلامة حزب طلحة والزبير، وبسقوط الشارة تفرق الجمع وانتهت المعركة.

وقد جسد كتاب «الفتنة الكبرى» لطف حسين أزمة الدولة الإسلامية الناشئة وخلافاتها الدائرة حول توزيع الثروة والجاه والنفوذ والسيادة، حتى كادت ستارة الإسلام أن تسقط في نيران العصبية القبلية وأساطير المجد والشرف العنصريين، وعاد بنو عبد مناف يقاتلون بني أمية. وبرزت بعض النسوة يحدثن ويناظرن ويرقصن طرباً لأخذ الثأر، كما في حالة نائلة بنت الفرافصة.

وتنسب بعض المصادر إلى عمرو بن العاص قوله لعائشة: «وددت لو مت يوم الجمل» وحين سألته عن السبب قال: «لنعير بك علي بن أبي طالب وحزبه»^(٢). ومن المستبعد أن يصل عدم اللياقة بعمرو إلى هذا الحد، ولكننا نذكر له موقفاً

(١) طه حسين، الفتنة الكبرى، الجزء الثاني: علي وبنوه.

(٢) المبرد، الكامل، ص ٢٦٧.

آخر حين عزله عثمان بن عفان عن ولاية مصر، فيقال إنه على إثر ذلك طلق زوجته أم كلثوم بنت عقبة؛ وهي أخت عثمان من الرضاعة، وكان عمرو قد تزوجها فيما يشبه الزواج السياسي بعد وفاة زوجها السابقين. وعاشت أم كلثوم ما بقي لها من حياة بعيداً عن الانغماس في الخلافات الدائرة.

وظهر اسم امرأة أخرى في تلك الأحداث، وهي فاختة بنت قريظة؛ زوجة معاوية بن أبي سفيان، ويحكى أنها كانت تصنع طعاماً لمحمد بن أبي حذيفة - عدو زوجها اللدود - وترسله إليه في السجن الذي حبسه فيه معاوية بالشام. وذات يوم بعثت له مبارد مخبأة في الطعام، «فبرد بها قيوده وهرب فاختفى في غار فأخذ وقتل». ولم تشفع له قرابته من زوجة معاوية بن أبي سفيان، فأُسرع بالقبض عليه ثانية وقتله^(١).

وهكذا شاركت بعض النساء في الصراع العربي الدامي، وانتصرت للصراعات القبلية الحادة. وخلفهن كانت القاعدة العريضة من النساء تتوارى خلف أستار الحريم، وينتظرن الرجال المتقاتلين العائدين بالغنائم وخيرات البلاد المفتوحة.

* * *

ولكن ماذا عن وضع المرأة المصرية بعد الفتح العربي لمصر؟ هل شاركت هي الأخرى في الأحداث، أم اكتفت بالعمل مع أقرانها من الرجال في أعمال الزراعة والصناعات المختلفة من أجل توليد الثروة للحاكمين الجدد؟ إن الكتابة عن وضعها تبدو ضرباً من المستحيل وسط هذا الركام الهائل من المصادر التاريخية النافية للنساء، بل والنافية لوجود الشعب المصري نفسه حينذاك.

(١) النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، الجزء العشرون، ص ٢٤٣.

حال قبض مصر

وإذا كانت هذه هي حياة الصفوة العربية الحاكمة - الأشراف كما يحلو لهم أن يسموا أنفسهم - بعد أن أزاحوا الرومان عن مقاعد السلطة، واتخذوا أماكنهم، وتركوا قوانينهم في الدواوين ونظام المحاسبة سارية كما هي.

فكيف كانت حياة الشعب المحكوم المنزوي دائماً في خلفية الصورة، حيث إن مصر لم تكن أرضاً منبسطة بلا شعب، فتحها عمرو بن العاص من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، واستولى على كل مدنها وقراها وسواحلها في نزهة بسيطة تحت راية الإسلام. أم أن شعبها استقبل الجيش العربي بالترحيب والأحضان، كما يحلو للبعض أن يصور الأمر في تبسيط مخل وصور زائفة.

واللافت للنظر أن استقراء أحداث الفتح العربي من خلال مصادر التاريخ العربي - «كتب التراث» - يغفل وجود الشعب القبطي، أو يأتي به في مواضع عابرة، كدافع للجزية وللخراج أساساً، أي كممول خفي لحياة الصفوة التي تعيش بسببها ورماحها.

فهي مصادر تقدم وجهة نظر الفاتح العربي المشغول بنفسه دائماً، والحريص على إظهار صورته المعتدلة في الحكم، وتكرار تلك الصورة وإعادة إنتاجها طوال الوقت ورفعها إلى مصاف الحقائق المطلقة، بينما تضرر بفعل الإهمال والاضطهاد وجهة النظر الأخرى، ووجهة نظر الشعب القبطي، فيطويها النسيان وكأنها لم تكن هنالك أبداً. ونبش الذاكرة لإيجاد ما ضاع ليس سهلاً، وإن كان ممكناً بالتفتيش بين طيات المراجع بالغة الندرة.

وبين أيدينا مؤرخ قبطي عاش في أواخر القرن السابع الميلادي وبداية القرن

الثامن الميلادي، وأشارت المصادر القديمة إلى أنه كان في سنة «٦٩٨م» شيخاً كبيراً، فعاصر في شبابه ونضجه أحداث الفتح ورآها رأي العين، وسجلها في مخطوطته الحاملة لاسمه.

وتتكون مخطوطة «يوحنا النقيوسي» من «مائة واثنين وعشرين باباً، وقد حظيت مصر بأكبر قدر من اهتمام المؤلف، حيث لم يترك فرصة يتحدث فيها عن مصر إلا انتهزها... وقد حظيت فترة الفتح بالفصل الأخير من المخطوطة»^(١)، التي تعالج أحداث العالم منذ الخليقة حتى الفتح العربي الإسلامي لمصر.

إنه صوت وحيد للشعب القبطي المنزوي في خلفية الصورة، كتب عما رآه ولمسه قبل أن تمتد أيدي الرواة إلى التاريخ وتقطعه حسب الهوى الشخصي والسياسي، وهو يفوق من حيث الأسبقية مصادر التاريخ العربي.

ويوحنا النقيوسي ليس قبطياً عادياً، بل هو رجل من رجال الكنيسة شغل منصب أسقف مدينة نقيوس. وكان أحد أهم اثنين من الأساقفة في مصر، وعين في عهد البابا يوحنا الثالث رئيساً لأساقفة مصر السفلى، ثم المسؤول عن تدبير أديرة وادي هبيب «وهو وادي النظرون ويعرف ببرية شيهات، وبرية الأسفط، وبميزان القلوب، فإنه كان بها في القديم مائة دير، ثم صارت سبعة ممتدة غرباً على جانب البرية القاطعة بين بلاد البحيرة والفيوم، وهي في رمالٍ منقطعة وسباخٍ مالحة وبرارٍ منقطعة معطشة وقفارٍ مهلكة، وشراب أهلها من حفائر، وتحمل النصارى إليهم النذور والقرايين، وقد تلاشت في هذا الوقت بعدما ذكر مؤرخو النصارى أنه خرج إلى عمرو بن العاص من هذه الأديرة سبعون ألف راهب بيد كل واحد عكاز فسلموا عليه وأنه كتب لهم كتاباً هو عندهم»^(٢).

وقد ظلت مخطوطة يوحنا النقيوسي مجهولة للدارسين العرب فترة طويلة، بينما كان يجري الاستشهاد به في الدراسات الغربية، خصوصاً أن النقيوسي كان قد كتب كتابه باللغة القبطية، ثم ترجم إلى اليونانية والعربية والإثيوبية، ولظروف مجهولة فقدت النسخ اليونانية والعربية والقبطية، ولم تبقَ إلا النسخة الإثيوبية محفوظة بمكتبة

(١) عمر صابر، مصر في مخطوطة يوحنا النقيوسي.

(٢) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، الجزء الثاني، ص ٥٠٨.

الكنيسة بإثيوبيا حتى قام الدكتور «م. هـ. زوتنبرج» بتقديمها مع ترجمة فرنسية لها. وظلت موضع بحث واستشهاد الغرب، حتى ذكرها المؤرخ المصري المعروف عبد الرحمن الرافعي نقلاً عن «زوتنبرج».

وتتالت الاستشهادات، إلا أنها تأتي عابرة ومبتسرة، حيث يقطع كل باحث من النص الأصلي ما يوافق هواه، فلا يبقى من المخطوطة في دراساتهم سوى جمل تنتزع من سياقها مع تجاهل روح المخطوطة وجوها العام.

وسيدة إسماعيل الكاشف - على سبيل المثال - تذكر النقيوسي كمادح لسماحة جيش الفتح العربي لمصر، بعد أن اقتطعت فقرة واحدة تؤكد أن عمرًا لم يمس ممتلكات الكنيسة وأنه ترك لها حرية العبادة على عكس كل ما سبق ذلك، وما تلاه.

أما جاك تاجر فيرى أن يوحنا اهتم بالشكوى من العرب «أكثر من ذكر الأعمال التي تشرف الفاتح فيطلعنا في تاريخه على سيئات الفتح»^(١). بينما قراءة الفصل رقم «١٢٢» كاملاً من المخطوطة تطلعنا على تفاصيل المعارك الحربية وحال الجيش الروماني أثناء الغزو، وكيفية سيطرة الجيش العربي على المواقع والبلاد. ومقاومة بعض المدن واستسلام البعض الآخر، فيرسم صورة حية يغلفها إطار سميك من الحزن على القرى المقاومة وما لاقته من أهوال على يد الجيش العربي.

ومن القراءة الأولى للمخطوطة نلاحظ عداء النقيوسي للجانب العربي من جهة. ويسميهم بالإسماعيليين مرة وبالمسلمين مرة أخرى، ويظهر عداءه للجانب الروماني من جهة أخرى، ويسمي أولئك وهؤلاء أعداء المسيح، أما الأقباط فهم وحدهم أصحاب العقيدة الحقّة من وجهة نظره. ويتمنى النقيوسي أن ينزل الله عقابه الشديد على الجيش العربي وقادته بسبب كل ما فعلوه بالمصريين، مثلما فعل الرب بفرعون موسى حينما «أغرقه في البحر الأحمر هو مع كل جيشه بعد كثير من العقوبات التي عاقبهم بها من الإنسان حتى الحيوان، ولما كان حكم الله على هؤلاء الإسماعيليين فقد يصنع بهم كما صنع بفرعون»^(٢).

وفي ذات الوقت لا يخفي فرحه لما نزل بالرومان من هزيمة وقتل، ويذكر فرحاً

(١) جاك تاجر، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢م.

(٢) يوحنا النقيوسي، المخطوطة.

أنه عقاب السماء الذي حل عليهم بسبب كل ما أنزلوه بالقبط من العذاب الشديد، ويسمى الرومان بالنجسين في بعض المواضع، وبأعداء المسيح، أو أعداء العقيدة الحقّة في مواضع أخرى.

فالنقيوسي صوت قبطي صرف، يرى ظلم الرومان وقسوتهم من جهة، وضراوة العرب وشدتهم من جهة أخرى، ويتابع سير المعارك بين الجانبين بهذه العين المصرية الخالصة، وسرعان ما ينتابه الأسى لما يحل بشعبه القبطي على أيدي الجانبين. ويذكر النقيوسي في مخطوطته أحد أهم أسباب هزيمة الرومان، وانتصار العرب عليهم، وهو انتشار عوامل الانحلال داخل المعسكر الروماني، وتناحر قادته ومكائدهم بعضهم لبعض، كأثر من آثار اختلافات المركز في بلاط هرقل، الإمبراطور الروماني المريض والمشرف على الموت، وصراع زوجته الثانية نيابة عن ابنها ضد الابن الآخر لهرقل من زوجته الأولى، وانقسام رجال البلاط بينهما. وخزانة الدولة خاوية من كثرة نهب كل فريق، وخصوصاً بعد سلسلة الهزائم التي حلت بالإمبراطورية أمام الهجوم الفارسي من الشرق، والهجوم السلافي في الشمال.

وقد انعكست كل هذه الخلافات على وضع الرومان في مصر، حيث «لم يكن هناك جيش بيزنطي موحد أثناء الفتح العربي لمصر، بل وحدات متفرقة في الأقاليم بمقتضى سياسة «جستينان» القاضية بتقطيع أوصال وحدة مصر ومنح جميع الحكام سلطة متسقة، روعي فيها التطابق؛ فكل واحد منهم كان يفكر في منطقة نفوذه فقط»^(١). وخصوصاً بعد ما طرد الرومان الفرس من مصر واكتفوا بوضع حاميات عسكرية في الوجه البحري.

ويذكر النقيوسي أن الرومان كانوا منقسمين على أنفسهم، وأنه «كان هناك نزاع كبير بين الرئيس تيودور والسادة»^(٢)، مما يفسر فرار بعض القادة المحليين أمام جيش المسلمين وانضمام آخرين إلى جيش عمرو خوفاً من بطش الحاكم العسكري الروماني «تيودور».

لقد غزا عمرو بن العاص المعسكر الروماني في لحظة ضعف عاتية، ويبدو

(١) هارولد بل، الهيكلية في مصر.

(٢) يوحنا النقيوسي، المصدر نفسه.

أن عمرًا كان ملهمًا بتلك الأحوال عن طريق «أدلاء الشام»، مما يفسر رغبته في الإسراع بغزو مصر بعد ما ألم بالرومان من هزائم في الشام، وقبل أن يفيقوا من آثار الصدمة الأولى.

وإذا حاولنا تجميع مفردات الصورة العامة كما جاءت في مخطوطة يوحنا النقيوسي، سنلاحظ تقهقر الجنود الرومان ووحداتهم العسكرية تبعًا من الشرق إلى الغرب، أو مناطق الحصون عند رأس الدلتا وغربها، فيقول: «سار المسلمون إلى الصحراء، وأخذوا كثيرًا من الخراف والظباء من الجبل، ولم يعرف أهل مصر هذا»^(١).

فهو لا يذكر هنا المواقع الحربية التي دارت في الشمال الشرقي مثل معركة الفرما أو معركة بلبيس أو غيرهما من المواقع التي أفاض المؤرخون الآخرون في ذكرها^(٢). كما نلاحظ إشارته إلى تفكك الجيش الروماني، وبطء وصول المعلومات، أو إشارته لعنصر المفاجأة، حيث يقول: «لم يعرف أهل مصر هذا».

(١) المصدر السابق.

(٢) سير المعارك الحربية حسب توقعات بعض المؤرخين:

أ. حسب رواية البلاذري في كتاب «فتوح البلدان»:

سار جيش عمرو بن العاص من العريش إلى الفرما إلى الیونه (بابلون) أو الفسطاط، ومنها وجه جيشًا إلى عين شمس بقيادة عبد الله بن حذافة السهمي، وآخر إلى الفيوم والأشمونين بقيادة خارجة بن حذافة العدوي، وثالث إلى تنيس ودمياط وتونة ودميرة وشطا ودقهلة وبنا وبوصير بقيادة عمير بن وهب الجمحي، ورابع إلى سائر قرى أسفل الأرض بقيادة عقبة بن الجهمي.

ب. حسب رواية ابن تغري بردي الأتابكي، المأخوذة عن ابن عبد الحكم، في كتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»:

فسار جيش عمرو إلى رفح، ومنها إلى العريش، ثم إلى الفرما، وهي أول موضع قاتلته فيه الروم قتالًا شديدًا نحوًا من شهر - والفرما هي مدينة عتيقة على ساحل بحر الروم، وهي الآن خراب، وهي على جانب بحيرة تنيس مما يلي الشرق - ثم مضى إلى القياصر، ومنها إلى بلبيس وفيها قاتل نحوًا من شهر حتى فتح الله عليه، ثم مضى لا يدافع إلا بالأمر الخفيف حتى أتى أم دنين - كانت تطلق قبل الإسلام على المقدس وكانت واقعة على النيل، ويقع فيها الآن جامع أولاد عناني وشارع كامل وحديقة الأربكية - فقاتلوا من بها قتالًا شديدًا، وأبطأ عليه الفتح فطلب مددًا من الخليفة عمر بن الخطاب... وظل حصار بابلون سبعة أشهر حتى سقط في أيدي الجيش العربي.

ج. في كتاب «الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة»، لابن ظهيرة، نجد نفس خط سير القتال.

د. في «معجم البلدان» لياقوت الحموي:

وسمع «تاودسيوس» الحاكم - وهو سماع متأخر في هذا السياق وغريب في ذات الوقت نظرًا لاستمرار اقتحام الجيش العربي مدن الشام وسقوطها تباعًا حتى حدود مصر الشرقية - سمع «تاودسيوس» الحاكم بمجيء الإسماعيليين، وكان يسير من

الفرما قتال نحو شهرين
بلييس قتال نحو شهر
أم دينين وهي المقس شهران
حصن بابليون سبعة أشهر

هـ. سير عمرو بن العاص حسب ما ذكر حسن إبراهيم حسن في كتاب «تاريخ عمرو بن العاص»: من البقعة الريفية بالملح التي تحيط بالفرما مر عمرو على أرض مفروشة بقشور الصدف البيضاء التي استحالت إلى رمال حتى وصل إلى مجدل نحو الجنوب والغرب، ومن ثم إلى الجهة المعروفة الآن بالقنطرة على قناة السويس، حيث يغطي سطح تلك الأرض الصحراوية بحصى كثير صلب، وفي خلالها يقع أرض خضراء وبعض مستنقعات ملحة ينمو على جوانبها القصب، ثم أخذ في السير إلى الصالحية والقصاصين، ومن ثم اتجه منحرفًا نحو الجنوب مجتازًا تللال وادي الطميلات «رأس الوادي» على مقربة من التل الكبير الآن وقريبًا من بلييس. وقد اتخذ معظم الفاتحين الأقدمين طريقًا غير هذا مثل قمبيز الذي سار من الفرما متجهًا نحو الغرب إلى سنهور وتيس «صان»، ومن ثم إلى بلييس ولكن في هذا الوقت - أي حين الفتح الإسلامي - انتشرت المستنقعات حول بحيرة المنزلة بحيث جعلت هذا الطريق على عمرو أشق مما كان على غيره، إذ لم يكن لدى عمرو وجنده من الوسائل ما يكفل لهم إقامة القناطر والجسور. و. أما سير القتال حسب تصور د. حسين مؤنس في كتاب «أطلس تاريخ الإسلام»:

من غزة إلى رفح وسار في الطريق الشمالي القريب من البحر، فدخل ثم مر بالعريش ومر ببئر المساعيد ورؤوس الأدرب وبئر العبد وقطيا ثم انتهى إلى الفرما، وهي ميناء صغير على البحر يسمى عند الروم «بولوزيوم» وكان يصب بقربها فرع من فروع دلتا النيل يسمى الفرع البلوزي. ومن الفرما اتجه جنوبًا حتى قرّة مجدل قرب الفرما، ثم مر بمكان قرية القنطرة ثم إلى مكان الصالحية ووادي الطميلات. وعندما وصل عمرو ببلييس وجد بها جمعًا من الروم يقودهم قائد يسمى Arteon، وقد سماه العرب الأرطبون، فاستولى عليها العرب بعد قتال نحو شهر. ومن بلييس اتجه عمرو إلى رأس الدلتا، فوصل إلى قرية تسمى تندونياس ويسمىها العرب أم دينين واستولى عليها.

أما رأس الدلتا فكان في جنوبها حصن للروم يسمى حصن بابليون أو باب اليون، جعل الروم فيه حامية كبيرة لحكم البلاد وضمان طاعة أهلها وصد أي عادية تكون على مصر من الشرق. وكان الروم قد حصنوا هذا الموقع بعد أن أخرجوا الفرس من مصر والشام، قبل الفتح العربي بقليل. وكانت المنطقة المحيطة بالحصن ومنه إلى رأس الدلتا تسمى كلها مدينة مصر، وهي منطقة مزارع من قرى وحدائق، وحاصر العرب حصن بابليون وبعد مجيء المدد كان اللقاء عند

مكان إلى مكان ليرى ما سيكون من هؤلاء الأعداء. «وجاء هؤلاء الإسماعيليون وقتلوا رئيس الجند وكل من معه دون رحمة»^(١)، وفي الحال فتحوا المدينة، وعندما شاع الخبر فر بعض القادة إلى حصن بابلون.

ويشير النقيوسي إلى مواطن تركز الجيش الروماني في رأس الدلتا وغربها، حينما يذكر حصن بابلون الذي فر إليه القادة، ومسلحة نقيوس التي تراجع إليها الجند، ثم يذكر معارك أون (عين شمس) وطلب عمرو بن العاص من الخليفة

هليوبوليس وانتصر العرب، ولجأ الروم إلى بابلون فتحصنوا به، وعاد المسلمون يحاصرونه، وبعد صلح بابلون قرر عمرو المسير إلى الإسكندرية، قاعدة مصر البيزنطية.

وسار إلى الإسكندرية محاذيًا فرع رشيد، الذي يسمى الفرع البوليتيني، نسبة إلى رشيد، وكان اسمها «بولاتينا»، وفتح عمرو في طريقه طرنوط ثم نقيوس، ثم سلطيس ثم الكريون وكلها كانت مراكز لجاليات رومية حاولت مقاومة العرب. وكان تيودور قائد الحامية الرومية تحصن في الكريون ثم انهزم إلى الإسكندرية وتحصن بأسوارها وكتب إلى هرقل، واستمر حصار الإسكندرية أربعة أشهر حتى قلق عمر بن الخطاب وكتب إلى عمرو، فقرر عمرو اقتحام أسوار البلد وعهد إلى عبادة بن الصامت في ذلك فنجح فيه واقتحم الإسكندرية بجنده.

وفي أثناء حصار الإسكندرية كانت بعض نواحي مصر قد حاولت الوقوف في وجه المسلمين في الفيوم وأعلى الأرض وشمال وغرب الدلتا، فوجه عمرو خارجة بن حذافة السهمي في قوة إلى شمال غرب الدلتا فحارب البشروقات، أي أهل البشروقات وهم أهل منطقة المنزلة - مع ملاحظة أن المنزلة شمال شرق الدلتا وليس غربها كما يقول حسين مؤنس.

ووجه عمير بن وهب الجمحي إلى نواحي تيس ودمياط وتونة ودميرة وشطا ودقهلة وبنابوصير ففضى على مقاومتها. وكانت في الفيوم قوة رومية يقودها رجل يسمى «دمنديانوس» فحاول التقدم نحو الفسطاط، ولكن القائد العربي عقبة بن عامر تصدى له وهزمه. وتولى عقبة بن عامر القضاء على كل مقاومة في الصعيد.

* * *

وبمقارنة سير المعارك لدى يوحنا النقيوسي والمؤرخين العرب القدامى والمحدثين نلاحظ أن النقيوسي لم يذكر المعارك الشرقية وأن اهتمامه بالتفاصيل ينحصر في الدلتا والشمال الغربي حتى الإسكندرية، وربما تكون بعض الأوراق قد ضاعت من مخطوطة النقيوسي، وربما لم يبدأ اهتمامه بالتفاصيل إلا مع اقتراب الخطر العربي من المناطق المحيطة به والقرية منه. مع ملاحظة أنه لم يكن هناك جيش بيزنطي موحد أثناء الفتح العربي لمصر، بل وحدات متفرقة مع الأقاليم بمقتضى سياسة جستنيان القاضية بتقطيع أوصال وحدة مصر، ومنح جميع الحكام سلطة متسقة روعي فيها التطابق، فكل واحد منهم كان يفكر في منطقة نفوذه فقط، كما يقول سير هارولد بل في كتاب «الهليونية في مصر».

(١) المصدر السابق.

أن يمدّه بمزيد من القوات، ويذكر تقسيم عمرو للجيش إلى ثلاثة أقسام: قسم عند طندونباس، وقسم عند شمال بابليون، وقسم عند أون. وانتصر العرب في المعركة، واستولوا على طندونباس، وتفهم الرومان بعضهم إلى بابليون وبعضهم إلى مسلحة نقيوس.

ومع كل هزيمة كانت النزاعات تتسع بين القادة الرومان، وحتى «دمنديانوس» الذي كانت وحدته العسكرية تمثل نقطة مقاومة رومانية ضد العرب في الفيوم وبويط، هرب ليلاً «وسار بالسفينة إلى نقيوس وعندما عرف المسلمون أن دمنديانوس هرب ساروا في ابتهاج واستولوا على مدينة فيوم وبويط، وأراقوا بها دمًا غزيرًا»^(١).

وبدأ عمرو بن العاص يثبت أقدامه ويطلب من بعض حكام المدن مساعدته، فطلب من «أباكيري» في مدينة دلاس (أطفيح ببني سويف) أن يمدّه بسفن الريف لتنقله إلى شرق النهر، كما طلب من «جيورجيس» والي المقاطعة أن يشيد له قنطرة عند النهر بمدينة قليوب ليستولي على كل مدن مصر ومدينة أتريب (ناحية بنها) ومنوف وجميع ضواحيها، في ذات الوقت الذي كان يعسكر في بابليون، وقبض عمرو على كل من يخالفه من حكام الرومان: «وكبل أيديهم وأرجلهم بأغلال الحديد والخشب ونهب أموالاً كثيرة بعنف، وضاعف فرض الضرائب على العمال وكان يسخرهم ليحملوا طعام أفراسهم، وارتكب آثامًا كثيرة لا تحصى»^(٢).

وهنا حدث زعر عام في مصر، وكان الرومان يفرون من المدن الأخرى ليتحصنوا في الإسكندرية قبل أن يدركهم عمرو «يهربون ويلجأون إلى مدينة إسكندرية، وهجروا كل أموالهم وخزائهم وحيواناتهم»^(٣).

وفي مقاطعة أخرى عند مدينة سمنود رأى الرومان هناك ضرورة قتال الجيش العربي، في ذات الوقت الذي كان القائد العسكري للرومان يحاول رأب صدع

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

الخلافات بين رجاله المتناحرين، وظل عمرو «يحارب المسيحيين الذين كانوا في شمال مصر ولم يستطع فتح مدنهم»^(١).

ويذكر النقيوسي المواطن التي قاوم أهلها الجيش العربي مثل سخا (كفر الشيخ)، ونوخود (من أعمال البحيرة)، ومصاي (من أعمال البحيرة أيضًا)، ودمياط، بالإضافة إلى مدن الشمال. وعودة عمرو دون تحقيق النصر عليهم إلى جنوده في بابلون «وأمر أن يمهّدوا طريقًا من حصن بابلون حتى يصلوا به إلى المدينة ذات النهرين (رشيد) ليحرق هذه المدينة بالنار»^(٢)، وحدث ذعر عام نتيجة تلك المحرقة الكبيرة. وسار المسلمون إلى مدن أخرى ليحاربوها، وأرسل قليلًا من المسلمين إلى مدينة أنصنا، مدينة مارية القبطية، «وتشاور أهل المدينة مع يوحنا رئيسهم في أن يحاربوا المسلمين، فأبى هو ونهض بسرعة مع جنوده. وجمع كل مال الضرائب من المدينة»^(٣). وهرب إلى الإسكندرية، وخضع أهل المدينة للعرب وقدموا لهم الضرائب، وكره سكان البلاد من القبط الروم الذين تركوهم مكشوفين الظهر وهربوا بعد أن سرقوا الأموال، ولذلك راح الناس يقتلون من يجدون من جنود الروم أمامهم.

ومات هرقل في ظل كل هذه الهزائم. وسلّم حصن بابلون بعد أن أخذت حامية الحصن «قليلًا من الذهب وساروا»، وبعد أن عذبوا الأقباط الذين كانوا يسجنونهم، وقطعوا أيديهم قبل أن يرحلوا.

وهرب حاكم أباديا إلى الإسكندرية تاركًا جنوده نهبًا للذعر والقتل. ودخل الجيش العربي مدينة نقيوس «مكان الكوم الأثري الجهة البحرية من سكن زاوية رزين بمركز منوف»^(٤)، ويقول البعض إنها قرية شبشير الآن، أو قرية أبشادي مركز تلا منوفية.

ثم يذكر النقيوسي الخلافات الدائرة بين الحكام الرومان في الوجه البحري،

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية.

وانقسامهم إلى قسمين: قسم انضم إلى جانب المقاومة بقيادة «تيودور» الحاكم العسكري، وقسم أراد أن ينضم إلى المسلمين.

وبعد استيلاء العرب على كريون الواقعة جنوب الإسكندرية، ظهر كيرس البابا الخلقيدوني - أو المقوقس - وعقد اتفاقية التسليم وأداء الجزية، «واستولى المسلمون على كل بلاد مصر جنوبًا وشمالًا وضاعفوا عليهم الضرائب ثلاثة أمثال»^(١).

وهكذا نرى في مخطوطة النقيوسي: فقدان الثقة، والفرار ليلاً، والاحتماء بالحصون دون البروز في المعارك، ثم الفرار من موقع سقط إلى موقع آخر لم يسقط بعد. وكلها من أهم السمات الغالبة على الجيش الروماني. ويمكن تقسيم قادة الجيش الروماني إلى قسمين:

- المتعاونون مع العرب مثل: أحد رجال «أرمياس»، وقد دل العرب على مكان اختباء يوحنا الحاكم في الحظائر والمزارع. و«أباكيري» حاكم مدينة دلاس (أطفيح)، وقد أمد عمرو بن العاص بسفن الريف. و«جيورجيس» الوالي، وقد شيد لعمرو قطرة عند النهر بمدينة قليب، وكروديس وغيرهم.

- القادة المتذبذبون بين التعاون والندم على التعاون، مثل: «كلادجي» و«سبنديس»، وكلاهما كان مضارًا من عنف رؤسائه في الجيش الروماني، فانضم إلى العرب نكاية فيهم من جانب، ورغبة في تأمين النفس من جانب آخر. ثم ندما وعادا إلى صفوف الرومان، وعاد «سبنديس» إلى مدينة الإسكندرية «معتزلاً بخطئه لدى السادة مع غزير الدموع»^{١/}.

وسوف نجد أيضًا في مخطوطة يوحنا النقيوسي صورة ساخرة للقادة الهاربين، مثل «تاودسيوس» و«أنسطاسيوس» اللذين تركا البهنسا (قرب واحة سيوة) بعد سماعهما لقصة قتل يوحنا الحاكم ورميه في البحر، فتوجها في الحال إلى حصن بابلون، وبقيا هناك.

و«لمنديوس» الذي كان بمدينة فيوم، وسمع أن محاربي الإسلام قد استولوا على مدينة طندونياس وأفنوا ما بها من الجنود «ولم يبقَ منهم سوى ٣٠٠ جندي»

(١) يوحنا النقيوسي، المصدر نفسه.

فنهض «لمنديوس» «ليلاً دون أن يخبر أهل بويط بأنه سيهرب من الإسلام وسار بالسفينة إلى نقيوس»^(١).

و«دمنديوس» حاكم أباديا الذي «هرب بالسفينة وترك الجنود مع سفنهم... ولما رأى الجنود أن حاكمهم فر، تركوا عدة حربهم ونزلوا في البحر أمام أعدائهم فقتلهم جنود المسلمين بالسيف في البحر، ولم ينج منهم سوى رجل واحد فقط اسمه زكريا، وهو قوي محارب»^(٢).

وفي العموم، اتجهت حركة الهرب إلى ثلاثة مواقع - في مخطوطة النقيوسي - من الشرق إلى حصن بابلين، ومن حصن بابلين إلى حصن نقيوس (مركز منوف أو المنوفية)، ومنه إلى حصون الإسكندرية. وبعد ذلك كان الهروب الكبير بالأموال والذهب والمنقولات إلى القسطنطينية. وبخلاف هؤلاء كانت هناك أعداد غفيرة لم يسعفهم الفرار، فحصدتهم السيوف العربية، أو أكلتهم نيران المحارق الواسعة. وفي خلفية الصورة سنجد جموعاً غفيرة من المصريين - القبط وغيرهم - في القرى والمدن، كانوا ينتظرون في البداية تصدي الجيش الروماني للجيش الإسلامي «ليتلاقوا لقتال الإسماعيليين قبل أن يرتفع ماء النهر ويكون وقت الزرع فلا يستطيعون الحرب، لئلا يتلف زرعهم فيموتون جوعاً مع صغارهم وحيواناتهم»^(٣).

ولكن كثرة الهزائم التي حلت بالرومان، وكثرة القتل والنهب التي أحدثها الجيش العربي، خلقت حالة من الفوضى والذعر؛ «خوف عظيم في كل مدن مصر».

والمدن التي شرعت في المقاومة، كان عمرو بن العاص ينشب النار في أسوارها وبيوتها وطرقها وزروعها، مثلما فعل بمدينة دمياط التي «لم ترص عنه» والمدينة ذات النهرين، وغيرهما.

وأحياناً أخرى، كان قتل من يقف في طريق الجيش العربي من المدنيين وسيلة الجيش الإسلامي في الاستيلاء، كما حدث عندما دخلوا مدينة نقيوس واحتلوها

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

و«لم يجدوا أحدًا من المحاربين وكانوا يقتلون كل من وجدوه في الطريق وفي الكنائس، رجالًا ونساء وأطفالًا ولم يشفقوا على أحد»^(١).

«ونهبوا كثيرًا من الأسلاب وأسروا النساء والأطفال وتقاسموهم فيما بينهم وجعلوا هذه - يقصد مدينة نقيوس - فقيرة»^(٢).

ويبدو أن ما حدث فيها كان أكبر من الوصف، حتى إن النقيوسي يطالبنا بأن «نصمت الآن، فإنه لا استطاع الحديث عن الإساءات التي عملها المسلمون حين استولوا على جزيرة نقيوس»^(٣).

وبعد وصوله إلى الإسكندرية «هدم بيوت السكندريين الذين هربوا، وأخذ أخشابها وحديدها، وأمر أن يمهّدوا طريقًا من حصن بابلليون حتى يصلوا به إلى المدينة ذات النهرين ليحرق هذه المدينة بالنار»^(٤).

ويشير يوحنا النقيوسي إلى أن الجمهور المصري لم يأخذ وضع المتفرج الساكن السلمي، أو الفأر المذعور دائمًا أمام الاجتياح العربي، رغم أنه أعزل، بل كان نواة المقاومة في هذه المدن التي كان الحرق جزاءً لمقاومتها، وخصوصًا مدن الشمال، حتى إن عمرًا رئيس المسلمين «مكث اثني عشر شهرًا يحارب المسيحيين الذين كانوا في شمال مصر ولم يستطع فتح مدنها»^(٥).

وحتى عندما كان عمرو يحرق مدينة كان أهلها يخرجون ليلاً ويطفئون مدينتهم على قدر استطاعتهم.

ونقطة الفصل في فهم موقف عمرو بن العاص من المصريين، ومن كيفية تعامله معهم، هي في النظر إلى مدى تمسك الشعب بالمقاومة أو عدم تمسكه بها، لأنه كان على استعداد لفعل أي شيء في سبيل إتمام الفتح، وكما قال النقيوسي إنه: «كان ذا اهتمام عظيم وكبير ظن في أن يستولي على مدينة مصر»^(٦). ولذلك فإنه لم يدخر

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

وسعاً لتحقيق هدفه واستخدام كل وسائل الحرب في عصره، كما يقتضي منطق الفتح- الغزو- لإخضاع البلد المطلوب، وربما كان الحرق أو التهديد بالحرق أكثر وسائل عمرو بن العاص الموجهة ضد مقاومة العزل من سكان المدن، أما تلك التي سلمت سريعاً فقد كان يبادر إلى مضاعفة الضرائب فيها «ثلاثة أمثال» كعلامة من علامات الخضوع والتسليم.

فالأساسي لدى عمرو هو أن تدين له البلاد بالطاعة أو تدمر. إما أن تخضع أو تحرق. وهكذا بعد سلسلة من الحروب الدامية والمحارق الواسعة وهوان الهروب والتشرد، استكان المصريون للعرب، وتعاملوا معهم على أنهم أمر واقع لا يملكون تغييره. وأدرك عمرو من خلال بعض رجال القبط المتعاونين معه مدى الخلاف بين الكنيسة المصرية وبين الكنيسة الرومانية، كما أدرك ما للكنيسة المصرية ورجالها من أهمية وتقديس في قلوب الأقباط المصريين، فعمل على تأمين عودة الأنبا بنيامين ورجال الإكليروس، ومنحهم الأمان الذي افتقدوه في الأعوام العشرة السابقة على الفتح، «ودخل الأنبا بنيامين بطريرك المصريين مدينة الإسكندرية بعد هربه من الروم وسار إلى كنائسه وزارها كلها»^(١).

«وساد المسلمون مصر، وكان عمرو يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددوها، ولم يأخذ شيئاً من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئاً ما سلباً أو نهباً، وحافظ عليها طوال الأيام»^(٢).

وهكذا نصل إلى تلك الجملة التي اقتطعتها الدكتورة سيدة الكاشف لتدلل بها على سماحة الجيش العربي عند فتح مصر من خلال شهادة قبطي، بل من خلال أحد رجال الكنيسة القبطية المهمين في ذلك الحين.

ولكن كما نرى: فإن إقرار السماحة الذي يذكره النقيوسي عن العرب قد مر عبر أهوال كثيرة ذاقها المصريون حتى خضعوا واستتبّت الأمور للفاتحين الجدد، وفهم عمرو بن العاص أن التغاضي عن مال الكنائس هو الحصول على كل الثروة، بل

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

هو مفتاح الخضوع الكامل للشعب القبطي المحب لكنيسته، والذي أخفى رجالها في الحشايا والضلوع لحمايتهم من الاضطهاد الروماني. وفي ذات الوقت الذي يفرح فيه هذا الشعب لعودة البابا بنيامين ورجال الإكليروس وتأمين أموال الكنيسة وممتلكاتها، يسوده الحزن والغم الشديد من جراء تزايد أعباء الضرائب والعجزية والخراج. وميزة النقيوسي الواضحة أن المكتسبات الجديدة لم تلف رأسه، بصفته أحد رجال الكنيسة المهمين، ولم تنسه ذكر ما ألم بالشعب، فيسترسل بعد ذكر المكتسبات مباشرة، ويقول: «ولما استولى على مدينة إسكندرية جعل نهر المدينة يابسًا، كما تعلم من تيودور العاصي، وزاد الضرائب قدر اثنين وعشرين عصا من الذهب، حتى اختبأ كل الناس لكثرة البؤس وعدموا ما يؤدون»^(١).

وقراءة النقيوسي قراءة صحيحة لا تقتضي النظر للجانبين فحسب، جانب استخدام العنف للقضاء على مقاومة أهل البلاد، وجانب التسامح مع رجال الكنيسة القبطية أصحاب السلطة الروحية المهيمنة على الشعب، بل يجب النظر للجوانب العديدة التي تملأ مخطوطته، حتى إننا يمكن أن نرسم من خلال تفاصيلها الثرية صورًا للقادة المتصارعين، عليها تكون جزئيات من الصورة الكلية للصراع لحظة الفتح العربي لمصر.

(١) المصدر السابق.

بورتريهات القادة في مخطوطة يوحنا النقيوسي

١. هرقل

إمبراطور الروم القاطن في القسطنطينية، يضعه النقيوسي على رأس الأعداء الذين أنزلوا العذاب بالأقباط المصريين «أبناء الله العزل» أو «أبناء المسيح الطيبين» وهو الآن طريح الفراش يرى مملكته وسبب جبروته الأول تتكسر أمام ناظره قطعة قطعة، وتضيع إلى الأبد، ورجاله يتساقطون كالهوام ويتركونه حزيناً يتسلم جثثهم ويودعهم مثواهم الأخير، ويرى نار الخوف والانقسام تأكل من بقي منهم: «كان هرقل حزين القلب لموت يوحنا رئيس القوم ويوحنا الحاكم اللذين قتلها المسلمون»، وكان أحدهما هو الذي أخرجوا جثته بشبكة من البحر وبعثوها إليه يحمسونه ضد قاتليه العرب. ومن كثرة الهزائم في الشام وفلسطين ومصر، أخذت روح القنوط تسري في أوصاله المتعبة، وتمكن الحزن من قلب هرقل «وأخذ الله قوته» وجاءته الحمى الأخيرة تحصد ما بقي من أشلائه، و«بأمر الله الذي يأخذ أرواح حكامهم والقوة التي لدى الملوك، مرض هرقل بمرض الحمى ومات»^(١).

إلى جانب تلك الأسباب الإلهية العليا المتمثلة في غضب قبط مصر وكرهيتهم له، وبالتالي غضب الرب في السماء، يشير يوحنا إلى تجليات واقعية لأزمة الرئاسة والحكم: «كان الناس يقولون إن موت هرقل كان بسبب ختم دينار الذهب بصور ثلاثة ملوك إحداها صورته والاثنان صورتا ابنه، واحد من الجهة اليمنى والآخر

(١) يوحنا النقيوسي، المخطوطة.

من اليسرى، ولم يجدوا مكانًا يكتبون فيه اسم مملكة الروم، وبعد موت هرقل طمسوا هذه الصور الثلاث»^(١).

فالفرقة والاختلاف السياسيان وصراع الأبناء والأتباع والزوجة على الحكم تجري جميعًا أمام ناظري الإمبراطور وهو قعيد تأكله الحمى وأخبار الهزائم. وجميعها أسباب لتنفيذ مشيئة الرب العادل - من وجهة نظر النقيوسي - لإنزال العقاب على الإمبراطور الطاغية^(٢).

٢- قيرس

ليس له وجود في أحداث المعارك الأولى وحتى سقوط حصن بابلين، إلا في إشارة عابرة تدل على أنه هو نفسه البابا الخلقيدوني الذي كان أداة هرقل لإنزال العذاب على المصريين أصحاب العقيدة الحققة.

ظهر كيرس «قيرس» في المخطوطة بوضوح بعد وفاة هرقل وبعد الهزائم المتتالية التي أصابت الروم، وبعد نجاح العرب في اقتحام حصن بابلين والسير إلى الريف ليستولوا عليه؛ عند ذلك: «نهض كيرس البابا وسار إلى بابلين حيث المسلمون، راغبًا أن يعمل سلامًا وأن يؤدي لهم الضرائب ليدعوا الحرب عن بلاد مصر. فرحب عمرو بمجيئه وقال له: حسنًا فعلت بخروجك إلينا، فأجاب كيرس وقال له: منحكم الرب هذا البلد، من الآن لا يكون بينكم وبين الروم خصومة، وحددوا عبء الضرائب التي تؤدي»^(٣).

وهكذا قام كيرس «قيرس» بوضع لمسات التسليم الأخيرة، وأخذ الأمان للروم؛ فكانت هدنة استمرت أحد عشر شهرًا، هرب خلالها الروم الكثير من الأموال إلى موطنهم الأصلي، وعاد الكثير من رجالهم إلى هناك.

(١) المصدر السابق.

(٢) يقال إن هرقل كانت تعتربه بين الحين والآخر نوبات من الخمول والانتقاض خصوصًا بعد المعارك الضارية التي دخلها مع خسرو إمبراطور الفرس، وغارات جموع الآفار والشعوب السلافية، بالإضافة إلى أنه كان يشك في إخلاص «بريسكوس» القائد العام. كما كانت الإمبراطورية تعاني من ضيق الموارد وخواء الخزينة العامة من جراء كثرة الحروب.

(٣) المصدر السابق.

وبعد لمسات الاعتراف والتسليم التي قام بها كيرس «قيرس»، عاد إلى مقر حكمه بالإسكندرية، وأبلغ القادة العسكريين بما حدث لينقلوه إلى الملك هرقل، وغالبًا كان المقصود هنا ابن هرقل حيث كان الأب قد مات قبل ذلك.

وبعد أن بلغت الهزائم ذروتها، خطب كيرس في الجنود، «وقال لهم كلهم، إنه تعاهد مع المسلمين وأرضى قلوبهم كلهم بهذا العمل»^(١).

وحينما انتشر نبأ المعاهدة حدثت فتنة عظيمة بالإسكندرية وثورة عارمة ضد هؤلاء الرومان المتقاعسين والمستسلمين للعدو العربي، وزحف الناس إلى مقر البابا الخلقيدوني وأرادوا أن يقذفوه بالأحجار، لكن بحكمته السياسية وكهنوته الديني خطب فيهم قائلاً: «إنما صنعت هذا لإنقاذكم مع أبنائكم. واستعطفهم بكثير من البكاء والحزن، فاستحى منه السكندريون وأعطوه ذهبًا كثيرًا ليؤديه إلى الإسماعيليين مع الضرائب التي حددوها عليهم. وأهل مصر الذين فروا عادوا إلى مدينة إسكندرية خائفين من المسلمين، وسألوا البابا وقالوا له: تأخذ لنا كلمة من المسلمين أن نعود إلى بلادنا ونخضع لهم. فعمل لهم كما قالوا واستولى المسلمون على كل بلاد مصر جنوبًا وشمالًا وضاعفوا عليهم الضرائب ثلاثة أمثال»^(٢).

وواضح أن كيرس «قيرس» كان خطيبًا مؤثرًا استخدم شتى الأساليب البلاغية والتمثيلية، حينما «استعطفهم بكثير من البكاء والحزن» فرقوا له، أو جعلتهم المأساة الشاملة يرقون ويحسون أن ظهورهم للحائط، وأنه لم يعد أمامهم إلا طلب النجاة وشراء الأنفس ببذل المزيد من الأموال والذهب لكيرس ليؤديها عنهم للعرب، هذا في ذات الوقت الذي انشغل فيه القادة الهاربون عن طريق البحر إلى القسطنطينية بنهب موسع جرى تحت غطاء دموع كيرس وأحزانه البادية من جهة، والفوضى الناتجة عن لحظات الاجتياح من جهة أخرى.

وينتهي دور كيرس «قيرس» بنفس الغموض اللازم لملاح رجل التسليم، فتتبا

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

الحمى، ويموت أيضًا أسيف القلب، «ولما كان يوم عيد الشعانين مرض كيرس البابا بمرض الحمى لكثرة حزن القلب ومات»^(١).

٣- تيودور

يحتل مساحة كبيرة في مخطوط يوحنا النقيوسي، ويبدو أنه كان بمثابة الحاكم العسكري لمصر، وأنه لم يتحرك للقاء الجيش العربي إلا بعد هزيمة رجاله في البهنسا، وحينما أسرع إلى تلك المنطقة لقتال العرب أخفق في الجولة الأولى.

و«بحث تيودور بعناية كبيرة عن جثة يوحنا الذي غرق في البحر، وبعد حزن شديد أخرجه بشبكة ووضعها في نعش وأرسله إلى السادة، فأرسله السادة إلى هرقل»^(٢) فكان نذير شؤم للإمبراطور المحتضر.

ثم كان اللقاء الثاني له مع العرب في أون (عين شمس) فكانت الهزيمة الكبرى الثانية، وفر هو وجنوده إلى حصن بابلين، ودارت بعد ذلك معركته الثالثة مع العرب في كريون، وهزم فيها أيضًا.

وأمام هذه الهزائم المتتالية حاول «تيودور» أن يجمع شمل رجاله فبعث إلى «كلادجي»، الذي يبدو أنه فر من الجيش مع رجاله «ودعاه قائلاً: عد إلينا وعد إلى الروم. ووهب كلادجي تيودور كثيرًا من المال خوفًا منه حتى لا يقتل أمه وزوجته المختبئين في إسكندرية. وطيب تيودور الحاكم قلب كلادجي»^(٣). وتفوح من بين سطور النقيوسي السابقة أصابع الاتهام إلى «تيودور»:

هل كان قائدًا مرتشيًا سفاحًا يقتل زوجات وأمهات رجاله المتمردين؟

(١) يذكر سير هارولد أن كيرس كان رجلاً قلق المزاج، ولما وجد أنه لا سبيل إلى جعل القبط يعتنقون المذهب الخلقيدوني بدأ حملة عنيفة من الاضطهاد. وأنه عقد معاهدة بابليون بعد الهزائم الأولى، ولما ذهب يعرضها على الإمبراطور رفضها ونفاه، وبعد وفاة هرقل عاد كيرس بأمر زوجة الإمبراطور إلى مصر، وكان بابليون قد سقط وزحف العرب إلى الإسكندرية، ولما رأى أن الإسكندرية قد مزقتها الحزبية، عقد مع العرب معاهدة الإسكندرية في ظل رضا وموافقة الوصية على عرش هرقل الصغير. (هارولد بل، الهيلينية في مصر)

(٢) يوحنا النقيوسي، المخطوطة.

(٣) المصدر السابق.

هل كان قائدًا سيئ السمعة حتى تفرق عنه رجاله وسط المعارك الطاحنة فكانت الهزائم المتتالية؟

النقيوسي يقول إن «تيودور» حاول أن يسترضي «سبنديس» أيضًا «الذي هرب من أيدي المسلمين وانضم إلى دمنديانوس لحرب الإسلام»^(١).

ينضم إلى من؟ إلى «دمنديانوس» عدو «تيودور» وغريمه في الصراع الطاحن! إذن فقد كان «تيودور» يحاول أن يقطع «سبنديس» من جبهة غريمه «دمنديانوس» ويضمه إلى جبهته هو، ولذلك كان أيضًا يتحالف مع «ميناس» وكلاهما ضد «دمنديانوس». وكل هذه الخلافات هي مجرد صدى لما يحدث في مركز الإمبراطورية هناك، وكلها تدور حول سؤال من يتولى الحكم بعد هرقل؟ ويبدو أن جبهة «دمنديانوس» كانت تخوض غمار مقاومة الجيش العربي، أما جبهة «تيودور» فكان التحلل يضرب فيها إلى الجذور، ولذلك فقد اشترك «تيودور» مع كيرس في مهام تسليم مدينة الإسكندرية للعرب، كما حاول أن يهدئ من ثورة الشعب ضد الرومان المستسلمين.

وفي النهاية تولى القائد المهزوم «تيودور» مهمة الإشراف على ترحيل الجيش إلى بلاده بعد تلك الهزيمة غير المشرفة.

٤. شخصيات عابرة وظلالها الغامرة

لونديوس

تكمُن في مخطوطة النقيوسي - على الرغم من قصر الفصل الخاص بأحداث الفتح - شخصيات غير محورية، لكن وجودها والوصف المقترن بها يضيف نوعًا من حيوية الحقيقة، ويغني عن آلاف التعليقات مثل شخصية «لونديوس» حاكم إحدى المدن الذي بعثه «تاودسيوس» و«أنسطاسيوس» القائدان اللذان هربا إلى حصن بابليون بعد واقعة قتل يوحنا ورميه في البحر، ومن هناك «أرسل لونديوس الحاكم إلى مدينة بويط، وكان هو بدين الجسم ليست به قوة. لا يعرف شأن الحرب،

(١) المصدر السابق.

وعندما وصل وجد جنود مصر وتيودور يقاتلون الإسلام... وأخذ نصف الجنود وسار إلى بابلين ليخبر السادة»^(١).

وهكذا يختبئ القادة في الحصن ويبعثون برجل بدين مترهل، لا شأن له بالحرب، وحينما يصل متأخرًا إلى ميدان المعركة ينظر إلى القتال الدائر نظرة مراقب خارجي، ويأخذ نصف الجنود إلى الحصن - فهل كانوا هاريين ويريدون الاحتماء بالحصن - ويترك «تيودور» في المواجهة مع النصف الآخر ويعود في هدوء.

أسقوطاوس

يذكر النقيوسي أن عمرو بن العاص وجيش المسلمين بعد أن فتحوا مدينة نقيوس، ساروا إلى أماكن أخرى حولها ونهبوها وقتلوا كل من فيها حتى وصلوا إلى مدينة قصا فوجدوا «أسقوطاوس» هذا «ومن معه موجودين في ساحة الخمر، فقبض عليهم المسلمون وقتلوهم»^(٢). كما ذكر أنهم كانوا يمتنون بصلة قرابة إلى «تيودور» الحاكم الروماني.

ميناس الروماني

عينه الإمبراطور هرقل، قبل الاجتياح العربي لمصر، حاكمًا على الوجه البحري، ويبدو أنه كان حاكمًا ظالمًا ويفوق غيره في التعسف ضد الشعب المصري، حيث يصفه النقيوسي بأنه: «كان عنيد القلب بما لا تعرفه الكتب، يكره المصريين جدًا»، وما لبث غير زمن قصير في منصبه الروماني حتى استولى العرب على مصر.

واتبع عمرو بن العاص سياسة الإبقاء على بعض الرومان في مناصبهم لضمان استمرار نظام جباية الضرائب وجمع الأموال. واختار عمرو بن العاص «ميناس» قاضي القلب «بما لا تعرفه الكتب» ليستمر في منصبه، رغم ما عرف عنه من ضراوة وشراسة ضد المصريين، وربما كان هذا سبب اختياره. كما عين رجلًا لا يقل عنه شدة، ويدعى «سينودا»، عينه في بلاد الريف. أما «فيليكانوس» فقد عينه في مدينة

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

أرجاديا التي هي الفيوم. «وهؤلاء ثلاثتهم يحبون الوثنيين»، أي يحبون العرب، بينما «يكرهون المسيحيين - أي القبط المصريين - ويضطرونهم أن يحملوا العلف للحيوان، ويضطرونهم لحمل اللبن والعسل والفاكهة والكرات، وبأعمال أخرى كثيرة وهذا كله كان مضافاً إلى الطعام»^(١).

ولم يكتفِ ميناَس الروماني بمقدار الضرائب التي يجبيها لعمر بن العاص وللعرب - وكانت ثقيلة بما يكفي، ومقدارها ٣٢٧٥٠ (اثنان وثلاثون ألفاً وسبعمائة وخمسون) ديناراً ذهباً على المدينة - وكان غليظاً قاسي القلب على الناس حتى لم يستطيعوا أن يسددوا المقدار المفروض عليهم، وكانوا يتنازلون عن أولادهم لقاء تسديد جزء من هذه الضرائب.

وحينما زادت شكوى الناس منه إلى الحد الذي يهدد بحدوث عصيان، وتوقف عن تسديد الضرائب كلياً، عزله عمرو بن العاص، وعين رومانياً آخر ويدعى «يوحنا الدمياطي» الذي كان يظهر الشفقة والحزن على الفقراء «وكان يبكي ألماً لما أصابهم»، إلا أن دموعه لم تمنعه من التعاون مع «تيودور»، الحاكم العسكري من قبل، وعمرو بن العاص من بعد، وهما رأس حربة الجيوش المستنزفة للشعب، مرة من قبل الدولة الرومانية، ومرة من قبل الدولة الإسلامية.

(١) المصدر السابق.

صوت قبطني آخر

بعد حوالي أربعة قرون من أحداث الفتح العربي لمصر، ومن كتابة يوحنا النقيوسي لمخطوطته سابقة الذكر، كتب ساويروس بن المقفع أسقف الأشمونين كتاب «تاريخ البطارقة» وهو تجميع لسير آباء الكنيسة المصرية من مارمرقس حتى تاريخ عصره في القرن العاشر الميلادي.

وساويروس صوت رسمي للكنيسة المصرية، وفي حياته السابقة على الرهبة ودخول سلك البطيركية، كان يعيش في الأوساط الرسمية لبلاط الخليفة المسلم، وحياته - كما يؤرخها من جاء بعده - بدأت في القرن العاشر الميلادي بين سنتي ٩٠٥-٩١٠م، وتربى تربية دينية، والتحق بوظيفة كاتب في بلاط الدولة الإخشيدية، حتى أصبح كاتباً ماهراً في ديوان الخليفة، مما يدل على أنه كان متضلعا في اللغة العربية، ملما بأداب عصره وأسرار الكتابة وفنونها، وعُرف في هذا الوقت باسم أبي البشر بن المقفع الكاتب، وعرف أبوه باسم المقفع، أي المنكس الرأس أبداً، أو «من كانت يده متشنجة»، فعرف هو باسم ابن المقفع، ولقب أبي البشر الذي حمله لم يكن يعني أن أباه سماه بشراً، وإنما يدل على أنه كان شخصاً محترماً ذا مكانة عالية، إذ لم يُكنَّ «أهل مصر المسيحيين بأبي فلان إلا إذا كانوا ذوي قدر وعلو شأن».

ولأسباب غير معروفة ترك أبو البشر بن المقفع وظيفته وكل ما يتعلق بالحياة الدنيوية وترهب في أحد الأديرة في البرية، «ولما كان ذا علم وفضل ذاع صيته بين المسيحيين فاختره أراخنة الشعب - أي قاده - والبطيريك «كليسام» أسقفاً على مدينة الأشمونين، وكانت يومئذ مدينة عظيمة لها شهرة في التاريخ المصري، وهي

الآن قرية بمركز ملوي - مديرية أسيوط، فغير اسمه وعرف بأبنا ساويروس»^(١). وكان ساويروس محباً للكتابة، له مؤلفات عديدة يجادل فيها أصحاب المذاهب والأديان الأخرى لإثبات صحة العقيدة القبطية.

وقد جمع ما توافر في الأديرة من سير الآباء المصريين، أو كما يقول هو في مقدمة كتابه: «استعنت بمن أعلم استحقاقهم من الإخوة المسيحيين وسألتهم مساعدتي على نقل ما وجدناه منها بالقلم القبطي واليوناني إلى القلم العربي الذي هو معروف عند أهل هذا الزمان بإقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطي واليوناني من أكثرهم»^(٢).

فجمع تلك السير من الديور المختلفة، وعمل على ترجمتها وصياغتها من جديد، فجاء كتابه في أربعة أجزاء، يعيننا منها الآن الجزء الأول الممتد من مارمرقس وحتى البابا يوساب، الأب رقم ٥٢ للكنيسة.

وحينما يكتب ساويروس عن تلك الفترة، فإنه ينظر إلى أحداث القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي من مسافة بعيدة نسبياً، فيرى الصورة الإجمالية لتلك السنوات، وقد سقطت منها تفاصيل الأحداث وبعض صور المذابح ورائحة المحارق، ووقع سياط السخرة أثناء حفر خليج تراجان، أو قناة أمير المؤمنين كما سُميت بعد ذلك، وتلاشت صور جمع العبيد وشحنهم إلى مكة والمدينة، وبقيت لديه صورة عامة مختصرة تتلخص في سطرين:

«بعد قتالهم ثلاث دفعات غلب المسلمون الروم فلما رأى رؤساء المدينة هذه الأمور مضوا إلى عمرو وأخذوا أماناً على المدينة لئلا تنهب»^(٣).

ويبدأ ساويروس في الإفاضة، حينما يصل إلى نقطة إدراك عمرو لأهمية رجال الكنيسة الأرثوذكسية ورجال الإكليروس، وندائه الموجه إلى البابا بعودته إلى بيعه أماناً أينما كان.

وبعد عودة البابا بنيامين أكرمه وقال لأصحابه وخواصه: إن في جميع الكور

(١) ساويروس بن المقفع، كتاب مصباح العقل، ساويروس بن المقفع: حياته.

(٢) ساويروس بن المقفع، تاريخ البطارقة، الجزء الأول، ص ٩.

(٣) المصدر السابق، ص ١٠٦.

التي ملكناها إلى الآن ما رأيت رجل الله يشبه هذا - وكان الأب بنيامين حسن المنظر جدًا جيد الكلام بسكون ووقار - ثم التفت عمرو إليه وقال له: «جميع بيعك ورجالك اضبطهم ودبر أحوالهم، وإذا أنت صليت عليّ حتى أمضي إلى المغرب والخمس مدن وأملكها مثل مصر وأعود إليك سالمًا بسرعة، فعلت لك كل ما تطلبه مني، فدعا له القديس بنيامين وأورد له كلامًا حسنًا أعجبه هو والحاضرين عنده، فيه وعظ وريح كثير لمن يسمعه وأوحى إليه بأشياء وانصرف من عنده مكرمًا مبعجلًا، وكل ما قاله الأب الطوباني للأمير عمرو بن العاص وجده صحيحًا لم يسقط منه حرف واحد»^(١).

وكان ذلك بداية التعاون المزدوج بين الكنيسة التي أوحى بطريقها إلى القائد العربي بأشياء، وعمرو الذي طلب منه أن يصلي من أجله حتى يفتح المدن الخمس ويعود، تلك المدن التي استخدمت فيها المراكب المصرية، وسخر للعمل فيها البحارة الأقباط، وقد أتى هذا التعاون المرحلي بينهما على أرضية إحراق عمرو بن العاص لبيع الأقباط وكنائسهم بعد دخوله الإسكندرية، ومنها حرق كنيسة مار مرقس التي سيسمح لهم بإعادة بنائها بعد ذلك نظير تعاونهم معه.

وساويروس يسند إلى شخص «الدياقون بطرس» - الذي أشار إليه النقيوسي في مخطوطته - أنه لعب دور المتعاون مع العرب، وقدم لهم المراكب وكل ما يحتاجونه لإتمام عملية الفتح والانطلاق غربًا، لقاء مساهمته في عودة البابا بنيامين إلى منصبه الرسمي.

وفي الوقت نفسه الذي كان البابا يصلي فيه لأجل عمرو ويوحى إليه بأشياء، كان عمرو يسوق المصريين لتجهيز مراكب غزو شمال إفريقيا.

واهتمام ساويروس بن المقفع لا ينصب على ذكر المواقع الحربية بقدر اهتمامه بتسجيل كل ما يخص الكنيسة القبطية ورجالها. ولقد أدرك عمرو بن العاص، بدهائه السياسي، أهمية تحييد الكنيسة القبطية، ومنحها بعض الامتيازات

(١) المصدر السابق، ص ١٠٧.

الخاصة، لأنها الجهة الرسمية الطافية على سطح الشعب القبطي، فبدأت تحت تلك المظلة: «عمارة ديارات وادي هيبب والمنى وكانت أعمال الأرثوذكسين الصالحة تنمو وكانت الشعوب فرحين مثل العجول الصغار إذا حل رباطهم وأطلقوا على لبنان أمهاتهم. فلما عاد عمرو إلى مصر خرج منها إلى معونة كبيرهم - يقصد الخليفة عثمان بن عفان في المدينة - وأنفذ إلى مصر عَوْضَهُ رجلٌ يسمى عبد الله بن سعد»^(١).

لكن عبد الله بن سعد بن أبي سرح يختلف عن عمرو في أنه لم يراعِ الاستثناءات السياسية، ولم يرفق بأحد حتى ولو بهدف تسكين جانب على حساب جانب، فاشتد مع الكنيسة واشتد مع الشعب القبطي، واشتد حتى مع جنوده العرب من ذوي الأصول اليمنية، ولم يكن مهتمًا سوى بجمع الأموال وشحنها إلى الخليفة، وزاد خراج مصر في عهده زيادة كبيرة، ويعلق ساويرس على هذا الوضع بقوله:

وصل - يقصد عبد الله بن سعد - ومعه خلق كثيرون، وكان مجبًا للمال، فجمع له بمصر أهرا وهو أول من بنى الديوان بمصر، وأن يستخرج فيه جميع خراج الكورة وحدث في أيامه غلاء عظيم لم يحدث مثله من زمان «أقلوديس» الملك الكافر وإلى أيامه، وانحدر كل من في الصعيد إلى الريف في طلب الغلة، وكان الموتى مطروحين في الشوارع والأسواق مثل السمك الذي يرميه الماء على البر لا يجدون من يدفنهم، وأكلوا بعضهم بعضًا ولو لم يترأف الرب بكثرة رحمته وصلاة أبنينا بنيامين القديس، ليزول ذلك الغلاء بسرعة، كان قد فني كل من في كورة مصر، لأنه كان يموت كل يوم من الناس ربوات لا يحصى^(٢).

ولم يدم الحال لابن أبي سرح الذي كان له خمس الخمس من الغنائم، بخلاف ما جمعه من أموال مصر، وكانت أحداث الفتنة الكبرى ثم عودة عمرو بن العاص مرة أخرى إلى ولاية مصر، وعادت معه علاقة مراعاة الكنيسة المصرية ورجالها. وبعد وفاة عمرو بن العاص وتولي مسلمة بن مخلد في مدة ولايته الطويلة التي استمرت خمس عشرة سنة وأربعة أشهر من ٤٧هـ إلى ٦٢هـ، يحكي ساويرس

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

واقعة حدثت في زمنه، وملخصها أنه «جمع سبعة أساقفة وأنفذهم إلى سخا بسبب قوم على أنهم كانوا يحرقون بالنار من القوم المستخدمين ليكشفوا عن جريرتهم، فوصلوا واجتمعوا بإنسان أرخن بسخا اسمه إسحق وسددوا مالهم وأعفوا من الحريق»^(١).

ولو حاولنا فك طلاسم حكاية ساويروس فسنجد أن مسلمة بن مخلد قد استعان برجال الكنيسة المصرية لحل الأزمة المتصاعدة في سخا - وهي إحدى المدن التي أمر عمرو بن العاص بحرقها أثناء الفتح بسبب مقاومتها - ويبدو أن السلطات العربية التي استمرت في سخا كانت تستخدم أسلوب إحراق المتمردين، أو الرافضين لدفع الضرائب، حتى لا تتصاعد المقاومة في منطقة لها مثل هذا التاريخ، وجملة «سددوا مالهم وأعفوا من الحريق» التي يذكرها ساويروس تؤكد أن هؤلاء القبط لم يدفعوا ضرائبهم أو حمولهم لسبب أو لآخر، ومن ثم حكم عليهم القائمون بالأمر بالحرق، وأن المنطقة كانت على شفا الثورة نتيجة لهذه الأحكام القاسية.

لكن رجال الكنيسة الموفدين من عند الوالي استطاعوا بعد اجتماعهم بالأرخن المحلي إقناعه بتسديد الضرائب بدلاً من هؤلاء البائسين وتهدة الموقف. وبعد نجاح مهمتهم عادوا إلى مسلمة بن مخلد ينبئونه بنجاح مهمتهم في تسكين ثورة الشعب القبطي، فكافأهم بالموافقة على بناء الكنيسة. وربما هداً الموقف في سخا بعض الوقت، ولكن ليس إلى الأبد، فسوف تتجدد الاضطرابات مرة أخرى زمن قرّة بن شريك، عام ٩٠ هـ، وكان قرّة محباً لجمع المال «نهب جميع مال البيعة حتى الكاسات اللاتي يرفع فيهن الدم الزكي»^(٢) مما اضطر الكنيسة إلى استخدام كاسات من الزجاج بدلاً من كاسات الذهب والفضة التي نهبها، كما كان يستولي على أموال رجال الكنيسة القبطية بعد وفاتهم، مما يعد كسرًا لقانون الكنيسة المعمول به منذ زمان طويل، والقاضي بأن الكنيسة هي وارثة رجالها. «كما زاد مقدار الضرائب المفروضة على الناس،

(١) المصدر السابق، ص ١٢١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٥.

وكان القبط يفرون من القرى بنسائهم وأولادهم من قسوة رجال قره، وولى قره رجلاً من مدينة سخا يبدو أنه كان مشهوراً بالشدة لأنه كلفه بجمع القبط الهاربين من قراهم^(١).

ولم ينقذ مصر من هذا الظلم الفادح سوى وفاة قره بن شريك بعد أن قتل الوباء نساء وغلمان، ثم أصابه هو الآخر وأودى بحياته.

وشدة هجوم ساويروس بن المقفع على قره بن شريك لا تنبع من قسوة هذا الوالي على الشعب فقط، وإنما تعود إلى قسوته على رجال الكنيسة واستيلائه على أموالهم، كما رأينا في الفقرة السابقة. ذلك أن ولاية مصر التالين لم يتحلوا بنفس الذكاء السياسي الذي تحلى به عمرو بن العاص ومسلمة بن مخلد اللذان أعطيا الكنيسة بعض المميزات بعد أن أدركا طبيعة العلاقة بين الكنيسة والشعب من جهة، والكنيسة والسلطة الحاكمة من الجهة الأخرى.

أما هؤلاء الذين كان يبلغ بهم العسف حد البطش فكانت التمردات تتسع في عصورهم، وسنلاحظ تصاعد ثورة القبط على الولاة العرب التي تزداد منذ ١٠٧هـ، وتتصاعد في سلسلة من التمرد والقمع يسجلها ساويروس بقوله:

من بعد موت قره أنفذ الوليد عوضه إلى مصر والياً اسمه أسامة، فلما وصل الفسطاط التمس علام جميع الكور وكتبها بالعربي وكان كثير الفهم، فلما بدأ بذلك حدث غلاء عظيم لم يُسمع بمثله من الجيل الأول، ومات في ذلك الغلاء أكثر ممن مات في الوباء وأشرف جميع الأغنياء والفقراء على الموت، ثم إن رخاء عظيمًا أقبل حتى انتهى القمح إلى خمسة وعشرين إردبًا بدينار، وبعد قليل وافى أيضًا وباء فأفنى العالم ولو لم يرحم الرب من بقي منهم على الأرض لم يبقَ منهم أحد، وكان الأمير مقيمًا على فعله السوء وكل المسلمين والنصارى خائفون منه، ثم تقدم ألا يؤوى أحد غريبًا في البيع ولا الفنادق ولا في السواحل، وكانوا خائفين منه وطردوا من كان عندهم من الغرباء، وتقدم إلى الرهبان أن لا يرهبوا من يأتي إليهم، ثم أحصى الرهبان ووسمهم كل واحد منهم بحلقة حديد في يده اليسرى ليُعرف، ووسم كل واحد باسم بيعته

(١) المصدر السابق.

وديره بغير صليب بتاريخ مملكة الإسلام وكان في سنة ست وتسعين للهجرة قلق على الرهبان وضيق على المؤمنين، وإذا ظهروا بهارب أو غير موسوم قدموه إلى الأمير فيأمر بقطع أحد أعضائه، ويبقى أعرج، ولم يكن يحصي عدد من شوه به على هذه القضية وحلق لحى كثير وقتل جماعة وقلع أعين جماعة بغير رحمة، وكان يقتل جماعة تحت العقوبة بالسياط، وكان من محبته للدنانير يأمر الولاة أن يقتلوا الناس ويحضروا إليه مالهم ويكتبهم ويقول سلمت لكم أنفس الناس فتحملوا ما تقدرون عليه من أساقفة ورهبان أو بيع أو كل الناس فاحملوا القماش والمال والبهائم وكل ما تجدونه لهم ولا تراعوا أحدًا، وأي موضع نزلتموه فانهبوه، كانوا يخربون المواضع ويقلعون العمود والأخشاب، ويبيعون ما يساوي عشرة دنانير بدينار، والنيبذ أربعين مطرًا بدينار، والزيت مائة قسط بدينار، وكل من معه شيء يخاف عليه أن يظهره لثلاث يعاقب، ومن الضيق والظنك هم الناس يبيع أولادهم وإذا أعلموا الأمير بهذا لم يرق قلبه ولا يرحم بل يزيد^(١).

وتشدد الوالي في عمل سجل لكل إنسان يكتب فيه اسمه وموطنه وعمله، ومقدار الضريبة المفروضة عليه، ثم لا يسمح لأي إنسان بالتحرك من موضع إلى آخر إلا بعد إظهار سجله، وفعل نفس الشيء مع المراكب ومن لا يدفع «تنهب المراكب وما فيها وتضرب بالنار»^(٢).

وقبض في زمنه على عدد كبير من الروم وأدار فيهم القتل وتقطيع الأطراف مما كان له أسوأ الأثر على حركة التجارة الداخلية والخارجية «فانقطع الطريق ولم يبق من يسافر ولا يبيع ولا يشتري، وثمرات الكروم تلتف ولم يبق من يشتريها بدرهم واحد لأجل قيام أربابها عند داره شهرين ينتظرون السجل بالإفراج عنهم»^(٣).
ووسط هذه المسلخة العامة التي لم ترحم قبطيًا سواء أكان تابعًا للكنيسة أم غير تابع، من رجالها الرسميين أم من عامة الشعب، يحكي ساويرس قصة أرملة قبطية أخرجت بعد وفاة زوجها سجلًا لها ولولدها اليتيم حتى يتمكن من العمل

(١) المصدر السابق، ص ١٤٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٧.

(٣) المصدر السابق، ص ١٤٨.

فتعيش من أجر عمله، وفي رحلة البحث خرجت به من الإسكندرية إلى مدينة صغيرة تسمى أغراوة وهناك «خرج الصبي إلى البحر يشرب ماء فخطفه التمساح والسجل مربوط معه، وأمه تبكي وتحترق عليه فرجعت إلى الإسكندرية فأعلمت الأمير غير المؤمن ما جرى عليها فلم يترأف عليها بل اعتقلها حتى وزنت عشرة دنانير بسبب السجل، وأنها دخلت المدينة بغير سجل، وباعت ثيابها وكل ما لها وطاقات تتصدق حتى أوفت العشرة دنانير»^(١).

أما الرهبان الذين وجدهم بغير حلق في أيديهم «فمنهم من ضربت رقبتهم ومنهم من مات تحت السياط» وأغلق البيعة طالباً ألف دينار غرامة مع غرامة دينار عن كل راهب. وهددهم إن لم يدفعوا هدم البيع وخربها وسرح الرهبان للعمل في مراكب الأسطول مما أقلق شيوخ الرهبان، فصاروا يجتمعون بأعداد كبيرة للصلاة والتضرع.

وظل الوضع على ما سويته السابقة حتى عزل هذا الوالي بأمر الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز وقبض الوالي الجديد على «أسامة البائس» وقيد رجله بربطهما في طوبة حديد ووضع يديه في خشبة ورماه في سجن مظلم بالإسكندرية، وما كاد الناس يفرحون بتلك الإجراءات حتى بدأت الإجراءات الصارمة للخليفة الذي أمر بعزل جميع الأقباط من دوائر العمل بالدواوين، كما أمر بأن تفرض جزية من أسلم على بقية الأقباط الذين لم يسلموا، وبذلك تزداد نسبة أعباء الضرائب على الأقباط بينما يحاول الخليفة أن يبدو متسامحاً.

وهذا السلوك المزدوج من الخليفة عمر بن عبد العزيز جعل ساويرس يشبهه بالدجال ويفرح بسرعة هلاكه، وكانت الإجراءات ذات الطابع المضطهد للأقباط في تزايد مستمر.

وجاءت أول قرارات الخليفة التالي لعمر بن عبد العزيز أشد جهامة أيضاً، حيث أمر بعودة الضرائب على الكنائس والبيع وأمر «بكسر كل الصلبان وكشط الصور التي في البيع»^(٢).

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٩.

ثم جاء الخليفة هشام بن عبد الملك فأظهر تسامحه مع الكنيسة، لكنه سرعان ما عين واليًا شديد القسوة، يذكر ساويروس بن المقفع أن اسمه عبيد الله، وأنه «أحصى الناس والبهائم وأحصى الأراضي حتى البور منها، وختم بختم الرصاص في حلق كل الناس، وجعل علامة الأسد على أيدي النصارى، ومن ليس على يده علامة تقطع يده ويخسر خسارة عظيمة»، كما ضاعف الخراج على الناس حتى هلكوا.

وقبض على بطريك النصارى حتى يختمه هو الآخر، ويذكر ساويروس أن البطريك ظل يصلي في محبسه ثلاثة أيام حتى يموت قبل أن يتمكن الوالي من وسمه، وأن الله استجاب دعاءه ولم يمكن أعداءه منه، بينما تمكن رجال الوالي من راهب آخر كان بصحبة البطريك «فنزعوا عنه ثوبه وألبسوه مسخ شعر وعلقوه بذراعيه وهو عريان، وجميع الشعب ينظرونه وهم يضربونه بسياط من جلد حتى جرى دمه على الأرض»^(١).

ويسترسل ساويروس في ذكر المصائب التي حلت بأقباط مصر على أيدي هؤلاء الولاة بما يفوق تعذيب الرومان للربان في فترة الشدة العظمى، وفرضهم الضرائب على رهبان ورجال الكنيسة مما لم يكن مسبقاً أبداً في العهود السابقة.

وقد تمكن الوالي عبد الملك بن مروان ١٣٢ هـ من القبض على الأنبا خائيل، بطريك الكنيسة المصرية، وعدد من الأساقفة، وسجنهم - كما يقول أحدهم - «في خزانة مظلمة لا تنظر منها الشمس وليس فيها طاق، لأنها كانت نقرت في حجر، وكان أبونا البطريرك تحت ضيق عظيم من التكبيل بالحديد من الحادي عشر من توت إلى الثاني عشر من بابة، لم ينظر في هذه المدة شمسًا، وكان في الاعتقال معه ثلاثمائة رجل، ونساء أيضًا معتقلات في ضيق أكثر من الرجال والحزن والبكاء والضيق العظيم عند انقضاء النهار، ويغلق المتولي السجن علينا ويمضي ولا يعود إلى سابع ساعة من النهار»^(٢).

وظل الأنبا خائيل ورجاله محبوسين في تلك المغارة الجبلية الموحشة مع

(١) المصدر السابق، ص ١٥١.

(٢) المصدر السابق، ص ١٧٧.

ما يقرب من ثلاثمائة بئس وبائسة حوالي سبعة عشر يومًا حتى أمر الوالي بإحضارهم وطالب البطريك بسداد الضرائب قائلاً له:

بيعت كلها بغير خراج، وأنا مطالبك عنها بما يجب عليها، وضيق عليه، فقال له: إذا كان هكذا ائذن لي أن أمضي إلى الصعيد مهما دفعوا لي النصارى وساعدوني به أحضرته لك، فأطلقه وخرجنا - كما يقول أحدهم - من عنده وشرنا إلى الصعيد^(١).

وهكذا أطلق الوالي بطريك الكنيسة المصرية ليشحذ له من شعبه، وجمع البطريك من شعبه الفقير ما استطاع جمعه، وعاد إلى الوالي الذي أخذ ما تصدق به النصارى على البطريك ثم أطلقه.

ثم تتالت أحداث سقوط الدولة الأموية سريعة مدوية، بكل ما صاحبها من انهيار وتخبط وشره إلى النهب السريع، وأمام زحف العباسيين من الشرق هرب الخليفة مروان بن محمد إلى مصر، بعد أن أشعل النار في جميع المدن والقرى التي تركها خلفه.

ووصل إلى مصر أثناء ثورة البشموريين بقيادة مينا بن بقيقة وثورة أهل شبرا سنباط، وفشلت حملات الوالي العسكرية في تسكين الثورة وإخضاعهم عدة مرات، ففكر الوالي في استخدام الأنبا خائيل لتسكين الشعب القبطي الثائر، الأمر الذي سيتكرر بعد ذلك في ثورة البشموريين الثانية تحت مظلة الخلافة العباسية وفي عهد الخليفة المأمون الذي اضطر إلى أن يأتي مصر بنفسه ليقود حملة القضاء على البشموريين بعد أن فشلت جهود واليه في القضاء عليهم، وسوف يستخدم المأمون رجال الكنيسة في تهدئة الثورة. هذا وقد قبلت الكنيسة - غير مرة - القيام بدور الوسيط لتهدئة روح الثورة العارمة، وكتب الأنبا يوساب لشعب البشموريين يعظهم: «قال لسان العطر بولس كل من يقاوم السلطان فهو يقاوم حدود الله، والذي يقاومه يدان»^(٢)، فيعلن بذلك أن معصية الحاكم من معصية الله مطالباً شعبه بالخضوع للخليفة المسلم.

(١) المصدر السابق، ص ١٧٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٦٨.

أما في حالة مروان بن محمد - آخر خلفاء بني أمية - فقد جاء مصر ووجدها في حالة اضطراب وفوضى من جراء سياسته وسياسة واليه؛ «فالسجون كانت غاصة بالقبط الذين سقطوا أسرى بعد مقتل يؤنس السمنودي»، وقد رأى البشموريين أن يقوموا بحرب العصابات بدلاً من الحرب النظامية ليستطيعوا أن يفتوا عضد الوالي. وكان رئيس البشموريين واحداً منهم اسمه مينا بن بقيقة. فكان يخرج هو ورجاله ليلاً يقتلون وينهبون ويشيعون الفرع بين الجند المرابطين في حدود مديرتهم. ثم يختبئون في النهار متحصنين خلف الترع والمستنقعات التي تكتنف أراضيهم والتي لا يعرف مخاضاتها غيرهم^(١).

وقد رأى مروان مفاوضة البشموريين بإزاء حرج موقفه من القوات الموالية لأبي العباس، لكنهم رفضوا المفاوضة وأصرروا على القتال. وزاد الموقف اشتعاً لعصيان والي الإسكندرية، وإعلانه الاستقلال بحكم المدينة، «فضاق مروان ذرعاً بهذه النيران المشتعلة حوله من كل جانب، ولم يجد بُداً من إرسال حوثة، أكثر قواده بطشاً، لقمع الثورة في الإسكندرية فقهر حوثة الجيش السكندري وفك بالأهالي فتكاً ذريعاً. وفي ثورة غضبه ألقى القبض على الأنبا خائيل وزعماء القبط»^(٢).

وبعد وضعهم في السجن طلب حوثة من البابا التدخل لتهدئة ثورة البشموريين «فك قيوده واقطعه إلى رشيد ومن هناك استكتب البابا السكندري خطاباً إلى البشموريين» وأخبرهم فيه بكل ما أصابه من آلام، وحمل الثائرين وزر عذابه ولاهمهم على تماديهم في العدوان. وحينما قرأ الثوار خطاب البابا اشتد غضبهم وضاعفوا هجماتهم على جنود الوالي.

وفي الوقت نفسه الذي كانت الأزمة تشتد فيه حول الخليفة الأموي وتحاصره من كل جانب، دفعه اليأس والرغبة في الانتقام إلى حرق مدينة الفسطاط، ويصف ساويرس مشهد فرع الناس وهربهم قبل الحريق بقوله:

وما إن أخذ عازف البوق يعلن أهالي الفسطاط بوجوب إخلاء المدينة،

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩١.

حتى تملكهم الفزع. فخرجت جموعهم على غير هدى متجهة نحو
الجيزة والجزيرة. وكانوا يتزاحمون على المراكب الراسية على شاطئ
النيل ويتدافعون بغير وعي، فغرق العدد العديد منهم، كذلك تناسى الناس
في رعبهم المرضى والمقعدين والمكفوفين فتركوهم لمصيرهم. وحين
تفقد مروان الفسطاط بعد الأيام الثلاثة التي حددها لم يجد غير هؤلاء
العاجزين فلم يشفق عليهم، بل أمر بإشعال النار في المدينة وهم فيها.
فراحوا جميعاً ضحية اللهب المتقد، ونظرنا النار صاعدة في الفسطاط
وأخبرونا أن مروان أحرق مخازن غلة وقطن وتين ومخازن الشعير^(١).

تلك المحاصيل التي جمعت من الفلاحين الأقباط بالقهر والعنف، يشعل فيها
ابن محمد النيران الآن حتى لا تقع في أيدي أعدائه من المسودة - يقصد العباسيين
ذوي الرداء الأسود - القادمين لحكم مصر تحت مظلة الدولة العباسية.
وأكلت النار مدينة الفسطاط التي بناها العرب عام ٢٠هـ، وأحرقها العرب أيضاً
عام ١٣٢هـ.

وكان أسلوب الحرق والتدمير هو الأسلوب الشائع في تأديب الأقباط
المصريين، ولنا أن نقيس على ما يذكره المؤرخون عن مدينة طحا في
الصعيد، التي كان يسكنها «في صدر الإسلام خمسة عشر ألف نفس، وكلهم
من المسيحيين، وبها ست وثلاثون كنيسة أغلبها تهدم في العهد الأموي،
وخاصة في خلافة مروان، لرفض أهلها دفع الخراج فطردهم عامله ولم يعد
منها إلا كنيسة مار مينا»^(٢).

وإذا كان نصيب مدينة واحدة تدمير خمس وثلاثين كنيسة، وتشتيت أهلها،
بخلاف تدمير البيوت وأراضي الممتنعين عن دفع الخراج، فكيف كان نصيب
المدن الأخرى المتمسكة براية المقاومة زمناً طويلاً.

(١) المصدر السابق.

(٢) زبيدة عطا، إقليم المنيا في العصر البيزنطي: في ضوء أوراق البردي، نقلاً عن الكتاب المنسوب إلى
أبو صالح الأرميني، الكنائس والأديرة في مصر.

الوقائع المشتركة بين مؤرخي القبط والمؤرخين العرب

إزاء وقائع النقيوسي وساويروس بن المقفع الصارخة، وتفصيلهما الحادة عن الفتح العربي لمصر، يتجاهلها الكثير من الباحثين وينحيانها جانباً بدعوى أنهما قبطيان متحاملان على العرب، وبالتالي لا يصح الأخذ بشهادتهما، فظلاً لقرون طويلة يسكنان وادي الصمت المطبق - مع كل الأصوات المنفية - جزاءً لهما على مخالفتهما للنشيد العام، حتى جاء بعض الباحثين المحدثين واستدعوهما واستشهدوا بهما ولكن بعد تقطيعهما وتقديمهما على طبق الموضوعية المعد بإحكام وقوة بما يوافق ذات السياق الثابت لصيغة التسامح المطلق غير القابل للشك.

وأمام هذا الإصرار العام على تجاهل، أو تقطيع الصوت القبطي، والتعامل معه كما لو كان مجرد كورس موقعه في الخلفية فقط، حيث وضعه الفتح العربي، سنخضع - نحن أيضًا - لذات قوانين السيادة وننحي الصوت القبطي جانباً، ونعود إلى التعامل مع البطل «التاريخ العربي» مرة أخرى، ستركه يسترسل في ذكر بطولاته عن قهر الجيران والاستيلاء على ممالكهم. ولكن ما بال تلك المقاطع الصغيرة القلقة تقطع السياق العام، وتشير إلى نفس وقائع النقيوسي وساويروس؟! ما بال الطبري والبلاذري والسيوطي والمقرئزي يذكرون - أحياناً - ما يتفق مع الصوتين القبطيين؟

صحيح إنها إشارات عارضة، ولكن اختلاف المواقع هو الذي يؤدي إلى تحديد الرئيسي منها والثانوي لدى كل من الطرفين، ونحن لا نستطيع الحديث

عن التسامح العربي بضمير هادئ، والطبري يذكرنا بأن الجيش العربي الفاتح قد أسر أعدادًا كبيرة من المصريين، أو أن صفوف العبيد من القبط امتدت من مصر إلى المدينة، فينقل عن رجل من أهل مصر - أو بمعنى أصح من عربي سكن أرض مصر، وكان في جند عمرو بن العاص أثناء الفتح - أنه قال: «لما افتتحنا باب اليون تدنينا قرى الريف فيما بيننا وبين الإسكندرية قرية فقيرة، حتى انتهينا إلى بلهيب - وهي منية الزناطرة بالبحيرة، ومحلها اليوم فزارة بمركز المحمودية - قرية من قرى الريف يقال لها قرية الريش، وقد بلغت سبانيانا المدينة ومكة واليمن»^(١).

وتنقل لنا هذه الرواية صورة الصفوف الطويلة من العبيد والجواري الذين انتزعهم الجيش العربي من قراهم وبعث بهم في ذلة وانكسار إلى مدن الجزيرة العربية بعد فقدان حريتهم.

والبلاذري أيضًا في كتاب «فتوح البلدان» يذكر ذات الواقعة بقوله: «وكانت قرى من مصر قاتلت فسبي منهم، والقرى: بلهيت والخيس وسلطيس، فوقع سباؤهم بالمدينة»^(٢).

فما بالنا نستنكر إشارة النقيوسي إلى أن العرب: نهبوا كثيرًا من الأسلاب وأسروا النساء والأطفال وتقاسموهم فيما بينهم، ولا نستنكر إشارات الطبري والبلاذري وابن عبد الحكم إلى السبي المصري الموفد إلى المدينة في ظل القهر الحربي؟

وإشارة البلاذري وابن عبد الحكم إلى أن عمر بن الخطاب رد هؤلاء المصريين حينما «صيرهم وجماعة القبط أهل ذمة»، أو أنه طلب إيقاف وفود السبي الجديد، بينما تغاضى عمن تفرق في أيدي العرب لأنه لا يستطيع لهم ردًا، هل كانت هذه الإشارات تعني تسامح ابن الخطاب مع القبط ودفاعه عن حريتهم؟ أم كانت تعني أنه كان ينظر بعين الحاكم العملي الذي يريد ترسيخ نوع آخر من العبودية الجماعية، هي عبودية العمل وأداء الجزية ومختلف أنواع الضرائب التي تعود على بيت المال

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء الرابع، ص ١٠٥.

(٢) البلاذري، فتوح البلدان، القسم الأول، ص ٢٥٣.

بفائدة أكبر، وهو نفسه القائل: «الجزية قائمة تكون لنا ولمن بعدنا من المسلمين أحب إليّ من فيء يقسم ثم كأنه لم يكن»^(١).

إشارة أخرى نجدها لدى ابن عبد الحكم تتفق وإشارات النقيوسي إلى طبيعة الحرب في موقعة نقيوس التي اجتاحتها عمرو بن العاص، وإن كان يختلف معه في توقيت المعركة حيث يذكرها ابن عبد الحكم مع الفتح الثاني لمدينة الإسكندرية، ويرجع ابن عبد الحكم أسباب الاجتياح القاسي للمدينة: «أن عمرًا لما توجه إلى نقيوس لقتال الروم، عدل ووردان - أحد موالي عمرو - لقضاء حاجته عند الصبح فاختطفه أهل الخبرة فغيوه ففقد عمرو وسأل عنه وقفنا أثره فوجدوه في بعض دورهم فأمر بإخوابها وإخراجهم منها»^(٢).

ويستطرد ابن عبد الحكم في الرواية واصفًا أهل الخبرة: كانوا رهبانًا كلهم... ومع ذلك فقد قتلهم عمرو جميعًا وخرب المدينة خرابًا لم تشهد مثله من قبل حتى سميت بعد ذلك بالخربة.

والخلاف الناشب بين الخليفة عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص حول وضع الأقباط، خصوصًا حينما سمح ابن العاص لهم بالبقاء في وظائف جباية الخراج وحساب الضرائب إلى غيرها من الأوضاع التي لم توافق سياسة الخليفة، فكتب إلى واليه يلومه قائلاً: «كيف تعزهم وقد أذلهم الله؟»^(٣).

وكان عمر يريد استمرار عمل القبط في مصر في الزراعة والحرف، و«يؤدون الجزية عن يد وهم صاغرون» مما يعود بالخير العميم على بيت مال المسلمين، دون أن يتقلدوا أية وظائف إدارية.

والطبري يشير إلى معاناة المصريين أثناء حفر قناة أمير المؤمنين في عمل من أكبر أعمال السخرة الجماعية، وخوف عمرو بن العاص نفسه من هذا الوضع، لأن تسخير آلاف المصريين في أعمال الحفر يسبب «انكسار خراج مصر وخرابها»، ولكن حسم ابن الخطاب دفع إلى استمرار العمل في ظل تلك الظروف القاسية.

(١) الطبري، المصدر نفسه، ص ١٠٥.

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا.

حيث كتب إليه يقول: «اعمل فيه وعجل، أخرب الله مصر في عمران المدينة وصلاحيها»^(١).

ويؤكد السيوطي في كتاب «حسن المحاضرة» واقعة تسخير عمرو بن العاص للمصريين في حفر القنوات وإقامة الجسور، بالإشارة إلى أن عمراً ألف قوة من المصريين عددها مائة وعشرون ألف عامل مهمتها الأولى العمل في حفر القنوات وإقامة الجسور والقناطر^(٢).

وانتزع مائة وعشرين ألف قبطي من الأرض لتسخيرهم في تلك الأعمال القاسية تحت وقع سنابك خيول الفرسان العرب ورماحهم، هو ذات ما أشار إليه النقيوسي بقوله: «كان - عمرو - يسخرهم ليحملوا طعام أفراسهم، وارتكب آثاماً كثيرة لا تحصى»^(٣).

وقوله: «يضطرون المسيحيين أن يحملوا العلف للحيوان، ويضطرونهم لحمل اللبن والعسل والفاكهة والكرات، وبأعمال أخرى كثيرة. وهذا كله كان مضافاً إلى الطعام. هؤلاء كانوا يفعلون ذلك خوفاً دون توقف، ونهر أندريانوس الذي انطمر منذ زمن طويل - هو نفسه قناة أمير المؤمنين - جعلهم يحفرونه ليجري به الماء من بابلون بمصر حتى البحر الأحمر، وحملوا المصريون نيراً أثقل من نير فرعون»^(٤).

وموقع النقيوسي كقبطي يتحدث عما أصاب شعبه يدفعه إلى إصدار أحكام أخلاقية، وإظهار سخطه على العرب وقائدهم، كما في قوله: «ارتكب آثاماً كثيرة لا تحصى»، أو حملوا المصريين قيذاً أثقل من قيد فرعون.

ومن شدة وطأة الضرائب على الفلاحين الأقباط كانوا يهجرون القرى ويلتحق بعضهم بالأديرة المعفاة من الضرائب في سني الفتح الأولى، حتى لاحظ الولاة النهمون إلى جمع المزيد من المال ذلك، فلجأوا إلى فرض الجزية على الرهبان ورجال الكنيسة والاشتداد في ذلك، فانفجرت ثورة القبط الكبرى عام سبع ومائة،

(١) الطبري، المصدر نفسه، الجزء الرابع، ص ١٠٠.

(٢) جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، الجزء الأول.

(٣) عمر صابر، مصر في مخطوطة يوحنا النقيوسي، ص ١٩٩.

(٤) المصدر السابق.

أثناء ولاية الحر بن يوسف، تلك الفترة التي يكتب عنها ساويروس بن المقفع بالتفصيل، ويذكر أن الوالي أوقع بثوار الحوف الشرقي وأخذ أموالهم ووسم أيدي الرهبان بحلقة حديد فيها اسم الراهب وديره وتاريخه، وكتب إلى العمال بأن كل من وجد من النصارى وليس معه منشور يؤخذ منه عشرة دنانير. ويفيض ساويروس في ذكر تلك المسلخة العامة، من قطع الأطراف وضرب الأعناق، وهدم الكنائس وكسر الصلبان.

ويرصد المقرئ في كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» سلسلة ثورات القبط منذ عام ١٠٧ هـ. والمقرئ هو أكثر المؤرخين العرب اهتمامًا بوصف القبط وطريقة حياتهم وتاريخهم وكنائسهم، وذكر ثوراتهم. ويرجع بعض الباحثين ذلك إلى اطلاع المقرئ على مخطوطة ساويروس بن المقفع وتأثره ببعض ما جاء فيها.

وقد أفرد المقرئ في كتابه بابًا لكنائس مصر ودورها، وبابًا آخر تحت عنوان «ذكر انتفاض القبط وما كان من الأحداث في ذلك». فيذكر أمر زيادة الضرائب على القبط بما لا يستطيعون احتماله، وثوراتهم ضد بعض الولاة، وإسراع الولاة والخلفاء في قمع هذه الثورات بكل وسائل العنف الممكنة. فيذكر أنه لما «قدم حنظلة بن صفوان أميرًا على مصر في ولايته الثانية، فتشدد على النصارى وزاد في الخراج وأحصى الناس والبهائم وجعل على كل نصراني وسمًا، صورة أسد، وتبعهم فمن وجده بغير وسم قطع يده»، ثم في سنة إحدى وعشرين ومائة «انتقض القبط بالصعيد وحاربوا العمال... فحوربوا وقُتل كثير منهم، ثم خرج يحنس بسمنود وحارب وقُتل في الحرب، وقُتل معه قبط كثير»^(١).

ولقد زادت ثورات القبط في أواخر عهد الدولة الأموية، وكلما تقدم الزمن كانت تفصيلات الاضطهاد والتعذيب تتضح أكثر فأكثر لدى المقرئ الذي فطن إلى أن الحكام العرب كانوا يتمادون في فرض الضرائب، ليس على الشعب القبطي فقط، كما كان يفعل بعض الأوائل من دهاة السياسيين؛ بل كانوا يفرضون على الكنيسة

(١) المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، الجزء الثاني، ص ٤٩٢.

ورجالها ورهبانها إتاوات متزايدة، بل يقبضون عليهم ويعذبونهم، كما حدث زمن مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين حينما قبض على بطريرك الإسكندرية ووضع رجليه في الحديد «ونتف شعر لحيته» مما جعل موقف الكنيسة يختلف في تلك الفترات عنه في أيام المحاباة السابقة.

الفصل الثالث

معارك في كل مكان

بجوار القاعدة للشعب القاطن أرض مصر لحظة الفتح العربي، كانت هناك جماعات من الروم والحشب واليهود والفرس، بخلاف العرب القادمين على صهوات الجياد ليقيموا فيها إلى الأبد.

وكان لكل جماعة مكان محدد تعيش فيه، ولا يحق لها التزوح منه إلى مكان آخر إلا بتصريح رسمي، كما كان لكل منهم لغته وزيه وسحته العامة الدالة على مكانته الاجتماعية من النظرة الأولى. ولذلك يمكن الحديث عن جزر منعزلة وسط المحيط القبطي الواسع في ذلك الحين، وقد فرق المقريري في كتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» بين أنواع الناس القاطنين أرض مصر بقوله:

اعلم أن أرض مصر لما دخلها المسلمون كانت بأجمعها مشحونة بالنصارى، وهم على قسمين متباينين في أجناسهم وعقائدهم، أحدهما أهل الدولة وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم، ورأيهم وديانتهم بأجمعهم ديانة الملكية، وكانت عدتهم تزيد على ثلاثمائة ألف رومي، والقسم الآخر عامة أهل مصر، ويقال لهم القبط، وأنسابهم مختلطة لا يكاد يتميز منهم القبطي من الحبشي من النوبي من الإسرائيلي الأصل من غيره، وكلهم يعاقبة، فمنهم كتاب المملكة، ومنهم التجار والباعة، ومنهم الأساقفة والقسوس ونحوهم، ومنهم أهل الفلاحة والزرع، ومنهم أهل الخدمة والمهنة. وبينهم الملكية أهل الدولة من العداوة ما يمنع مناكتهم، ويوجب قتل بعضهم بعضاً، ويبلغ عددهم عشرات آلاف كثيرة جداً، فإنهم في الحقيقة أهل أرض مصر أعلاها وأسفلها.

والمقريزي يمد خطاً فاصلاً أفقياً بين الرومان كحاكمين وبين بقية الأجناس المختلطة الذين ينضمون جميعاً تحت راية القبط، فالقبطية في هذا السياق تعني الجنسية المصرية، أو الشعب الواقع تحت الحكم الروماني في أرض مصر، وقد حاول الرومان إقامة خطوط فاصلة بينهم وبين هذه الفئات الكثيرة؛ فأقاموا مدناً على الطراز الإغريقي بشوارعها العمودية المتسعة والحمامات الكابيتول والجمنازيوم والمعابد والقصور ذات الأعمدة الرخامية، ونمط العمارة الإغريقي المميز، وجعلوا سكانها من ذوي الدماء الإغريقية، مع السماح لقلّة من أغنياء المصريين بالسكن فيها كما في مدينة بطلمية ونقراطيس واكسيدنخوس (البهنسا) وأنطونيوبوليس (هيرموبوليس) وغيرها من المدن الإغريقية، وبمرور الزمن حدث الاختلاط بطيئاً بين العنصرين الروماني وأغنياء المصريين وخصوصاً بعد السماح للرومان بالزواج من المصريات، وكانت اللغة اليونانية لسان أهل هذه المدن ووسيلة ممارستهم لطقوس الحياة الثقافية في المسرح والشعر والفلسفة ومختلف علوم العصر. كما كانت اللغة الرسمية للبلاد والدواوين ومختلف شؤون الحكم. أما الكثرة الغالبة من القبط - أهل البلاد الأصليين - فكانوا يستقرون في القرى المنتشرة في أنحاء مصر، وعددها - كما جاء في «القاموس الجغرافي للبلاد المصرية» لمحمد رمزي - حوالي ٢٣٩٥ قرية، منها ١٤٣٩ قرية في الوجه البحري و٩٥٦ في الوجه القبلي.

وسكان هذه القرى من القبط الزراعين للأرض والعاملين بالحرف المختلفة والمتحدثين باللسان القبطي في نسق حضاري قبطي مختلف الملامح تماماً عن الحضارة الإغريقية التي تندرج تحتها سلاله الحكام البيزنطيين. وبعض الأقباط كانوا يسكنون المدن المختلفة الممتدة من الشمال إلى الجنوب، وينضمون تحت الطوائف الحرفية في العمل: النجارة والمعادن والسفن ومعاصر الزيوت والنبذ والمطاحن والورق وغيرها من أنواع الحرف القبطية المتقدمة. وقد لجأ عدد كبير من القبط إلى الكنيسة تحت ظروف مختلفة، فكان منهم الرهبان والقسس والآباء وخصوصاً في فترة الشدة العظمى، أو الاضطهاد الكبير الذي أوقعه الحكام البيزنطيون أصحاب العقيدة الدينية المختلفة عن عقيدة كنيسة

الإسكندرية. ويُحكى أنه خرج لعمر بن العاص من صحراء وادي هيب (وادي النظرون) سبعون ألف راهب يلبس بعضهم السواد ويتسربل آخرون بثياب رثة ويطلقون اللحى ويتكئ كبارهم على العصي بعد أن أجهلتهم حياة الرهبة في الديور البعيدة، وأنه تحدث معهم عبر الترجمة وأعطاهم الأمان. وليس من المعقول أن يجتمع سبعون ألف راهب دفعة واحدة في الصحراء، وربما خرجوا إليه على دفعات حسب أماكن تجمعاتهم التي تقابله، والرقم عمومًا يدل على ضخامة عدد الرهبان الذين لجأوا إلى الصحراء بأعداد متزايدة منذ القرن الثالث الميلادي فرارًا من اضطهاد الحكام وقسوتهم، فأسسوا بذلك نظام الرهبة ذا السمة المصرية الخالصة في الديانة المسيحية والتي أخذها عنهم مسيحيو العالم فيما بعد، وقد بث هؤلاء القبط الفارون الحياة في الصحراء البعيدة، ومناطق الواحات المتطرفة، فأصبحت مناطق جذب لمزيد من الأقباط دون أن يعودوا إلى حياتهم الأولى مرة أخرى.

وقد بلغت أعداد الرهبان في القرن الرابع الميلادي حوالي مليون راهب وراهبة، وزادت مع الاضطهاد الروماني في القرن السادس الميلادي، ولم يكن نظام الرهبة خاصًا بالرجال فقط، بل وجدت فيه النساء القبطيات خلاصًا لهن من ضيق الحياة المحيطة، وفرارًا من شتى أنواع الاضطهاد.

ويروي الأنبا شنودة الأخميمي - كما ورد في كتاب «تاريخ الرهبة والديرية في مصر وآثارهما الإنسانية على العالم»^(١) - أنه عندما كثرت أعداد العذارى الراغبات في ممارسة الحياة النسكية، أقام الأنبا شنودة ديرًا للنساء، وجعله تحت رئاسته، ووصل عدد الراهبات فيه إلى ألف وثلاثمائة راهبة، كما بلغ عدد الراهبات في ديرين من الأديرة الباخومية ٤٠٠ راهبة كن يجتمعن كل مساء للتعليم، بخلاف النسوة اللاتي كن يأتين - بعض الوقت - لتلقي علوم الدين ثم يعدن إلى حياتهن السابقة.

وفي العموم، كانت أديرة الرهبان من الرجال أو النساء، مراكز للعلم والمعرفة،

(١) رؤوف حبيب، تاريخ الرهبة والديرية في مصر وآثارهما الإنسانية على العالم.

وكان شرط معرفة القراءة والكتابة شرطاً أساسياً للقبول في الدير، فأقبل الرهبان على العلم والتعليم تحت رعاية الكنيسة صاحبة امتياز الإعفاء من شتى أنواع الضرائب ومالكة الضياع الواسعة والأراضي الزراعية التي كان يقوم بعض صغار الرهبان بزرعها، بالإضافة إلى عملهم في حرف النجارة والحدادة والخزف والنسيج وصناعة الورق، حتى أنتجت الكنيسة المصرية في ذلك الوقت سبعة أصناف من ورق البردي، كما ازدهرت تحت رعايتها فنون الزخرفة والنحت والرسم والموسيقى وعلوم الطب والكيمياء والحساب وعمارة الأديرة التي كانت تُبنى كقلاع كبيرة تحيط بها الأسوار العالية. وفي فترات غارات الجنود على الأديرة كان الرهبان يهربون إلى مناطق أبعد في الصحراء ويسكنون «القلالي» المنفردة «فخارج دير نهيا وبجواره توجد قلالي كثيرة تابعة للآباء الرهبان الذين جاءوا من دير أنبا مقار زمن بطريركية أنبا بنيامين».

ويصف أحد الرهبان الزائرين من أورشليم دير أنبا مقار بقوله: «كان الدير عبارة عن قلعة يحيط بها ألف قلاية».

وبخلاف معازل الأديرة التي يفر إليها القبط، أو يذهبون إليها بمحض اختيارهم، فينقطعون فيها عن الحياة العادية ويدخلون في سلك الرهينة، كانت القرى والمدن تشبه المعازل هي الأخرى؛ حيث يربط الفرد بموطنه الطبيعي سجل ضرائب يجب عليه الوفاء بكل التزاماته؛ وإلا تعرض لعقوبات السجن والتعذيب والغرامة المالية، وإذا ما أراد الانتقال من قرية إلى أخرى فلا يسمح له بحرية الحركة والتنقل إلا بإذن أو تصريح من مندوبي الحكم، على أن يتعهد بشهادة الضامين أن يقوم بالوفاء بجميع الالتزامات الضريبية. وبين فترة وأخرى كان المسؤولون يعلنون أن من يرغب في نقل مسؤولياته الضريبية، عليه أن يذهب إلى حامي المكان المطلوب الانتقال إليه، ويطلب منه نقل مسؤولياته الضريبية والحصول على تصريح بذلك. وكان مسؤولو المرور، أو المشرفون على المرور في المقاطعات يخطر على خطر المسؤولين عن هؤلاء المتسللين إلى مدنها دون تصريح رسمي، وغالباً ما كانت سلطات الأقاليم تسارع بإعادتهم أو عمل تصريح جديد لهم إذا أثبتوا خلوهم من الضرائب.

ونجد في خطاب من موظف كبير إلى المسؤول عن إقامة الأجانب أو المرور في الباجارية بسبب وجود أفراد من الفيوم وأشمون وقوص مقيمين في كوم شقوه، أوامر واضحة بشأن هؤلاء المتسللين: «فإذا تسلمت رسالتي فأرسل إليّ الأجانب بعناية... أرسلهم مع أسماء آبائهم وقراهم والأراضي التي أخذوها من الباجارية وأرسل بأبنائهم وزوجاتهم معهم والأموال التي أخذوها».

والفرد في ظل هذا النظام المتشدد كانت حريته شكلية، لأن أغلال الضرائب كانت تكبل قدميه بأشد من القيود الأخرى. وعملية الفرار كانت شبه مستحيلة في ظل تقسيم البلاد إلى «مراكز Pagi تقابل مراكز النظام القديم Topa ويتولى كل قسم موظف يسمى Phaepasitas ويخضع لموظف آخر يسمى Exator اختصاصاته مالية، وأصبح اللقب يطلق فيما بعد على الجابي، وفي عهد ليو (٤٥٧-٤٧٤م) ظهرت الباجاريات Pagrckia وهي تطابق الإقليم القديم وتشمل كل ما يحيط بالمدينة من القرى وما يتبعها من الأرض. فالمدينة وما يحيط بها تعتبر وحدة إدارية تخضع للباजारك الذي يخضع للوالي Praeses الذي يخضع للدوق حاكم الإقليم»^(١).

والباजारك الذي يشرف على القرى المحيطة لديه جيش وجنود عسكريون، وجيش آخر من الموظفين منهم «الجباة والمراقبون والكتاب والمساعدون والبحارة الذين ينقلون الخراج»^(٢).

ويعمل كل هذا الجيش على مراقبة الفلاح والأرض والإنتاج، ويستقطع هؤلاء الجباة لأنفسهم الأموال والمحاصيل العينية كلما سنحت الفرصة على طول سلم الوظائف التصاعدي حتى تصل الضرائب المطلوبة إلى الخزانة الرئيسية محملة بدماء الفلاحين، والإمبراطور «جستنيان» نفسه يعترف في مرسومه رقم ١٣ بأن أموال مصر تستنزف عند الجباية. وفي العموم كان نظام تحصيل الضرائب من مصر معقدًا ومحكمًا، حيث كان لكل قرية «نقابة من الملاك تعد مسؤولة قانونًا عن الضرائب وإيجار الأرض» ولكل قرية «خزانة

(١) زبيدة عطا، إقليم المنيا في العصر البيزنطي: في ضوء أوراق البردي، ص ٣٧.

(٢) المصدر السابق.

تتصل بها إدارة للحسابات لتحديد المصروفات والجبايات والموظف المسؤول عن تدوين الحساب يعرف باسم Logagraphe. ويجري إعداد قوائم بالضرائب التي أداها كل فرد مع ذكر اسمه ومقدارها ويرسلها مسؤول الخزانة بعد ذلك إلى مكتب الوالي»^(١).

ولم يكن أمام الفلاح القبطي سوى الامتثال لهذا النظام الضرائبي الصارم الذي يربطه ربطاً لا فكاك منه بالأرض والقرية، وحينما لجأ بعضهم إلى بعض الحكام العسكريين ليستجبروا بهم، أصدر الإمبراطور «قسطنطينوس» مرسوماً سنة ٣٩٥م شديد اللهجة يقول فيه:

كل من بلغت به الجرأة لضم هؤلاء الأشخاص إليه بوعد الحماية ومنعهم من أداء ما عليهم من الأعباء العامة سيضطر لدفع الأعباء التي على الفلاح من مجموع الفلاحين الذين هجروا قراهم وسيطلب إليه الدفع من دخله الشخصي، وكل من دخل تحت حمايتهم وجب رفع هذه الحماية عنه^(٢).

فلم يكن أمام الفلاح القبطي في ظل هذا الوضع إلا الامتثال لمعزل القرية، أو الانتقال لقرية أخرى «معزل آخر» وفي رقبته سجل ضرائبه لا يسقط عنه سوى بالموت، أو بالفرار إلى الرهينة.

أما المدن فكانت لها قيودها الأخرى، وينظم الحياة فيها نظام الطوائف والحرف ومسؤولو الأسواق والقائمون على منح تصاريح مزاولة التجارة ومسؤولو البريد ومحطات الدواب والمشرفون عليها، وكانت كل طائفة مغلقة على نفسها، وتخضع لتراتيبات إشرافية وضرائبية محددة، وليس من المسموح لأحد بمزاولة المهنة إلا إذا كان عضواً في الطائفة، أما الجدد فيخضعون لتدريب يستمر من سنة إلى خمس سنوات على يد أسطوات المهنة.

* * *

وبعد الفتح العربي وسيطرة العرب على مقاليد الحكم في مصر، تمسك

(١) المصدر السابق، ص ٤٦.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٣.

عمرو بن العاص بنظام تقسيم البلاد والعباد، الموروث عن الرومان، كما هو؛ فجمع مقدمي القبط وأقرهم على جباية الروم، ويقول في رسالة له إلى الخليفة إنه فتح مدينة - يقصد الإسكندرية - بها أربعون ألف يهودي عليهم الجزية، وبالطبع لم يكن هذا عدد كل اليهود القاطنين أرض مصر، وربما تركزت هذه النسبة العالية من اليهود في الإسكندرية نظرًا لاشتغالهم بالتجارة والصيرفة وغيرها من الأعمال، بالإضافة إلى أنه كان بمصر من اليهود عدد كبير لا يعمل بتجارة الأموال، وإنما وجدوا في طوائف حرفية أخرى بنسب أقل، وكانوا يعيشون في تجمعات تخصهم. وأبقى العرب على نظام العمل في الدواوين كما هو مع إحلال بعض القبط محل الروم الراحلين، واحتفظوا بالتقسيم الإداري للأقاليم والمدن والقرى، كما حافظوا على أسماء القرى المصرية كما هي، أو حرفوها قليلًا ليفهمها العربي مختلف اللسان. وذلك على العكس من الرومان الذين حاولوا أن يضعوا للقرى والمدن المصرية أسماء يونانية، وظل استخدامها مقصورًا عليهم فقط، أما الجمهور القبطي فقد ظل متمسكًا بالأسماء المصرية القديمة^(١).

كما حافظ العرب على طرق جباية الضرائب، بل وعلى أنواعها، من الضرائب العينية التي تجمع في الأهرأ أو المخازن الحكومية لمؤونة الجند. وكان المكان الذي يباشر فيه صاحب المكس مهام منصبه يسمى أم دين (مكان حديقة الأزركية الآن)، وكان هناك مركز تجاري للغلال يعرف باسم ميدان القمح أو ميدان الغلة، وكانت حمولة القمح الآتية من كل قرى مصر تفرغ في الميناء النيلي الذي كان يشغل كل ساحل المكس حتى القنطرة.

وبالإضافة إلى الضرائب العينية، كانت هناك أخرى نقدية عن المحاصيل الأخرى، وخراج الأراضي، وقانون الضيافة ثلاثة أيام للعرب الحاليين بالقرى، وقوانين ضيافة السلطان مع إضافة بند تكاليف كسوة الجند والجزية المدفوعة على الرؤوس، وغيرها. وقد حافظ عمرو على الخطوط بين جماعات الناس،

(١) لمزيد من التفاصيل، انظر: محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية.

فبنى مدينة الفسطاط لتكون مدينة عربية الطابع، وقسمها إلى خطط، وأسكن كل قبيلة خطة، وأسكن بقية الروم المتعاونين معه خطة الحمراءوات، وأسكن الفرس الآتين معه من الشام خطة أخرى.

وحتى في نظام المربع الذي أقره عمرو ونلاحظ التقسيم الواضح بتخصيص مكان لكل قبيلة يخرج إليه الجنود مع خيولهم دون اصطحاب زوجاتهم وأولادهم، مع نهاية فصل الشتاء وبداية الربيع، ويستمرّون في مرابعهم حتى قدوم الصيف. وفي خطبة عمرو إلى جنوده يحثهم على الذهاب إلى المربع ثم العودة إلى الفسطاط، يقول لهم: «فتمتعوا في ريفكم ما طاب لكم، فإذا بيس العود وسخن العمود وكثر الذباب وحمض اللبن وصوح البقل وانقطع الورد من الشجر فحيّ إلى فسطاطكم على بركة الله، ولا يقدم من أحد منكم ذو عيال على عياله إلا ومعه تحفة لعياله على ما أطاق سعته أو عسرتة»^(١).

وفي تلك الخطبة يحث عمرو جنوده على التمتع بخيرات الريف ثم هجره بعد إجدابه: «فنالوا من خير ولبنه وخرافه وصيده، وأربعوا خيلكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها فإنها جتكم من عدوكم وبها مغانمكم وأنفالكم»^(٢).

وتمسكت الأرستقراطية العربية في البداية بعزلتها عن بقية الملل والطوائف كنوع من أنواع الترفع والتعالي على الشعب المصري الزراع للأرض والقائم بأمر الحرف المختلفة، واحتفظوا لأنفسهم بمهام الحرب والحكم والسياسة لأن العرب، كما يقول ابن حبيب، تعيش من سيوفها ورماحها، وقد كان عمر بن الخطاب ينهى العرب عن الزرع كي لا يذلوا وينشغلوا به عن الجهاد. حتى إنه عاقب رجلاً عربياً أراد أن يزرع، وطلب من عمرو أن يرسله إلى المدينة بسرعة ليقيم عليه العقاب المناسب.

ولزمن طويل ظلت العزلة بين العرب والقبط قائمة فيما يشبه الانفصال الاجتماعي، ويمكن أن يسمى التماس بينهما في الفترة الأولى تماس السطح والقاع، أو تماس الحاكم والمحكوم وما ينطوي عليه من عسف جانب وخضوع

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ص ٧٤.

(٢) المصدر السابق.

الآخر، دون أن يمتص أحدهما الآخر أو يحويه تحت جناحه لأكثر من ثلاثة قرون.

وقد بالغ بعض الولاة في التمسك بالتقسيم الإداري للبلاد، ووضع القيود على نظام الجباية، حتى إننا نجد في بردية عربية أوامر صارمة موجهة من أحد الجباة إلى آخر مسؤول عن ضرائب مدينة أنصنا، فيقول بلهجة شديدة:

استحضر لنا من مدينة أنصنا بقطر الطحان، وممر العمال بإحضاره -
وكان بقطر هذا قد تأخر في دفع ضرائبه - واستحضر إلينا أسرته أجمعين
واستحضر أباه وابنه واستعجل إحضاره إن شاء الله^(١).

وقد بالغ بعض الولاة في فرض المزيد من الضرائب، ومن ثم القيود التي تربط الفلاحين القبط بالأرض والقرية أكثر فأكثر، ونصوص التصاريح في أوراق البردي العربية تدل على القاعدة العامة، وهي عدم السماح بحرية الانتقال من مكان إلى آخر، وقد لاحظ «أدولف جروهمان» ذلك، وعلق عليه قائلاً: «المواطنون الذين رحلوا إلى مكان آخر ليقيموا فيه ردحاً من الزمن لم يكونوا على ما يظهر ملزمين - فقط - بأن يحصلوا على تصريح خاص من المدن التي كانوا يقيمون فيها، بل كانوا ملزمين أيضاً بإفادة الموظفين المحليين بمقر إقامتهم الجديد... ويرجح أن الإيصالات تحول من مكان إلى مكان أو إلى الكورة أو البلدة التي كان الشخص تابعاً لها، للدلالة على أنه قد قام بأداء الضريبة المفروضة عليه لتدوينها في السجل الخاص في محل إقامته»^(٢).

وفي زمن قرة بن شريك زادت وطأة الضرائب على الفلاحين إلى حد غير مسبوق، وكان «الناس يهربون ونساؤهم من مكان إلى مكان» ولكنهم لا يجدون مجتمعاً آخر يمكن أن يقبلهم «فلا يأويهم موضع»، وبدأت إجراءات قرة ورجاله لمنع الهروب تصبح أشد قسوة من إجراءات انتزاع الضرائب، وأخذ والي سخا، على سبيل المثال «يجمع الذين يهربون من موضع ويردهم ويربطهم ويعاقبهم ويعيد كلاً منهم إلى موضعه»، وأصدر قرة أوامره بأن «لا يؤوي أحد غريباً في البيع ولا الفنادق

(١) زبيدة عطا، الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الإسلامي، ص ١٢٨.

(٢) أدولف جروهمان، أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية.

ولا في السواحل»، وطلب من الرهبان أن يعيدوا أي شخص يريد الدخول في سلك الرهبنة، ووصل به الأمر إلى وضع علامات تمييز قاسية على جسد الرهبان، بأن «أحصى الرهبان ووسمهم كل واحد منهم بحلقة حديد في يده اليسرى ليعرف، ووسم كل واحد باسم بيعته وديره بغير صليب بتاريخ مملكة الإسلام»^(١).

«وإذا ظهروا بهارب أو غير موسوم قدموه إلى الأمير فيأمر بقطع أحد أعضائه ويبقى أعرج، ولم يكن يحصى عدد من شوه به على هذه القضية، وحلق لحى كثير وقتل جماعة وقلع أعين جماعة بغير رحمة»^(٢). وكان متولي الخراج هذا أسامة بن زيد التنوخي، يتشدد في إعطاء تصريحات الخروج للناس، ويقرر ضريبة على إصدار التصاريح مقدارها عشرة دنانير، ويشدد على الشرطة والجيش والحراس بأن من لا يجدوا سجله معه يؤخذ كل ما معه وينهب، وطبقوا ذلك حتى على مراكب التجار والبحارة الذين فيها، فمنهم من يقتله ومنهم من يصلبه ومنهم من يقطع يديه ورجليه حتى «انقطع الطريق ولم يبقَ من يسافر»^(٣).

وربما لا ننسى حادثة فساد محصول الكروم، وخوف الجميع من نقله أو شرائه حتى بذرهم واحد، بسبب عدم حصول التجار على تصاريح النقل وانتظارهم حوالي شهرين لإصدار التصريح؛ ففسد المحصول ولم يحصلوا على سجل الإفراج.

* * *

وبخلاف تحديد مواطن الإقامة، وحظر الانتقال من مكان إلى آخر إلا بالتصاريح الرسمية، تعددت مظاهر العزل الإجباري بين الناس، ومنها عزلة الملبس والهيئة بفرض أنماط معينة من الثياب على أصحاب كل دين، فاحتكر العرب زيًّا معينًا لا يلبسه غيرهم ولا يتشبه به سواهم، وفُرض على الأقباط زي، وعلى اليهود زي آخر.

وداخل صفوف الأقباط اختلف زي الرهبان المصنوع من الخيش عن زي رجال الكنيسة عن زي الفلاحين عن زي ساكني المراكز والمدن.

(١) ساويرس بن المقفع، تاريخ البطارقة، الجزء الأول، ص ١٤٦.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٧.

(٣) المصدر السابق، ص ١٤٨.

وكان يمكن تمييز الدين والملة والوضع الاجتماعي بسهولة من النظرة الأولى لعابري الطريق، أو للمتعاملين في الأسواق والحمامات العامة.

وفي العموم، تخصصت مصانع معينة في صنع ملابس السادة بخلاف تلك التي تصنع ملابس العامة، وقد «أطلق عليها طراز الخاصة وطراز العامة»^(١).

وقد ذكر القلقشندي في الشروط المفروضة على أهل الذمة أن يركبوا الحمير بأن يجعل الراكب رجليه من جانب واحد وأن ينزلوا المسلمين صدر الطريق، ولا يركب يهودي ولا نصراني على سرج، ولا يركب على إكاف، ولا تركب امرأة من نسائهم على راحلة وليكن ركبها على إكاف^(٢).

كما أكد القرشي في كتاب «معالم القرية في أحكام الحسبة» ضرورة أن «تشد المرأة الزنار تحت الإزار، وفوق الثياب، حتى لا تصف أبدانهن، وتكشف رؤوسهن، وقيل بل فوق الإزار كالرجل، ويكون في عنقها خاتم يدخل معها الحمام، ويكون أحد خفيها أسود، والآخر أبيض ليميزن به على غيرهن»^(٣).

وقد ظلت هذه الذمنية العنصرية هي السمة الغالبة على تاريخ الحكم العربي، وإن تخللها فترات تمتع فيها أعيان الأقباط وأغنياء اليهود بامتيازات المسلمين في الملبس والمظهر، بينما ظلت قاعدة الفقراء من أهل الذمة مقيدة بشروط الملبس. وظل اللون الأبيض حكراً على العرب، والأزرق قيلاً على القبط.

ويرى بعض الباحثين أن قيود الملبس لم تطبق في البداية بشدة، بسبب وجود فوارق طبيعية في المظهر بين ملبوس العرب الآتين من الصحراء ولبوس أهل البلاد، وأن هذه القيود فرضت بصرامة فيما بعد.

وقد كان عمر بن الخطاب شديد التعصب للسيادة العربية والإسلامية، فأخرج أهل الذمة من المدينة، وتمنى أن يخرجهم من الجزيرة العربية كلها بحجة أنه «لا يجتمع في المدينة دينان» ووضع أسس قوانين السيادة العربية، إلا أن تطبيقها لم يكن على درجة واحدة من الشدة، فلم يكن يتمسك عمرو بن العاص، صاحب الأفق السياسي

(١) حسن الباشا، فن التصوير في مصر الإسلامية.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء.

(٣) القرشي، معالم القرية في أحكام الحسبة.

الأوسع، بتطبيق تلك القواعد الشكلية، بقدر ما كان يهتم بأمر ترسيخ السيطرة السياسية على البلاد. أما من تلاه من الولاة فلم يتحلوا باتساع أفقه؛ وبالعكس الكثير منهم في فرض المزيد من الحدود العنصرية والتشدد في تطبيقها كلما تقدم الزمن.

وبخلاف معازل المكان والمظهر، كانت معازل اللغة حائلًا دون التفاهم بين الأجناس الوافدة والأجناس المقيمة وخصوصًا في سنين المواجهة الأولى. فكانت هناك اليونانية، لغة الرومان الحاكمين، والقبطية بلهجاتها المختلفة، لغة الشعب القبطي في القرى والمدن والكنيسة القبطية. إلى جانب لغات بعض الجماعات القاطنة بمصر: كالحبشية، والعبرية، والفارسية، ثم اللغة العربية الآتية مع جيش الفتح.

وقد صاحب عمرو بن العاص وجيشه في رحلته من فلسطين إلى مصر عدد كبير من الأدلاء والتراجمة من الفرس والرومان والموالي الذين قاموا بأعمال الاتصال الأولى. ورغم كثرة هذه اللغات إلا أن المواجهة الأساسية في اللحظات الأولى للفتح العربي كانت بين اللغتين اليونانية (لغة الرومان الحاكمين)، والعربية (لغة العرب الحاليين)، وخلال سنوات القتال الثلاث دارت الكثير من المباحثات بين قادة الجيش العربي والجيش البيزنطي عبر التراجمة.

أما تلك الاحتكاكات والتماسات اللغوية التي كانت تحدث بين العرب والشعب القبطي في المدن والكنائس والأديرة، فكان بعضها يدور باليونانية، خصوصًا أن أعيان مصر ورهبانها كانوا يجيدون اليونانية باعتبارها لغة البلاد الرسمية، وبعض المواجهات كانت تدور باللغة القبطية. وتذكر بعض كتب التاريخ أن أبا رافع القبطي الذي كان يقوم بزراعة أرض عالية في يثرب ويخدم مارية القبطية، قد عاش حتى شهد فتح مصر، وأنه صاحب جيش عمرو بن العاص، ولسانه القبطي كان إحدى وسائل التفاهم مع أهل مصر. ورغم ذلك ظلت المشكلة الكبرى التي كانت تواجه العرب في القرى القبطية التي يجتاحونها بحروبهم على طول الطريق إلى الإسكندرية، وهي جهل كل طرف بلغة الآخر، مما ساعد على زيادة الخوف والفرار من أمام هؤلاء الأغراب الغازين للبلاد.

وتقهقرت اللغة اليونانية مع عتاد الفرسان الرومان الراحلين إلى القسطنطينية، وظلت اللغة القبطية لغة الصراع الدائر بين العرب والشعب القبطي حتى صدر قرار تعريب الدواوين عام ٨٧هـ.

وفي السنوات الأولى زاد اهتمام بعض الأقباط بتعلم اللغة العربية وخصوصًا العاملين بديوان المحاسبة حرصًا على وظائفهم وموقعهم كهمزة وصل بين القيادة العربية وشتى القرى القبطية، ولذلك فإننا نلاحظ أن تعريب الدواوين كان يخص المركز بالأساس، أما «موازيت» القرى أو السلطة القروية فقد ظلت تتعامل بالقبطية حتى زمن متأخر جدًا.

ويبدو أن غموض اللغة القبطية بالنسبة للعرب، وعدم فهمهم لها في العموم، وممارسة القبط لشتى طقوس حياتهم اليومية بها، جعل العرب يقلقون من حالة الإبهام المسيطرة عليهم، ولذا كانوا يلجأون إلى كل وسائل الترجمة المتاحة لنزع ستار الإبهام المستغلّق بينهم وبين الشعب الآخر.

ويذكر ساويروس بن المقفع أن الابن الأكبر للوالي عبد العزيز بن مروان، ويدعى «الإصبع»، كان كثير الشك في نوايا القبط ودائم التوجس من ممارسة طقوسهم الدينية وسائر شعائر حياتهم باللغة القبطية، فقرب شماسًا يعرف اللغة العربية يدعى بنيامين «فسر له الإنجيل، بالعربي، وكتب الكيميا وكان يبحث عن الكتب لتقرأ عليه وكذلك الأرطستيكيات كان يقرأها لينظر هل يشتمون فيها المسلمين أم لا»^(١).

مما يعني أن هذا الشماس قد أجاد اللغة العربية حتى استطاع ترجمة الإنجيل، وكتب الكيميا ومختلف الكتب الأخرى للأمير المتوجس شرًا من الأقباط. وبعد تلك الحادثة بسنة واحدة جاء قرار التعريب الفوقي للدواوين على يد عبد الله بن يربوع الفزاري من أهل حمص.

وفي الوقت الذي كانت هذه الفئات العليا من القبط تقبل على تعلم لغة الفاتح

(١) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه، الجزء الأول، ص ١٣٩.

لاستمرار المحافظة على مصالحها، كانت قاعدة الشعب القبطي مغفاة من هذه الحاجة امتثالاً للأمر الواقع في القرى المغلقة والمجهدية.

أما أسرى القبط من الرجال والنساء الذين سباهم عمرو بن العاص ووزعهم كجوارٍ وعبيد على قادة جيشه ورجالهم المقربين، فقد اضطرتهم ظروف العبودية إلى القيام بدور مزدوج حيث علموا الأقربين منهم الكثير من المفردات القبطية، كما اضطروا إلى تعلم وإتقان اللغة العربية، لغة السادة المالكين لأجسادهم، مثل عبد الله بن عبد الرحمن؛ وهو أحد الذين سباهم العرب في قرية بلهيب، وقد أصبح عريف الموالي أو رئيس العبيد بعد أن اعتنق الإسلام وتعلم اللغة العربية.

وكما حدث مع عدد من نساء سلطيس اللاتي اتخذهن العرب جواري وإماء لهم، بعد أن استباح عمرو مدينة سلطيس ووزع نساءها على قادة جيشه، وبعث بالجزء المتبقي منهم إلى بلاده البعيدة في مكة والمدينة واليمن.

وقد بقي ذكر بعض هاتيك النسوة اللاتي أنجبن ذكوراً لهؤلاء السادة الجدد، وقد أخذ هؤلاء الأبناء - فيما بعد - مواقع مهمة في بلاط الولاية العربية، بينما أهال التاريخ تراب نسيانه على النساء اللاتي لم ينجبن أبناء ذكوراً للسادة العرب ولم يعد لهن أي ذكر.

ومن أبرز أبناء المصريين أو القبطيات الأسيرات عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ابن القائد العربي المعروف معاوية بن حديج الذي لعب دوراً كبيراً في توطيد دعائم الدولة الأموية بمصر. وهناك شواهد تاريخية على معرفة ابنه عبد الرحمن للغة القبطية التي تعلمها من أمه القبطية - إحدى سبايا سلطيس - فيروي الكندي في خبر خروج العلويين بالفسطاط سنة ١٤٥ هـ، (القرن الثاني الهجري)، أن ابن حديج - عبد الرحمن - وقف على الباب الذي ناحية بيت المال فكلم خالد بن سعيد وهو فوق ظهر المسجد كلمة قبطية، مما يدل على معرفة الاثنين - عبد الرحمن وسعيد - وربما آخرين، باللغة القبطية.

بالإضافة إلى أننا سنجد شواهد تاريخية على رواج اتخاذ قادة آخرين لجوارٍ قبطيات، وإنجابهم منهن أيضاً مثل: عبد الرحمن بن جعفر بن ربيعة الذي أنجب ابنه عمران من

جاريته السلطيسية، وعقبة الذي أنجب ابنه عياض وابنه عبيدة من جارتين قبطيتين على ما يبدو، وخارجة بن حذافة القرشي الذي كان رئيس شرطة عمرو بن العاص وتلقى عنه طعنة الموت، قد أنجب ابنه عون من جاريته القبطية السلطيسية، وغيرهم. وقد اقتضت ظروف هاتيك النسوة القبطيات الدخالات بيوتاً رغم أنفهن أن يتعلمن لغة السيد، وهي اللغة العربية، وأن يحافظن على اللغة القبطية في سرائرهن ويعلمنها لأبنائهن الصغار.

ويندرج كل ذلك تحت باب العادي من الأمور، حيث يجب على المحكوم أن يتعلم لغة حاكمه باعتباره الطرف الأدنى في العلاقة، أما أن يحدث العكس فهذا هو النادر الصحيح. ولذلك فقد ظل المؤرخون يتعاملون مع تعلم بعض السادة ذوي الأصول العربية الصرفة للغة القبطية من باب الغرائب والطرائف، فيروى أن خير بن نعيم قاضي مصر في الفترة من عام ١٢٠ إلى ١٢٧هـ، واليمني الأصل، والذي كان يعمل في تجارة الزيت قبل توليه القضاء، كان يعرف اللغة القبطية، وإنه كان يدخل إليه الخصمان فيخاطبانه بالقبطية ويرد عليهما بها ويشهد عنده الشهود بالقبطية فيسمع منهم ويحكم بها^(١). ويقال إنه كان يقضي بين العرب في صحن المسجد، وفي العصر يجلس على باب الجامع فيقضي بين القبط بلغتهم.

لكن تظل هذه النماذج فردية بالنسبة إلى أعداد القبط المقبلين على تعلم اللغة العربية والتحدث بها، وخصوصاً حينما خيل لبعضهم أن دخولهم الإسلام سيمكنهم من اتخاذ مكانة أفضل في مصر الإسلامية بعد أن انسد أمامهم مخرج الفرار إلى الديور للتخلص من عبء الضرائب، فبدأت أعداد قليلة تعلن إسلامها، وتشير وثائق البردي إلى أن «عدد من أسلم في البداية كان قليلاً، فذكرت في إحدى قوائم الخراج ١٣٠ اسماً مسيحياً واسماً واحداً إسلامياً»^(٢).

ونلاحظ تغير رد فعل القبط إزاء العرب الحاكمين منذ عام ١٠٧هـ، وفيه

(١) انظر: العسقلاني، رفع الإصر عن قضاة مصر.

(٢) أدولف جروهمان، المصدر نفسه.

بدأت ثورات القبط في التوالي والتتابع حتى عام ٢٢٦هـ، حينما قمع المأمون قبط مصر ونكل بهم وأعمل فيهم السيف فما أبقى، والأسرف لم يرحم أحدًا مما أدى إلى انكسار شوكة الثورات القبطية لأزمان طويلة قادمة. ويبدو أن القبط قبل عام ١٠٧هـ، كانوا يلجأون إلى استخدام أساليب المقاومة السلبية، ومن أبرزها الفرار إلى حياة الرهينة والأديار المعفاة من عبء أداء الجزية وأنواع الضرائب الأخرى؛ حتى ألغى عبد العزيز بن مروان هذا الامتياز، وأحصى جميع الرهبان وختمهم وفرض عليهم أداء الجزية، فانسد هذا الباب أمام القبط الفارين. وبدأت، مع زيادة شدة الجباة والولاة وتعسفهم، ثورات القبط عام ١٠٧هـ، وفكر بعض دهاة العرب في ضرب القبط الثائرين بإحلال بعض القبائل العربية في موطنهم، وإتاحة بعض فرص الثراء أمامهم، واستئذان عبد الله بن الحبحاب (متولي خراج مصر) الخليفة في السماح للعرب القيسية بالنزول إلى الحوف الشرقي، موضع ثورات القبط، عام ١٠٧هـ، بعد قمع الثورة وقتل زعمائها والقبض على عدد كبير من الرجال والنساء بالطبع. فنزل حوالي خمسمائة بيت - في البداية - من عرب الشام القيسيين، يزرعون ويسمنون الخيول للتجارة فيها، ثم توالى أعداد العرب القادمين بعد ما لاحظ أقرباؤهم مدى الثراء العائد على العرب القيسية من ذلك.

وبوفود الأعداد الكبيرة، بدأ نوع من الاحتكاك بين فلاحي القبط الراحين تحت عبء زيادة الضرائب ومزارعي العرب الحاصلين على امتياز احتكار المنطقة بأمر الخليفة. وإحلال العرب ولغتهم في تلك المناطق خلق خليطًا من اللغات المستخدمة، ليست بالعربية الفصحى التي يستخدمها العرب الأقحاح، وإنما هجين لغوي جديد خاص بمصر، ولكن من سوء حظها أنها لم ترزق بعالم لغوي مثل الجاحظ يهتم بتسجيل لغة العامة من مختلف الطبقات مما يترك ثروة من التشكيلات اللغوية الناتجة عن اختلاط وتهجين اللغتين العربية والقبطية.

وقد حاول بعض اللغويين رد الكلمات المصرية شائعة الاستخدام إلى أصول عربية، كما في «القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب» لمحمد بن أبي السرور الصديق الشافعي (١٠٨٧هـ) و«رفع الإصر عن كلام أهل

مصر» الذي يعرض فيه صاحبه، يوسف المغربي، لما دخل اللغة العربية من لغة أهل مصر، ويحاول أن يرد بعض الكلمات إلى أصول عربية^(١).

وقد صمدت الكثير من المفردات المصرية حتى العصر الحديث، بعد مرور حوالي أربعة عشر قرناً ويزيد، يرصدها مراد كامل في كتاب «حضارة مصر في العصر القبطي» لتشمل أسماء أشياء وأفعال وتعابير كاملة.

وهذه الكلمات التي لا زالت تعيش وتتألق حية على لسان المصريين حتى العصر الحديث؛ هي مجرد مثال لغيرها من آلاف الكلمات التي صارعت الموت عبر قرون طويلة فاندثر بعضها، وظل البعض الآخر.

وقد ظلت اللغة القبطية صامدة، خصوصاً في الريف، خلال القرون الأربعة الأولى للفتح العربي. ويذكر المقرئ أن بعض النساء القبط في الصعيد كن لا يتحدثن إلا بالقبطية الصعيدية حتى الزمن الذي عاش فيه المقرئ نفسه (القرن الخامس عشر الميلادي / التاسع الهجري).

ويؤكد «جاستون ماسبيرو» أن بعض سكان صعيد مصر كانوا يتكلمون ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الأولى من القرن السادس عشر، في أوائل حكم الأتراك. أما أبو صالح الأرمني فيذكر في الكتاب المنسوب إليه «الكنائس والأديرة في مصر» أن نصارى إسنا حين كانوا يحضرون الحفلات وأفراح المسلمين كانوا يطوفون في الطرقات والميادين أمام العريس وهم يهتفون بعبارات قبطية صعيدية^(٢).

(١) الكلمات القبطية التي دخلت العربية من أسماء المسميات: برسيم، إردب، يم، أم قويق، حلق، تكيس، بقوطي، كعك، قلة، كحة، لقمة، لبشة، ماجور، تمساح، نبوت، مقطف، ننوس، نونو، بصارة، قاق، مشنة، مسلة، سمان، طورية، ذهبية، تندة، سنط، شرش، شونة، شوطة، شوربة، خن، رمان، شوشة، شبورة، بلح...

وفي لغة الأطفال كلمات قبطية مثل: تاتا، ومعناها يمشي؛ أمبو، أي ماء، واوا معناها ورم؛ بيبه أي برغوث؛ ومنها أفعال مثل شأشأ، فرفر، هلوس، هوش، لكلك، نكت، نط، ففت، دمس (دفن)، شلشل، شن، بشبش، هوس (بمعنى تسييح).

كذلك تعبيرات مثل: الورور للفجل الصغير، ولقلاق، وجب بمعنى الساعة أو الوقت، والكاس بمعنى الألم، وتوت للحاوي بمعنى اجتماع، وليلي بمعنى إفراح، وبج، وكاني وماني. لمزيد من التفاصيل، انظر: مراد كامل، حضارة مصر في العصر القبطي.

(٢) جاك تاجر، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢م.

ويستنتج سليمان نسيم من كل ذلك أن نهاية القرن السابع عشر شهدت اختفاء اللغة القبطية كلغة للحديث، وذلك في الصعيد الأعلى - أقوى مراكز اللغة القبطية - ويقارن بعد ذلك بين شواهد زوالها وشواهد ازدهارها الأول فيقول إنه:

لما قاربت اللغة القبطية على الزوال كتبها الأقباط بحروف عربية، بل لقد كثر استخدام هذه الطريقة بدليل وجود نسخ كثيرة منها بالمتحف القبطي كالأبصلمودية الكيهكية - مخطوط رقم ٤١١ - وكان هذا على العكس تمامًا من موقف القبط حين بدأوا يتكلمون العربية في أوائل القرن الثامن، أي قبل ذلك بعشرة قرون، بحروف قبطية.

ومنذ القرن الميلادي الثامن حتى القرن الثاني عشر، ظلت عوامل الضعف تدب في استخدام اللغة القبطية بفعل انتشار اللغة العربية بين المصريين رويدًا رويدًا حتى رأى البابا غبريال بن تريك (١١٣١-١١٤٥م)، أن القبط يتكلمون العربية وخاصة في المدن ومراكز المديريات، فأصدر أمره بقراءة الأناجيل والخطب الكنسية وما إليها، باللغة العربية في الكنائس، وذلك بعد تلاوتها أصلًا باللغة القبطية، وشعر خلفاؤه بخطورة هذا المبدأ لكنهم التزموا به^(١).

ثم اختفت القبطية من المدن، وظلت في قرى الصعيد البعيدة حتى القرن الخامس عشر / السادس عشر، كما رأينا من قبل، أما المدن والقرى القريبة، وخصوصًا قرى الوجه البحري، فقد شهدت تغيرات أوسع بعد سلسلة القمع الدموي للأقباط الثائرين منذ عام ١٠٧هـ وحتى ٢٢٦هـ، بالإضافة إلى انكسار خط العزلة العربي الذي كان العرب يطوقون به أنفسهم فبدأوا يتخذون أماكن المرتبعت أماكن دائمة للإقامة، ويتشرون في القرى خلال القرن الثاني الهجري، وهجرة قيس الكبرى عام ١٠٩هـ، واتخاذها قرى الشرقية موطنًا دائمًا مع التمتع بالامتيازات العالية التي خصهم بها ابن الحبحاب فكان ألف من القيسية يتناولون عطاء الخاصة، لكنهم فقدوا هذا الامتياز - فيما بعد - فتقلب هوى القيسية من الولاء لبني أمية إلى الولاء للعباسيين وحالفوا القبائل اليمينية الموجودة بالحوف الشرقي ضد مظالم الولاة ونهملهم إلى جمع الخراج دون تفريق بين الأقباط

(١) سليمان نسيم، تاريخ التربية القبطية، ص ٩٧.

الزارعين للأرض والعرب الزارعين لها أيضًا. ثم دخلت قبيلة تميم مصر مع العباسيين عام ١٣٢هـ، وكان كل والٍ جديد يأتي من الشرق يحضر معه أهله وقبيلته وحلفاءه ومواليه. أما قبيلة ربيعة فجاءت في خلافة المتوكل، بعد مذبحة المأمون للأقباط عام ٢٢٦هـ، بالإضافة إلى القبائل الأخرى التي فضلت اتخاذ مرتبعتها منازل فيها بصفة مستمرة بعد أن تركت الفسطاط نهائيًا مثل مدليج ومن حالفهم من حمير وذبحان الذين استقروا في خربتنا، ومثل حشين وطائفة من لخم وجذام نزلوا أكناف صان وأبليل وطرايه من الحوف الشرقي.

واختلط تاريخهم منذ ذلك الوقت، وأصبح لهم - بتحالفهم ذلك - اسم واحد يجمعهم هو «أهل الحوف»، قوة هائلة قاومت الدولة مقاومة عنيفة في عدد كبير من المعارك المريعة التي نشبت لأسباب تعود في معظمها إلى سوء معاملة الولاة وجشعهم في أخذ الخراج، وخيانة الموظفين، وهذا يبدو واضحًا عند النظر في ثورات أهل الحوف في الأعوام ١٦٨، ١٧٢-١٧٣، ١٧٨، ١٧٩-١٨٠، ١٨٦، ١٩٠، ١٩٤، ١٩٨، ٢٠٩، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦-٢١٧، ٢٥٣هـ، ولا عجب في هذا؛ فقد كانوا باعتمادهم على الزراعة واهتمامهم بها يمثلون مصلحة طبقة المزارعين في مصر؛ بل لقد انتهى بهم الأمر إلى أن اشتركوا مع القبط في ثورة أسفل الأرض (٢١٦-٢١٧هـ) التي لم تكن ثورة المصريين بعامة؛ بل الفلاحين بالذات والتي قام بقمعها جيش الخليفة المأمون^(١).

فهل كانت نتيجة ذلك التجاور المكاني بين العرب اليمنية والقيسية، وبين قبط الحوف الشرقي، ظهور حالة التداخل والانصهار، أم ظلت الفوارق الشاسعة قائمة بين الطرفين؟ يمكننا الحديث عن بداية تداخل - وإن على استحياء - حيث ظلت العنجهية القبلية تطل برأسها وتحول دون الانصهار الكامل بين العرب والقبط حتى ذلك التاريخ (١٢٦هـ).

لقد أخذ العرب في الزواج من نساء القبط دون أن يسمحوا بزواج العرييات من القبط، وشاع بين العرب المثل القائل: «يأكلها التمساح ولا يأخذها الفلاح»؛

(١) عبد الله خورشيد البري، القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، ص ٥٨.

بمعنى أن العربي يفضل أن تهلك ابنته أو أخته أو قريبته وتموت على أن تتزوج من قبطي سواء أكان فلاحاً أم غيره، ولذلك نلاحظ أن حركة الزواج والتناسل بين الطرفين - في العموم - ذات اتجاه أحادي يبتلع النساء المصريات في المجرى العربي الذي كان الرجال فيه يتزوجون من عدة زوجات ويستمتعون بأي عدد شاءوا من الجواري والإماء.

والأقباط يعانون كثرة الضرائب، وشدة الجباة والولاية، وحرمانهم من الامتيازات التي كان يتمتع بها العرب؛ بالإضافة إلى القيود المفروضة على ممارسة طقوسهم الدينية بحرية «فلا يرتفع ناقوس أو تعلقو ترانيم»، وأصبحت الكنيسة في كثير من الأحوال عاجزة عن الدفاع عن نفسها، فضلاً عن الدفاع عن رعاياها من الشعب القبطي أمام تقلبات مزاج الولاية وعسف جنودهم^(١).

وبمرور الأيام وتوطيد دعائم الحكم العربي؛ كانت الحلقة تضيق حول وضع الأقباط المصريين، ولم يعد التقسيم الأول بين كونهم أهل ذمة يدفعون الجزية والخراج، ويعيشون في معازلهم بعيداً عن العرب، حامياً لهم؛ بل كانوا يتعرضون لضيق حلقة العزلة من حولهم رويداً... رويداً وكان ضعف الكنيسة يتضح أكثر فأكثر؛ بل كان هذا الحصار يدفع الكنائس والرهبان إلى المزيد من الانغلاق والجمود، والدخول في ظلامية القرون الوسطى، ويمكن أن نلاحظ خط الحضارة القبطية المنحدر منذ القرن الثامن الميلادي.

ومن جانب آخر كان إسلام القبط يعفيهم من بعض المظالم، ولكنه لا يفتح لهم باب الاندماج الكامل في حياة العرب، ولا يسمح لهم بحالة التساوي الكامل معهم، وظل الأصل القبطي مداناً، وكأنه وصمة تطارد صاحبه حتى بعد إعلان إسلامه، ودخوله الحياة الجديدة في وضع أدنى مرتبة من السادة ذوي الأصول العربية والعنجهية القبلية.

(١) سنجد بعد ذلك أمثلة قاسية مثلما حدث حينما أمر الحاكم بأمر الله الفاطمي بمنع الحديث باللغة القبطية في البيوت والطرق ومعاقبة كل من يتحدث بها بقطع لسانه، فاضطر القبط إلى وضع الستائر على أجنحة الهياكل وقت صلاة القداس وإجراء الخدمة الإلهية سرّاً خوفاً من الحكام الذين كانوا إذا سمعوا الصلاة بهذه اللغة هجموا على الكنائس، وفتكوا بمن بها بلا رحمة. لمزيد من التفاصيل، انظر: المقريري، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، الجزء الأول، ص ٨٠.

وقد أثّرت تلك العنصرية السلالية فيما يسمى بقضية أهل الحرس التي شغلت الرأي العام المصري زمنًا طويلاً (١٨٥-١٩٤ هـ). وأهل الحرس هم جماعة من القبط المصريين الذين أسلموا، ورغبوا في أن يتساووا مع العرب في جميع الأوضاع الاجتماعية، فكتبوا لأنفسهم نسباً يعود إلى حوتك، إحدى القبائل العربية، فثارت عنصرية عرب مصر «ورفضوا أن ينتسب غير عربي إليهم. وتحرش العرب بهؤلاء القوم وآذوهم، فجمع أهل الحرس من بينهم نقوداً دفعوها إلى القاضي العمري ليثبت لهم نسباً عربياً». وأتوا بعض أعراب الحوف الشرقي ليشهدوا معهم أن نسبهم إلى بني حوتكة من قضاة، وقبل القاضي العمري شهادة عرب الشام «وسجل لهم نسباً بذلك فثار عرب مصر وقام الشعراء يهجون القاضي وأهل الحرس»، فيقول أحدهم ويدعى يحيى الخولاني:

ومن أعجب الأشياء أن عصابة من القبط فينا أصبحوا قد تعربوا

وقالوا أبونا حوتك، وأبوهم من القبط علج حبله يتذبذب

وفي البيت الثاني «حبله يتذبذب» إشارة إلى التمييز في الملبس الذي كان يفرض على قبط مصر، أن يربط الرجال والنساء زناراً في وسطهم، بالإضافة إلى التمييزات الأخرى في اللون ونوع الملابس.

ويقول آخر، معلى بن المعلى الطائي، موجهاً حديثه للقاضي العمري الذي أثبت لهم هذا النسب العربي:

إن كنت قد ألحقتهم عرباً فزوجهم بناتك^(١)

وفي ذلك إشارة إلى استحالة زواج القبطي من المرأة العربية، وحتى إذا أسلم القبطي وسقط حاجز اختلاف الدين، فإن هذه الصعوبة أو الاستحالة ظلت قائمة لزمّن طويل لتكشف عن العنصرية القبلية وليست العنصرية الدينية فقط.

ويمكننا أن نلمس بعض الاختلاف بين موقف العرب الشماليين والعرب ذوي الأصول الجنوبية بالنسبة لأهل الحرس، فيذكر الكندي أن العرب اليمانية ومن ينتمي منهم إلى قبيلة قضاة بالذات هم الذين وقفوا إلى جانب أهل الحرس واعترفوا لهم

(١) محمد كامل حسين، أدب مصر الإسلامية: عصر الولاة، ص ٢٥.

بنسب عربي؛ أو بمعنى آخر، لم يكن عندهم غضاضة في قبول فكرة مساواة القبط معهم في شتى مناحي الحياة، وفي إمكانية الاختلاط والانصهار والتزاوج واختلاط الأنساب والتساوي في المجالس وارتياذ أندية العرب ومواضع الشورى لديهم، خصوصاً أن بداية التداخل والجوار الحسن قد بدأت بين هؤلاء العرب اليمانية الذين كانوا يحتلون أسفل قاعدة ديوان العطاء، ويحصلون على أقل حصص الأموال المستنزفة من مصر لأنهم كانوا من الجند ذوي المرتبات الأقل، بل والتي أخذت في الانخفاض والتلاشي أكثر فأكثر بفعل تحيزات الولاة وسوء سياستهم، حتى انتهى الأمر بهؤلاء العرب ذوي الأصول الجنوبية إلى تفضيل الإقامة في المربع، والاشتغال بزراعة الأرض ومجاورة القبط. ولم يكن لدى هؤلاء العرب ذوي الأصول الجنوبية والمضارين من عنصرية عرب الشمال غضاضة في التساوي مع أهل الحرس.

وظل الأمر مثاراً للخلاف والشجار حتى تولى القاضي البكري أمر القضاء (١٩٤-١٩٦هـ)، ومال إلى رأي عرب الشمال في عدم صحة نسب أهل الحرس، ودعاهم إلى دار القضاء، ويروي الكندي أنهم حينما ذهبوا إليه «أخرج البكري مقرضاً من تحت مصلاه فقطع قضية العمري، وقال لهم: العرب لا تحتاج إلى كتاب من قاضي. إن كنتم عرباً فليس ينازعكم أحد»^(١).

وألغى البكري حكم القاضي الذي سبقه، ومزق الشهادة التي تثبت هذا النسب، وفرح العرب المتعصبون، وأخذ شعراؤهم ينشدون أشعاراً تهجو القبط جميعاً وتحط من شأنهم، فيقول معلى الطائي الذي سبق وسبهم:

يا بني البظراء موتوا كمداً	واسخنوا عيناً بتخريق السجل
لو أراد الله أن يجعلكم	من بني العباس طراً لفعل
لكن الرحمن قد صيركم	قبط مصر ومن القبط سفلى
كيف يا قبط تكونوا عرباً	ومريس أصلكم شر الجيل

وقال يحيى الخولاني:

(١) الكندي، المصدر نفسه، ص ٤١٤.

اشكروا الله على إحسانه فله الحمد كثيرًا والرغب
رجع القبط إلى أصلهم بعد خزي طوقه وتعب
ودنانير رشوها قاضيًا جائرًا قد كان فينا يغتصب

وقال طاهر القيسي يمدح القاضي البكري:

ولقد قمت بني الخبائث عندما رموا العلى وتحوتكوا وتعربوا
فرددتهم قبطًا إلى آبائهم ونسب أصلهم الذي قد غيوا
وتركتهم مثلًا لكل ملصق نسبًا إذا التقت المحافل يضرب^(١)

وبعد انتهاء قضية أهل الحرس بنفي أصولهم العربية، لم تهدأ ثائرة العرب ضد أقباط مصر الداخلين في الإسلام، بل احتدت النبرة أكثر من زمن المأمون بعد القضاء على ثورات الحوف الشرقي، وقمع قبطها وعربها ذوي الأصول الجنوبية. ففي أثناء ولاية لهيعة بن عيسى على القضاء قرب منه عددًا من مسلمي القبط، واتخذ من بعضهم مساعدين له، فأسند كتابة القضاء إلى سعيد بن تليد - وكانت كتابة القضاء في ذلك العهد من أسمى ما يصبو إليه الفقهاء - كما اتخذ شهودًا جعلهم بطانته، منهم معاوية الأسواني وسليمان بن برد وغيرهما في نحو من ثلاثين رجلًا.

مما أثار العرب ضد هذا القاضي، وضد مسلمي القبط الداخلين مجال العمل الفقهي والشرعي أو قدس الأقداس العربي الإسلامي، ونظم الشعراء القصائد المعبرة عن هذا الموقف الجمعي الرافض، وتساعد سخطهم حتى شمل القبط جميعًا، وأخذ الشعراء يحطون من شأن القبط مرة أخرى، كما حدث في قضية الحرس السابقة.

فيقول الشاعر أبو شبيب أنيس بن دارم:

قبح الله زمانًا رأس فيه ابن تليد
بعد مقراض وخيط وأبيرات حديد

(١) المصدر السابق.

وأبو الزنباغ خناق	غراميل العبيد
بعد سيف خشبي	وسهام من حديد
وابن تدراق الأفا	نين البلدين التليد
وابن بكار كراكير	وغطاس الثريد
وأبو الروس المريسي	بن دباغ الجلود
واللقيط ابن بكير	نطفة القدم الطريد
وابن سهم حارس	الجيزة حلوان البريد
عصبة من طينة النيل	ميامين الخدود
ليسوا بعد التباين	نفيسات البرود
لازموا المسجد ضلا	لأمن الأمر الرشيد
لحوانيت بنوها	بفنا كل عمود
وتسوموا وتكنوا	بعد جرح وشنود ^(١)

فالقضية إذن ليست قضية الإسلام، وليست قضية اختلاف الأديان، فقد دخل أهل الحرس الإسلام، ودخل الثلاثون رجلاً المحيطون بالقاضي لهيعة بن عيسى الإسلام، وأتقنوا اللغة العربية كأبنائها، ونبغوا في علوم الفقه والتفسير وغيرها من العلوم العربية، وتبنوا الثقافة العربية قلباً وقالباً، وصاروا نموذج المصري الحامل للعقل العربي الوافد. ولم يشفع لهم كل هذا، بل أصرت الروح القبلية المتعصبة على أن تضعهم في مرتبة أدنى.

رغم أن العرب كانوا يسكنون أرض القبط، وينعمون بثروات القبط، ويأكلون مما يزرع القبط، إلا أن شعراءهم يعبرون عن ترفع العرب على سائر القبط ومهنتهم، وكأنه من المسلمات الطبيعية أن يعمل القبط للعرب، ويكونون في مرتبة الخدم، فكيف يخرق القبط هذه النواميس ويزاحمون العرب في مكائتهم الشرفية! ويمكن أن نتعرف من خلال تلك القصيدة على أنواع الحرف التي يقوم بها قبط مصر ما بين الحياكة والحدادة، والشاعر يخصص الحداد الذي يصنع نوعاً من القيود

(١) محمد حسين كامل، المصدر نفسه، ص ١٦٩.

تستخدم في ربط العبيد وجرهم، وهو هنا يعبرهم بحقارة عمل الحدادة، لكنه من ناحية أخرى لا يدين تحويل الأحرار إلى عبيد ولا يدين التجارة فيهم، وهي التجارة التي نشط فيها الكثير من العرب، فقط يدين صناعة الطوق بصرف النظر عما يقوم باستخدامه وفي أي الأغراض يفعل ذلك.

ومن الحرف الأخرى التي يعبر الشاعر العربي القبط لقيامهم بها: النجارة وصناعة الطعام ودباغة الجلود والعمل بالبريد - كما يذكر أسماء رجال من القبط هم على ما يبدو أسطوات الحرف المشهورين في كل مهنة مثل: أبو الزنباغ، ابن تدارق، ابن بكار، أبو الروس المريسي، ابن لقيط، وابن سهم.

وشهرة حرفي القبط لم تكن محصورة بربوع مصر فقط، بل كانت تنتشر في آفاق هذا الزمان من قبل الفتح العربي. ومنتجات القبط كانت إحدى عجائب ذلك الزمان، فشكلت بملامحها الخاصة سمات الحضارة القبطية لقرون طويلة، وبنيت على أساسها دعائم الحضارة الإسلامية في مصر، فأخذت كل سماتها وطوتها بين أجنحتها. ولا زالت حتى الآن شواهد الحضارة القبطية حاضرة في المتحف الإسلامي في فن النسيج الذي عرف باسم القباطي، ويرى بعض الباحثين أنه قد وجدت مصانع نسيج تخصصت في صناعة ملابس الأغنياء أو الخاصة أطلق عليها اسم طراز العامة. ولا زالت توقيعات نساجي القبط على العمائم الإسلامية في المتحف، وتشهد وحدتها الزخرفية بسمات الحضارة القبطية المحبة لرسم الطيور والحمام والأعنان وغيرها من السمات المصرية الخالصة.

ويصف د. حسن الباشا في كتاب «فن التصوير في مصر الإسلامية»: «عمامة من الكتان الأبيض يزخرفها شريط أفقي منسوج بالصوف الملون به رسوم طير، يعلوه شريط من الكتابة العربية بالخط الكوفي ينسب العمامة إلى صاحبها سويل بن موسى، ويؤرخ صناعتها بسنة ٨٨هـ، وتتألف زخارف الشريط الحمراء من مناطق، وفي كل منها رسم حمامة محورة عن الطبيعة يفصل كل منطقة عن الأخرى رسم هندسي»^(١).

(١) حسن الباشا، المصدر نفسه، ص ٢٤.

وسنجد بصمات الحضارة القبطية في عمارة المساجد نفسها، في المحراب المجوف المأخوذ عن محراب الكنيسة، وفي المئذنة القبطية، ويذكر البلاذري في كتاب «فتوح البلدان» أن الوليد قد استعان بالقبط في إعادة بناء مسجد المدينة، وفي بناء مسجد دمشق والمسجد الأقصى، بالإضافة إلى قصر أمير المؤمنين، «ولما أعاد عمر بن عبد العزيز بناء الجامع النبوي في المدينة عهد بذلك إلى معماريين من القبط بنوا فيه أول محراب مجوف في الإسلام وقد أخذوا شكله من حنية الكنيسة»^(١). وقد تعود الأكاديميون أن يذكروا في تلك المواضع أن الحضارة القبطية تركت بصماتها على الحضارة الإسلامية، ولكن: هل سألنا أنفسنا عن ماهية الحضارة الإسلامية في القرنين الأول والثاني للهجرة، وفيم تجلت؟

في هذا الوقت يمكننا الحديث عن استمرار وجود الحضارة القبطية في مصر، وتجليها في شتى مناحي الحياة، واستمرار ازدهار مراكز صناعية متنوعة مثل: مراكز صناعة نسيج الكتان الأبيض الشهير المشغول بخيوط الصوف الدقيقة وبديعة الألوان وبخاصة اللون الأرجواني في مدن نشا ودلاص وأنصنا وأشمون، أما صناعة المنسوجات الصوفية فكانت تنتشر في مدن مصر العليا مثل أخميم وقرية الشيخ عبادة وأسيوط واهناص والبهنسا والفيوم، وقد ذكر المقرئزي مدينة تنيس كأحد مراكز صناعة القباطي. ونجد في المتحف القبطي ثروة من الوبريات ذات الزخارف الهندسية والرسوم الحيوانية، كما نجد نماذج للأغطية والوسائد والمفارش تعود إلى القرنين السابع والثامن الميلاديين/ الأول والثاني الهجريين، وغيرها من لوازم الحياة المستقرة الآمنة داخل البيوت، مما يضيف عليها مسحة من ترف الحضارة، حتى ولو كانت بيوتًا بسيطة لواحد من عامة الشعب.

وما بقي لنا حتى الآن من الآثار هي مجرد علامات لحضارة غطت تفاصيلها شتى مناحي الحياة وتجلت في علوم الطب والصيدلة والكيمياء والحساب، كما تجلت في فنون العمارة والبناء والزخرفة والخشب المطعم بالصدف، والذي أخذه العرب فيما بعد، واشتهر باسم الأرابسك، بالإضافة إلى صياغة المعادن وصناعة

(١) المصدر السابق.

أدوات النجارة وأدوات الزراعة التي لا زالت تستخدم حتى الآن، كما هي في أعماق الريف المصري مثل الساقية والشادوف والمنجل وغيرها من الأدوات. ويرى سليمان نسيم أنه مما ساعد على ازدهار الصناعات في العصر القبطي، انتقالها من المنازل والمصانع إلى الأديرة أيضًا، حيث «انتقلت إلى الراهب المصري براءة الصانع المصري وفنه الدقيق، فنهض بصناعات النسيج والخشب والتجليد والخزف والمسارج والأواني المعدنية والشمعدانات والمباخر المعدنية والزجاج»^(١).

وقد أجاد الأقباط صناعة سبعة أصناف من الورق للكتابة مما يدل على مدى ازدهار العلوم الكتابية التي اهتمت بها الكنيسة على وجه الخصوص.

وكان مجيء العرب في القرن السادس الميلادي وقت ازدهار الحضارة القبطية بشتى فروعها المدنية والحياتية. وإن كان صفوة العرب المشتغلين بالتجارة قد عرفوا مظاهر الحضارات المختلفة، ولكنهم تعاملوا معها جميعًا تعامل التاجر والمستهلك لا تعامل الصانع والمبدع؛ ينقلون قباطي مصر كما ينقلون حرير الشام وعبور الشرق وتوابله إلى بلادهم، فيستهلك السادة تلك المنتجات ويزدادون ثراءً بالتجارة فيها، مما جعل استهلاك تلك المنتجات الحضارية مقصورًا على دوائر ضيقة في المجتمعات العربية في مكة بالذات وخصوصًا قريش، وبعض زعماء القبائل الكبيرة، أما فلول العرب وأعدادهم الغفيرة فلم تكن تستمتع بتلك المظاهر الحضارية لا منتجة ولا مستهلكة، ومن هنا كانت الدهشة الكبرى التي لفت الجيش العربي بغلاتها أثناء دخول الإسكندرية ورؤية القصور الشاهقة والشوارع اللامعة ومظاهر الترف الواضحة في أحياء الرومان. وعلى طول الطريق قبل الوصول إلى الإسكندرية كان الأفق الأخضر الوافر بالمحصولات المختلفة يملأ العيون، والمياه العذبة تجري بلا عوائق، والفلاحون من الرجال والنساء ينطلقون في الحقول.

كانت تجليات الجنة ونعيمها كما حلم بها العربي ابن الصحراء تقابله في كل مكان وتأخذه بسحرها. وإن كان يفصله عنها بحر من الدم خاض فيه حتى قضى

(١) سليمان نسيم، المصدر نفسه.

على أعدائه، وامتلكها، وأصبح كل ما في الجنة مسخرًا لخدمته: الفواكه والأعشاب، الأشجار والطيور، الأنهار الجارية، اللبن والعسل، الرجال والنساء، الذهب والفضة - مثل معادن جبال العلاقي التي نزحت إليها قريش وسيطرت عليها - حتى الخمر التي وعد الله بها المؤمنين في الجنة كانت متوفرة. وكثير من الحكايات التاريخية تشير إلى إقبال المسلمين الفاتحين على العب من كل الشهوات، بما فيها الخمر، وحادثة شرب ابن الخليفة عمر بن الخطاب للخمر لم تكن استثناءً وحيداً، كما يروى عن القاضي البكري، الذي حكم ضد قبط مصر في قضية أهل الحرس، أنه كان لا يجلس للقضاء إلا بعد الغداء وبعد أن يشرب عدة أقداح من الخمر، ونجد في أخبار دعبل بن علي، الذي حكم أسوان بعض الوقت، أنه كان يشرب النبيذ^(١). ويشير بعض المؤرخين إلى أن القبط كانوا يدفعون مقرر ضرائب الخمور مساوياً لمقرر ضرائب المنتجات الأخرى كالخل والعسل. والحالات التي قرر فيها بعض الولاة تكسير دنان الخمور تؤكد أن صناعة الخمر واستهلاكه ظلت قائمة طوال فترات الحكم العربي لمصر، إلا في استثناءات حادة قليلة لبعض الحكام الذين كانوا يأمرّون بالتضييق عليها.

* * *

وظلت صورة الجنة كما تخيلها العربي تغلف رؤيته لمصر، ويروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال:

لما خلق الله آدم، مثل له الدنيا: شرقها وغربها وسهلها وجبلها وأنهارها وبحارها وعامرها وخرابها، ومن يسكنها من الأمم، ومن يملكها من الملوك، فلما رأى مصر رأى أرضاً سهلة ذات نهر جارٍ، مادته من الجنة تنحدر فيه البركة، ورأى جبلاً من جبالها مكسواً نوراً لا يخلو من نظر الرب عز وجل، فأولماً إليه بالرحمة. في سفحه أشجار مشمرة، وفروعها في الجنة تسقى بماء الرحمة، فدعا آدم في النيل بالبركة، ودعا في أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى، وبارك على نيلها وجبلها سبع مرات. قال: يا أيها الجبل المرحوم، سفحك جنة وتربتك مسك تدفن فيها عرائس الجنة، أرض حافظة مطيعة رحيمة، لا خلعتك يا مصر بركة، ولا زال بك

(١) انظر: أبو الفرج الأصفهاني، كتاب الأغاني، الجزء العشرون، ص ١٥٩.

حفظ ولا زال منك ملك وعز، يا أرض مصر، فيك الخبايا والكنوز ولك
البر والثروة. سال نهرك عسلًا، كثر الله رزقك، ودر ضرعك، وزكا نباتك،
وعظمت بركتك وخصبت، ولا زال فيك يا مصر خير ما لم تتجبري
وتتكبري أو تخوني، فإذا فعلت ذلك عداك شر ثم يغور خيرك^(١).

وكثيرًا ما كانوا يقولون إن نيلها «يخرج من الجنة على حسب ما ورد به خبر
الشريعة»^(٢). فهي صورة الجنة على الأرض، وجمالها مشروط بمدى الخضوع
للسيد العربي، فإذا تمردت عليه انقلب الجمال إلى شر مطلق. خصوصًا أن
ملامح هذا الجمال ومفرداته هي الخبايا والكنوز والبر والثروة، كما أن أهم
شروط الإحساس بهذا الجمال هو استمرار سيلان الثروة في أيدي السيد
العربي كما يستمر حلب اللبن من ضرع بقرة حلوب خصبة، وسنجد تشبيه
البقرة الحلوب كثير التكرار في حديث ابن عمرو «در ضرعك»، بمعنى الدعاء
لها بزيادة الثروة، ومرة يأتي على شكل حث مجنون لنهب الثروة، كما جاء في
وصية الخليفة سليمان بن عبد الملك لأسامة بن زيد التنوخي، متولي خراج
مصر، فقال له: «احلب حتى ينقيك الدم. فإذا أنقاك الدم حتى ينقيك القيح. لا
تبقها لأحد بعدي»^(٣).

وجنون الاستنزاف الذي سيطر على الخليفة، جعله لا يقنع بمجرد حلب اللبن،
فطالب متولي الخراج بحلب الدم، ثم لا يكتفي بحلب الدم فيطالبه بحلب صديد
الجروح العميقة، حتى يترك البقرة جثة هامدة ليس فيها شيء لأحد بعده. وهو
جنون لا يوازيه إلا نهم الخليفة إلى الطعام الذي كان يسيطر عليه ليل نهار حتى
صار مضرب الأمثال في الشره. ويحكي الدميري في كتاب «حياة الحيوان الكبرى»
أن سليمان بن عبد الملك «كان نهمًا في الأكل وقد نقل عنه فيه أشياء غريبة فمنها
أنه اصطبغ في بعض الأيام بأربعين دجاجة مشوية وأربعين بيضة، وأربع وثمانين
كلوة بشحمها، وثمانين جردقة، ثم أكل مع الناس على السماط العام. ومنها أنه

(١) جلال الدين السيوطي، حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة.

(٢) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ص ٣٤٦.

(٣) المقرئ، المقفى الكبير، ص ٣٩.

دخل ذات يوم بستاناً له، وكان قد أمر قيمه أن يجني ثماره، ويستطيب له، وكان معه أصحابه فأكل القوم حتى اكتفوا، واستمر هو يأكل فأكل أكلاً ذريعاً، ثم استدعى بشاة مشوية فأكلها، ثم أقبل على الفاكهة فأكل أكلاً ذريعاً، ثم أتى بدجاجتين مشويتين فأكلهما، ثم مال إلى الفاكهة فأكل أكلاً ذريعاً، ثم أتى بقعب يقعد فيه الرجل مملوء سمناً وسويقاً وسكرًا فأكله أجمع، ثم سار إلى دار الخلافة وأتى بالسماط فما نقص من أكله شيء»^(١).

وقد تمسك أسامة بن زيد التنوخي، متولي خراج مصر، بنصيحة الخليفة الشره إلى الطعام والثروات، وعمل على جمع كل ما يستطيع من الأموال، وبعثها إليه. ويعلق المقرئ على أفعال أسامة بن زيد بأنه «عمل فيها عملاً ما عمله فرعون، واشتد على نصارى مصر، وأمر بقتلهم وأخذ أموالهم، ووسم أيدي الرهبان بحديدة عليها اسمه - الراهب - واسم ديرِه وتاريخه، فكان من وجد منهم بغير وسم قطع يده... وكتب إلى الأعمال بأن من وجد من النصارى ولم يكن بيده منشور يؤخذ منه عشرة دنائير»^(٢).

وقد كان وصف مصر بالبقرة الحلوب شائعاً بين العرب، نجده لدى الخليفة عمر بن الخطاب في حديثه إلى عمرو بن العاص، وفي حديث الخليفة عثمان بن عفان لعمرو بن العاص «لقد درت اللقحة بعدك يا ابن العاص».

وبخلاف وصف البقرة أو اللقحة، نجد آخرين يصفونها بسلة الخبز، لأنها كانت تبعث بالقمح إلى مكة والمدينة وتمير - أي تعيش - الخلافة وتعطيها ما تحتاج له من الطعام.

أما أبو بصرة الغفاري فيشبهها بخزائن الأرض كلها، وابن العاص كان يؤكد أن خلافة مصر تعدل الخلافة كلها!

وسواء كانت بقرة أو سلة أو خزانة فجميعها تشبيهات تفصح عن معاني الاستنزاف التي تعرضت لها مصر على يد الفاتح العربي لأنها «معدن الذهب والجواهر والزمرد والأموال ومغارس الغلات»^(٣).

(١) كمال الدين الدميري، حياة الحيوان الكبرى، الجزء الأول، ص ٤٠٤.

(٢) المقرئ، المقفى الكبير، ص ٤٠.

(٣) المسعودي، المصدر نفسه.

فاستحلب العرب - كما يقتضي الغزو لدى كل الجيوش - ذهبها وجواهرها وأموالها وغلاتها، ونظروا إلى أهلها نظرة التعالي المطلق.

فكان القبط يزرعون للعرب، ويبنون للعرب، ويصنعون للعرب، ثم يحتقرهم العرب وينظرون إليهم من علي.

في ذات الوقت الذي كان يبالغ فيه العرب في مدح ثروات مصر، كانوا يبالغون أيضًا في ذم شعبها وتحقير شأن الرجال والنساء حتى وسموهم بكل علامات الشر المطلق، فيقول من يصفها بأنها معدن الذهب أن في «أهلها مكر ورياء وخبث ودهاء وخديعة»^(١).

ويقول ابن عباس: «إن المكر عشرة أجزاء؛ تسعة منها في القبط وواحد في سائر الناس»^(٢).

أما الخليفة معاوية بن أبي سفيان الذي يقسم «أهل مصر ثلاثة أصناف: فثلث ناس، وثلث يشبه الناس، وثلث لا ناس. فأما الثلث الذي هم الناس فالعرب، والثلث الذين يشبهون الناس فالموالي، والثلث الذين لا ناس فالمسالمة يعني القبط»^(٣). ويبدو أن التعبير عن نظرة العرب الدونية لقبط مصر كان ضروريًا لاستمرار منطق العنجهية العرقية المبالغ فيها، واستمرار منطق الاستنزاف والسيادة لصالح الفارس العربي الذي يجب أن يحتل المكانة العليا في المجتمع بمقتضى حد السيف، فيحتكر معها كل الصفات النبيلة الرفيعة بحد السيف أيضًا.

أما الشعب المحكوم والخاضع كليًا لمنطق الغزو، فإن السادة العرب يرونه من زاوية عدم استحقاقه للخيرات المحيطة به: من زرع وماء وثروة، وفي بعض الأحيان يرونه من زاوية عدم الاستحقاق للحياة نفسها.

والنتيجة الطبيعية في نظر الناس، أو الأشراف من العرب، أن القبط أو اللاناس ينتجون الثروة، والعرب أو الناس يستهلكونها ويغرقون في الاستمتاع بها. والصواب الوحيد في عين العربي الحاكم هو ضمان استمرار خضوع القبط

(١) المصدر السابق.

(٢) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٦.

للعرب لضمان استمرار استحواد العربي على الثروة، ولذلك فإن الحكام العرب نظروا إلى الثورات القبطية على أنها خروج اللاناس على ناموس الطبيعة. وربما من هذه الزاوية تجاهل معظم المؤرخين العرب أحداث ثورات القبط، وتعاملوا مع مصر أثناء ذكر أخبار الفتح وكأنها أرض بلا شعب. واستمروا على هذا النهج إزاء أحداث عام ١٠٧هـ وتصاعداتها حتى بلغت ذروتها عام ١٣٢هـ، مع نهاية الدولة الأموية.

ومن المدهش أن نجد ثنائية الإشادة بمصر - الأرض والثروة والخيرات - من ناحية، وذم الشعب ووصفه بشتى الصفات السلبية من ناحية أخرى، لدى مؤرخ مرهف الشعور الاجتماعي مثل المقرئ الذي فطن إلى تفاصيل الحياة الاجتماعية والسلوكية والعقائدية لدى الشعب، كما فطن إلى التمردات القبطية الكبرى، وخصص لها فصلاً في كتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، بعكس الآخرين الذين كتبوا عن مصر وكأنها أرض بلا شعب، فتحها العرب بعد سلسلة معارك ضد الرومان فانتصروا عليهم وتمكنوا من تثبيت أقدامهم فيها وفرض الجزية على سكان يسمون في العموم بالأقباط.

أما المقرئ، فقد سجل صورة تمتلئ بالتفاصيل الحيوية عن حياة الشعب المصري في ظل الحكم العربي، ورغم هذا الحس الاجتماعي المرهف فإننا نجد نفس الثنائية المتعالية على الشعب، ولم لا؟ وهو المؤرخ المصري المولد والإقامة، العربي الثقافة والتكوين، رباه جده لأمه، ويدعى ابن الصائغ، على المذهب الحنفي، ثم انقلب شافعياً بعد وفاته. وقد تولى عددًا من الوظائف في ديوان الحكومة حتى أصبح محتسباً؛ وهو منصب له مكانته العالية في شؤون الحكم.

ونجد في كتابات المقرئ - شأنه شأن مؤرخي مدرسة التاريخ المصرية التي أسست على يد ابن عبد الحكم - فكرة العرب عن أنفسهم، وهم الحكام والغالبون، ونظرتهم للشعب المصري، وهم المحكومون المغلوبون، ونتعرف من خلاله على كل الأساطير السائدة وخرافات العرب عن المصريين.

ومن الغريب أن يفيض المقرئ في وصف المصريين بالجبن والاستخذاء

مؤكدًا - غير مرة - أنها صفات طبيعية منحتها لهم الطبيعة فالتصقت بهم جميعًا، وفي المقابل يصف العرب بالشجاعة والإحساس بالكرامة كصفات أصلية، فيقول إن أهل مصر يغلب عليهم «الدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر والرغبة في العلم وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكذب والسعي إلى السلطان ودم الناس. وبالجمله فيغلب عليهم الشرور الدنية التي تكون من دناءة الأنفس، وليس هذه الشرور عامة فيهم، ولكنها موجودة في أكثرهم، ومنهم من خصه الله بالفضل وحسن الخلق وبرأه من الشرور، ومن أجل توليد أرض مصر الجبن والشرور الدنيئة في النفس لم تسكنها الأسود، وإذا دخلت ذلت ولم تتناسل، وكلابها أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان، وكذلك سائر ما فيها أضعف من نظيره في البلدان الأخر ما خلا ما كان منها في طبعه ملائمة لهذه الحال كالحمار والأرنب»^(١).

وهكذا يلصق المقرئ - نموذج العقل العربي المتعالي على المصريين - كل الصفات السلبية بالشعب المصري، ويختمها بطابع الأزلية والثبوت، حينما يدعي أنها صفات طبيعية تنبع من طبيعة الأرض ونوع المياه ولون السماء، ولا أحد يعلم كيف تولد الأرض الجبن والشرور الدنيئة في النفس، وكيف تولد أرض أخرى الشجاعة والخير والفضيلة؟!

وكيف تولد الخضرة والمياه الجارية وتوافر المحصولات الشر والدناءة، بينما تولد الصحراء وحياة الندرة الشجاعة المطلقة؟!

إنها فكرة العربي الذي ينشأ على الإغارة والحرب والغزو، فيعتقد أنه السلوك الأرقى طالما يمكنه من الحصول على احتياجاته وزيادته، ويضعه على رقاب الناس في مكان السيادة، فيسمي القتال فروسية، والغزو جهادًا في سبيل الله، والقتل شجاعة!

وتأخذ عصبية العقل العربي حدًا لا يكتفي فيه بوسم المصريين فقط بتلك الصفات السلبية؛ بل إنه يذهب إلى وصف حيوانات المكان بنفس الصفات في

(١) المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ص ٤٣.

تشبيه واضح يؤكد طابع الأزلية الكونية، فيؤكد أن مصر لا تصلح لسكنى الأسود، وإذا دخلت فإنها تذلل ولا تتناسل، وحتى كلاب مصر تكون أقل جرأة من كلاب غيرها من البلدان ونباحها أضعف، وأكثر الكائنات انسجامًا مع طبيعة تلك البيئة هي الحمار والأرنب!

وينسى المقريري - ومن خلفه العقل العربي بأجمعه - أن الجزيرة العربية موطن السادة الأشراف والفرسان المغاوير تخلو أيضًا من الأسود رغم اختلاف بيئتها عن بيئة مصر، ورغم إفاضة العقل العربي في مقارنة النفس بالأسود في الشجاعة والقوة في أشعارهم ومواطن فخرهم.

كما ينسى المقريري أن مصر لم تخلُ تمامًا من الأسود التي استخدمها الحكام العرب في عقاب الأقباط الخارجين عن طاعة الحكام مثلما حدث في نهاية الدولة الأموية، حينما قبض الخليفة مروان بن محمد على رجال الكنيسة وسجنهم وسلم «أغناطيوس القديس الشهيد إلى عشرة من الأسد»^(١).

وتذكرنا تلك الحادثة بتاريخ القبط الدامي مع الأسود منذ العصور الرومانية، حيث كان يتسلى الأباطرة والحكام بمشاهدة الأسود تهاجم المعارضين في حلبة المصارعة، وتفتك بهم وسط صيحات الفرح والتشجيع. وقد أعاد بعض الحكام العرب نفس التقليد ضد مخالفينهم من القبط.

وقد ترك هذا التاريخ الدامي أثرًا قاتمًا في استخدام القبط لتشبيه الأسود، على عكس العرب الذين يتخذونه مضرِبًا في الشجاعة ومثالًا لها.

وفي كثير من النصوص القبطية القديمة، نجد أن استخدام تشبيه الأسد يدل على الشراسة وحب سفك الدماء كما في وصف ساويروس بن المقفع لأحد الحكام العرب بأنه «كان باغضًا للنصارى، سفاك الدماء، رجل سوء كالسبع الضاري»^(٢).

ويقول في موضع آخر عن «ملك اسمه مروان ثار مثل الأسد إذا خرج من الغابة

(١) ساويروس بن المقفع، تاريخ البطارقة، ص ١٩٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٢٢-١٣٩.

جائعًا يأكل ويدوس الباقي برجليه»^(١)، بعكس العرب الذين يقرنون صفة الأسد بالشجاعة ويتيهون بأنفسهم حينما يقرنون أنفسهم به.

وعلى عكس فكرة المقرئزي السابقة عن خلو مصر من الحيوانات الضارية لعدم صلاحية أرضها المولدة للجبن والأخلاق الدنية، نجد في مصر الكثير من الحيوانات الضارية التي لا تسكن الجزيرة العربية مثل أنواع التمساح والنمس وذئاب البراري والأفاعي وغيرها، والحضارة القبطية أبدعت في إدخال تلك الضواري ضمن أنساقها الفنية، كما أن العقل المصري حفظ الكثير من الحكايات عن حب المصريين للحيوانات ومعاملتها برأفة وشفقة وهي عادة موروثه عن الفراعنة الذين كانوا يكتبون على مقابرهم أنهم لم يؤذوا حيوانًا في حياتهم تقريبًا إلى الإله خالق الطبيعة.

وهناك منظر جميل لملاح محفور في الخشب، والملاح يداعب تمساحًا بيده^(٢)؛ والتمساح من الحيوانات الضارية التي ألّفها خيال الفنان القبطي وصورها بأسلوب محبب بجوار الحيوانات الأليفة مثل: الطيور والأسماك والأرانب والغزلان، وهو يرى فيها جميعًا، الأليف والضاري، وداعة ورقة مفرطة.



إلى جانب صفات الشر والدنية السابقة، نجد العقل العربي يلصق صفات المكر والكيد والخبث والدهاء بقبط مصر، مع التأكيد مرة أخرى على أنها صفات طبيعية لا شك فيها. وكثيرًا ما تأتي على لسان صحابة لهم شأن في الفكر العربي مثل ابن عباس الذي ينسب إليه قوله: «المكر عشرة أجزاء تسعة منها في القبط وواحد في سائر الناس»^(٣).

وقول عبد الله بن عمرو بن العاص: «لما هبط إبليس وضع قدمه بالبصرة وفرخ بمصر»^(٤). والأحاديث السابقة تضع صفات الكيد والمكر على كاهل المصريين

(١) المصدر السابق.

(٢) مراد كامل، المصدر نفسه، ص ١٤٢.

(٣) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.

(٤) المصدر السابق.

وكأنها قدرهم الأزلي الذي تقتضيه نوااميس الطبيعة، فكما تشرق الشمس كل صباح يولد المصري مكرًا أو شبيهاً بالشيطان في أخلاقه وصفاته.

وهذه الصفات إن وجدت فهي بالضرورة تنتج عن أوضاع اجتماعية معينة تضطر الإنسان إلى حماية نفسه بوسائل الضعفاء. فنحن، إذن، أمام أمراض العلاقة بين العرب الحاكمين والقبط المحكومين، ولسنا أمام صفات وراثية، فهي علاقة لا يمكن أن يكتنفها الإسلام، ولا أن يكون الحب والرضا أساسًا فيها. وما حدث بين العرب والقبط في حاجة إلى دراسة من أكثر من زاوية، حيث إن هناك جانبًا مسلحًا ومتفرغًا لشؤون الحرب والقتال وجمع الأموال، والآخر أعزل ويدور في ساقية عمل قاسية.

طرف يشرع القوانين المستنزفة ويفرضها بقوة السلاح، والآخر ظهره للحائط ويضطر إلى الدفاع دائمًا، وفي تلك الثنائية لا يمكن أن يحب الأعزل قاتله. وفي الأوقات التي لم تصل الأمور فيها إلى لحظة التمردات الكبرى، اضطر القبط إلى تجريب كل الوسائل السلبية لحماية النفس، فترددوا بين الصمت والتلطف والاسترضاء، وحتى محاولات الفرار الجماعي من العمل في الأرض وتركها إلى الأديرة البعيدة حتى فطن الحاكم إلى ذلك، وسدوا تلك الثغرة بتشديد القوانين حول الرهبان والكنيسة.

وقد حدثت الثورات في أوقات كثيرة طغى فيها الجانب العربي، وظن أن القبط خانعون دائمًا وخاضعون حتى الموت، فأنت نتائج الأحداث على عكس ما يتوقعون.

ويعود المقريري إلى التأكيد عدة مرات على أن كل الصفات الرذيلة هي صفات طبيعية، وإن تلطفوا فيها وحاولوا إخفاءها تحت غلالة النفاق والبشاشة، ويستشهد في ذلك بأبيات أبي نواس الذي يوجه حديثه إلى أهل مصر قائلاً:

محضتكم يا أهل مصر نصيحتي ألا فخذوا من ناصح بنصيب

رماكم أمير المؤمنين بحية أكل لحيات البلاد شروب

فإن يك باق إفك فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصيب

ثم يربط المقريري بين نوع الطعام الذي يتناوله أهل مصر وبين أخلاقهم تبعًا

للقاعدة التي تقول إن «كل قوم قد ابتنت أبدانهم من أشياء بأعيانها وألفتها ونشأت عليها»^(١) فيكون طبعها وأخلاقها موافقاً لنوع الطعام الذي تأكل.

ولكن كيف تكون مصر بلدًا كثير الخيرات، وفير المحاصيل، ولا يأكل الشعب إلا الأغذية الرديئة «مما يؤكد أمرهم في السخافة وسرعة الوقوع في الأمراض»، كما يقول المقريري؟!

إن سوء غذاء الناس وسوء حالهم وغلظة طباعهم يدل على عدم انتفاع أهل مصر بخيراتهم، واقتصارهم على ما تبقى من الفتات الخشنة، فهي بلد ذو وجهين أو ذو نوعين من المعيشة؛ وجه يرى ويحس أنها «معدن الذهب والجواهر والزمرد والأموال ومغارس الغلات»، أو كما وصفها عمرو بن العاص للخليفة ابن الخطاب: «بينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، إذا هي عنبرة سوداء، فإذا هي زمردة خضراء، فإذا هي ديباجة رقصاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء»^(٢).

ويصفها آخر بأن «نيلها عجب، وأرضها ذهب، وخيرها جلب، وملكها لمن سلب، ومالها رغب، وفي أهلها صخب، وطاعتهم رهب، وسلامهم شغب، وحروبهم حرب، وهي لمن غلب»^(٣).

وهناك مفارقة واضحة بين شدة الإعجاب بالأرض وشدة التحقير لسكان الأرض؛ فمصر التي يراها عمرو بن العاص شجرة خضراء، أو لؤلؤة بيضاء، أو عنبرة، أو زمردة، وجميعها تشبيهات مستمدة من الجواهر النفيسة الخلابة للعيون والساحرة للنفوس، يكون أهلها من وجهة نظره: «أهل ملة محقورة، وذمة مخفورة، يحرثون بطون الأرض ويبدرون بها الحبطن يرجون بذلك النماء من الرب، لغيرهم ما سعوا من كدهم»^(٤).

وأهلها المحتقرون في هذا الوصف يحرثون الأرض ويمارسون شتى أعمال الفلاحة والزراعة من أجل غيرهم، وليس لهم رأي في شؤون السياسة، وهم

(١) المصدر السابق.

(٢) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، الجزء الأول، ص ٣٢.

(٣) المسعودي، المصدر نفسه، ص ٣٧٤.

(٤) ابن تغري بردي، المصدر نفسه.

في وضع الخسيس، وفي نفس الرسالة يقرر عمرو بن العاص سياسة السيطرة على البلاد:

ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها، وألا يستأدي خراج ثمرة إلا في أوانها،
وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها، فإذا تقرر الحال
مع العمال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال^(١).

ونجد ذات هذه الفكرة في الوصف الثاني الذي يمتدح أيضًا أرضها الذهب،
ويذم أهلها الذين تكون طاعتهم رهب، أي خوفًا وجبنًا، في ثنائية تبرر فعل السيادة
نفسها لقوم يلهثون خلف الثروة، ويجبرون أهل البلاد على إنتاجها باستخدام شتى
دروب العنف.

* * *

إنها الأرض التي يخرج نيلها من الجنة في نظر العربي، وتسير المرأة فيها والمكتل
فوق رأسها فيمتلئ ثمارًا دون أن تبذل جهدًا في جمعه.
وهي التي تمتد ضياعها أينما وقعت العين على طول الطريق من الفسطاط إلى
الإسكندرية، ومن الفسطاط إلى رشيد، بطول الدلتا والنيل. فكانت الغلات والكروم
في كل القرى. حتى إن ابن ظهيرة يصف كور مصر بقوله:

لما صورت الدنيا كلها للرشيد لم يستحسن منها إلا كورة أسيوط، لأن
مساحتها ثلاثون ألف فدان في استواء الأرض، لو وقعت فيها قطرة ماء
واحدة انتشرت في جميعها، لا يظمأ منها زرع، فيها يزرع الكتان والقمح
والقرطم وسائر أنواع الغلات.

ومنها بلد الأشمونين وما يعمل فيها من الأرز والكتان... ومنها مناسج
الأرمني والديقي، والمثلث... وبها الخس والسفرجل... والليمون.
ومنها أحميم، بلد عظيم، وفيه من العجائب والآثار والبرابي
والطلسمات ما لا يعرف، وبه الإهليج الكابلي والأصفر (صنوبر)...
وبها يعمل الطراز الصوف الشفاف، والمطارف والمطرز والمقلم
الأبيض والملون.

وقوص، فيها سائر أصناف التمر والخل والحطب الكاري الذي لا رماد

(١) المصدر السابق.

له، والفحم الجافي، وسائر أنواع الأرباط والكروم ومعادن الذهب والجواهر...

أما دمياط وتينس فهما حاضرتا البحر، وبها من صيد البر والبحر من الحيتان والطير ما ليس في بلد في هذا الزمان. ويزرع بها من قصب السكر والموز شيء كثير.

ولقد أخبرني من أثق به من أهلها أن الفدان منها من القصب يخرج منه السكر أربعين قنطاراً بالقُويّ، وهو مائة قنطار بالمصري.

ومنها الفرما وبها البسر الفرماوي والرطب والتمر، إذا فرغت أرباط الدنيا وبسرهما، وجد هو.

وما بين عين شمس والفرما تربة وسيدة يزرع فيها الأرز والأترنج الأحمر الجافي، وبها الحصر الساماني والعبداني ومنابته، والكتان.

وبوصير وسمند وفيها من الكتان الذي يحمل إلى بلاد الإسلام والكفر وأقاصي الدنيا، ما لا يحصر، وبها الأترنج الجافي والإوز الذي لا يرى في خلقته ولا وزنه مثيل له، وربما كان وزن الطير الواحد أربعين رطلاً^(١).

حتى العريش والجفار، وصف المسعودي ما فيه من الطير والجوارح «والمأكول والصيد والنمورة»، كل هذه الخيرات تركزت في بلد واحد قال عنه العرب إنه يميز غيره، أي يعطي البلاد الأخرى الطعام بينما أهل البلد لا يأكلون إلا الرديء والسيئ من الطعام، فنجد «أهل الصعيد يغتذون كثيراً بتمر النخل والحلاوة المعمولة من قصب السكر ويحملونها إلى الفسطاظ وغيرها فتباع هناك وتؤكل... وكثير من أهل مصر يكثرون أكل السمك طرياً ومالحاً ويكثرون أكل الألبان وما يعمل منها، وعند فلاحيهم نوع من الخبز يدعى كعكاً يعمل من جريش الحنطة ويجفف وهو أكثر أكلهم السنة كلها، وبالجملية فكل قوم منهم قد ابتنت أبدانهم من أشياء بأعيانها وألفتها ونشأت عليها إلا أن الغالب على أهل مصر الأغذية الرديئة وليست تغير مزاجهم ما دامت جارية على العادة»^(٢).

أما أهل البشموور الذين كانوا كالشوكة في ظهر العرب، الكثيرو الثورات،

(١) ابن ظهيرة، المصدر نفسه، ص ٥٣. فصل في ذكر كور مصر المشهورة.

(٢) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ص ٤٤.

والمشهورون بالشدة والقوة، فإن «طباعهم أغلظ، والبله عليهم أغلب، وذلك أنهم يستعملون أغذية غليظة جداً ويشربون من الماء الرديء»^(١).

أما إسكندرية وتينس وأمثال هذه المدن «فقربها من البحر وسكون الحرارة والبرد عنهم وظهور الصبا فيهم مما يصلح أمرهم ويرق طباعهم ويرفع همهم ولا يعرض لهم ما يعرض لأهل البشمور من غلظ الطبع والجمادية، وإحاطة البحر بمدينة تينس توجب غلبة الرطوبة عليها مما يسر أخلاق أهلها»^(٢).

والمقارنة بين أخلاق البشموريين وأخلاق المدينتين المطلتين على البحر - إسكندرية وتينس - تأتي لصالح المدينتين، دون البشمور، فيم استحق أهل البشمور صفات البله والغلظة وهم ثوار القبط الأشداء، واستحق أهل الإسكندرية وتينس صفات رقة الطبع ورفع الهمة وليس في تاريخهم تحت الحكم العربي ثورات تعادل ثورات البشموريين؟!

وسبب ثورات البشموريين التي جلبت عليهم صفات الغلظة والبله من وجهة نظر الحكام، هي أسباب اجتماعية ومعيشية قاسية دفعتهم إلى الثورة؛ ولا شأن هنا لما يهب عليهم من رياح البحر أو غيرها.

سنجد الفقر المدقع في بلد يسكنه مزارعون وصيادون وطحانون، يعانون البلى الشديدة من متولي الخراج: أحمد بن الأسبط وإبراهيم بن تميم؛ فكانوا «يعذبونهم بعذاب شديد مثل بني إسرائيل إلى أن باعوا أولادهم في الخراج من كثرة العذاب، لأنهم كانوا يربطونهم في الطواحين ويضربونهم حتى يطحنوا مثل الدواب، وكان الذي يعذبهم رجل اسمه غيث وتمادت عليهم الأيام وانتهوا إلى الموت»^(٣)؛ فسبب ثورة البشموريين - لدى ساويروس - هو عسف جباة الخراج وإهانتهم لسكان البلاد، وتحميلهم ما لا يطيقون، وبالتالي لم يكن أمامهم بد من المقاومة.

أما المقرئزي، ومن خلفه العقل العربي، فيرى أن سر ثورات هؤلاء القوم يرجع

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه، ص ٢٦٨. في زمن الأنبا يوساب.

إلى غلظتهم الناتجة عن خشونة الطعام وخشونة المياه والبيئة الجافة؛ وكلها عوامل طبيعية انطبقت على أماكن أخرى ولم تؤد إلى تفجير الثورة. وعلى أية حال، إذا كانت خشونة أهل البشمور لا تعجب العرب، فإن سهولة أهل تنيس لا تعجبهم أيضًا، ولكن لأسباب أخرى عكسية؛ فالمقريزي يصف أهلها بالميوعة وانتفاء الرجولة والتخث، حينما يقول:

أخلاق أهلها سهلة منقادة وطبائعهم مائلة إلى الرطوبة والأنوثة. قال أبو السرى الطبيب: إنه كان يولد بها في كل سنة مائتا مخنث^(١).

وإن شئنا الدقة سنجد أن ميوعة الخلق لا يقصرها المقريزي على أهل تنيس فقط، بل إنه يصف أهل مصر جميعًا بقلّة الغيرة على نسائهم في محاولة لتصوير المصري بارد الدم والأعصاب، لا يحرك ساكنًا للدفاع عن بيته ونسائه ضد الغرباء، في مقابل دماء العرب الحارة وغيرتهم الشديدة على النساء التي تصل إلى حد منعهن من الخروج والاختلاط بالرجال وتحجبيهن عن جميع الأنظار. مما يعكس وجهة نظر السادة العرب النافية للرجولة عن المصريين في مقابل تأكيد رجولة وفحولة العربي الذي يضع نسائه في مرتبة واحدة مع ممتلكاته السرية، حيث تتعايش جميع الأمراض السلوكية والنفسية خلف الأستار، وأي إخلال بهذا السد المنيع يقتضي الغضب وسوء الظن بالنساء.

ويحكي المقريزي حكاية أسطورية عن هلاك جميع الرجال المصريين زمن قدماء المصريين مع فرعون أثناء عبوره البحر، حتى لم يعد إلا العبيد، ولم تستطع النساء الصبر على الحياة دونما علاقات مع الرجال «فطفقت المرأة تعتق عبدها وتتزوج، وتتزوج الأخرى أجيرها، وشرطن على الرجال ألا يفعلوا شيئًا إلا بإذنهن، فأجابوهن في ذلك، فكان أمر النساء على الرجال»^(٢).

من يومها ونساء مصر يسيطرن على الرجال، أو كما يقول يزيد بن حبيب، أحد رواة الحديث: إن نساء القبط على شرطهن القديم حتى زمن كتابة تلك الحكاية في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، فهن على سنة أسلافهن يقهرن الرجال ويخضعنهم حتى إن الرجل لا يبيع ولا يشتري إلا بأمر زوجته.

(١) المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ص ١٧٧.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٩.

وبذلك نجد العقل العربي يقلب الأوضاع، ويصور الأمر وكأن شخصية المرأة المصرية تغطي على الرجل فيكون هو الأضعف، الأعجز عن التصرف في شيء إلا بالرجوع إليها، في مقابل صورة العربي الفحل قاهر النساء كثير الزواج، كثير الجواري والحريم، الذي يتفاخر بقدرته على كثرة الجماع، وتمتلى كتب التاريخ العربي بمثل هذه الحكايات التي تنافس حكايات الأدب المكشوف، وتفوقها، كما تحفل السير الشخصية للكثيرين منهم بكم هائل من وقائع التزوج والتسري والتعامل مع النساء باعتبارهن مجرد أدوات للذة الحسية.

وهكذا كتب المؤرخون العرب تاريخ مصر من وجهة نظرهم، ونعتوا فيه المصريين بأشد الصفات سوءاً حينما تحدثوا عن أخلاق وعادات وصفات المصريين؛ ففسروا سمرة المصريين بأنهم «أولاد العبيد السود الذين نكحوا نساء القبط بعد الغرق، واستولدوهن»^(١).

وذموا أخلاقهم بدعوى أنه: «يغلب عليها الاستحالة والتنقل من شيء إلى شيء والدعة والجبن والقنوط والشح وقلة الصبر والرغبة في العلم وسرعة الخوف والحسد والنميمة والكذب والسعي إلى السلطان وذم الناس، وبالجمله فيغلب عليهم الشرور الدنية التي تكون من دناءة الأنفس»^(٢).

بينما يرى العرب أنفسهم أنهم: «أتم الناس عقولاً وأحلاماً وأطلقهم السنة وأوقرهم أفهاماً. واستتبع ذلك لهم كل قضية وأورثهم كل منقبة جليلة»^(٣). أما نساؤهم فيقدمون صورهن على أنهن: «أعف النساء ولباسهم أفضل اللباس»^(٤).

وفي المسافة بين الصورتين - صورة السادة الأشراف العرب الحاكمين وصورة الشعب المصري المحكوم - تراوحت اللغة العنصرية وصارت سجينة مشتقات «أفعل التفضيل» وبموجبها احتكر العرب صفات أحسن وأشرف وأتم وأعقل

(١) المصدر السابق، ص ٤٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٣.

(٣) الألويسي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، الجزء الأول.

(٤) المصدر السابق.

وأبلغ وأحلم، وغيرها من الصفات التي كانت يوميات الحرب والحكم تترجم وجهها العكسي. وانحصر المصريون في الوضع الدوني، والتصقت بهم صفات الشر والذنبة ودناءة النفس.

وبناءً على هذا المنطق القائم على دعائم التفوق والصلاحية الطبيعية: رسخ العرب سلطتهم وهيمتهم على الشعب القبطي الأعزل. وظل المصريون يعانون من هذا الوضع، أو كما يقول ابن ظهيرة:

لم تزل ملوك مصر من بعد عمرو بن العاص وإلى وقتنا هذا، يجمع كل واحد منهم أموالاً عظيمة لا تدخل تحت الحصر. وكذا الأمراء والوزراء والمباشرون على اختلاف طبقاتهم، كل منهم يأخذ أموالاً لا تحصى في حياته^(١).

(١) ابن ظهيرة، المصدر نفسه، ص ١٣٠.

الفصل الرابع

أحداث الفتح العربي لمصر بوثيقة يوحنا النقيوسي^(١)

الباب السادس والأربعون

سار المسلمون إلى الصحراء، وأخذوا كثيرًا من الخراف والظباء من الجبل، ولم يعرف أهل مصر هذا، وعندما ساروا إلى مدينة البهنسا جاء كل الجنود الذين كانوا عند شاطئ البحر مع يوحنا، ولم يستطيعوا أن يأتوا في هذا الوقت إلى مدينة فيوم. وسمع «تاودسيوس» الحاكم بمجيء الإسماعيليين، وكان يسير من مكان إلى مكان ليرى ما سيكون من هؤلاء الأعداء. وجاء هؤلاء الإسماعيليون وقتلوا رئيس الجند وكل من معه دون رحمة.

وفي الحال فتحوا المدينة، وكل من جاء إليهم قتلوه، ولم يرفقوا بأحد لا شيخ ولا طفل ولا امرأة. وأتوا إلى يوحنا الحاكم، فأخذ الأفراس واختبأوا في الحظائر والمزارع حتى لا يعرفهم مبغضوهم ونهضوا ليلاً وساروا إلى النهر العظيم في مصر عند بويط حتى ينجوا. إن هذا كان من الرب.

وأخبر رئيس العصبة، الذي كان مع «أرمياس»، قادة الإسلام بأمر جماعة الروم الذين اختبأوا، فقبض هؤلاء عليهم وقتلوهم. وتناهى هذا الخبر إلى «تاودسيوس» القائد و«أنسطاسيوس»، وكانا بعيدين عن مدينة نقيوس بمقدار اثني عشر ميلاً، فتوجهوا في الحال إلى حصن بابليون وبقياً هناك، وأرسلوا «لوندوس» الحاكم إلى مدينة بويط، وكان هو بدين الجسم ليست به قوة، لا يعرف شأن الحرب، وعندما وصل وجد جنود

(١) الوثيقة كما ترد في رسالة الدكتور عمر صابر، مصر في مخطوطة يوحنا النقيوسي.

مصر و«تيودور» يقاتلون الإسلام، وكل يوم يأتي من مدينة الفيوم ليستولي على المدينة، وأخذ نصف الجنود وسار إلى بابلون ليخبر السادة، وصار نصف الجنود مع «تيودور». وبحث «تيودور» بعناية كبيرة عن جثة يوحنا الذي غرق في البحر. وبعد حزن شديد أخرج به بشبكة ووضع في نعش وأرسله إلى السادة، فأرسله السادة إلى هرقل. ومن بقي بمصر كان يهتم بأن يتحصن بحصن بابلون. وكذلك كانوا ينتظرون «تيودور» الحاكم ليتلاقوا لقتال الإسماعيليين قبل أن يرتفع ماء النهر ويكون وقت الزرع فلا يستطيعوا الحرب، لئلا يتلف زرعهم فيموتوا جوعاً مع صغارهم وحيواناتهم.

الباب السابع والأربعون

وكان هناك نزاع كبير بين الرئيس «تيودور» والسادة، وجاء «تيودور» والسادة، وجاء «تيودوسيوس» و«أنسطاسيوس» كلاهما إلى مدينة أون ممطين فرسين مع كثير من المشاة ليحاربوا عمرو بن العاص والإسلام، والمسلمين لم يكونوا يعرفون مدينة مصر من قبل، وتركوا المدينة الحصينة وجاءوا إلى مكان يدعى طندونياس وساروا بالسفن في النهر، وكان عمرو ذا اهتمام عظيم وكبير ظن في أن يستولي على مدينة مصر، وكان حزين القلب لانفصاله عن جنود الإسلام. وكانوا منقسمين قسمين شرقي النهر، وساروا إلى مدينة تدعى عين شمس وهي أون التي كانت أعلى الجبل.

وأرسل عمرو بن العاص رسالة خطية إلى عمر بن الخطاب في مدينة فلسطين قائلاً: إذا لم ترسل عوناً من المسلمين فلن يستطيع الاستيلاء على مصر، فأرسل هذا إليه أربعة آلاف محارب مسلم، وقائدهم اسمه والواريا من سلالة البربر، وقسم المحاربين الذين معه إلى ثلاثة أقسام: قسم منهم جعله عند طندونياس، وقسم آخر جعله عند شمال بابلون بمصر، واستعد هو مع القسم الثالث عند مدينة أون وأمرهم هكذا وقال لهم: انظروا.. إذا جاء جيش الروم لقتالنا فقوموا أنتم من خلفهم، ونحن كذلك نكون أمامهم وندخلهم بيننا ونقتلهم.

وعندما خرج جنود الروم من الحصن، دون أن يعرفوا، ليحاربوا الإسلام، حيثند برز هؤلاء المسلمون من خلفهم كما دبروا، وكان بينهم قتال عظيم.

وعندما تكاثر المسلمون عليهم فر جنود الروم وساروا بالسفن، واستولى محاربو الإسلام على مدينة طندونياس لأن الجنود الذين بها فنوا، ولم يبقَ منهم سوى ٣٠٠ جندي، وهؤلاء فروا ودخلوا الحصن وأغلقوا الباب عليهم، وعندما رأوا هذا القتل العظيم الذي حدث خافوا وفروا بالسفن إلى نقيوس في حزن شديد وأسف. وعندما سمع «لمنديوس» بمدينة فيوم هذه، نهض ليلاً دون أن يخبر أهل بويط بأنه سيهرب من الإسلام، وسار بالسفينة إلى نقيوس. وعندما عرف المسلمون أن «لمنديوس» هرب ساروا في ابتهاج واستولوا على مدينة فيوم وبويط، وأراقوا بها دمًا غزيرًا.

الباب الثامن والأربعون

وعندما استولى المسلمون على فيوم وكل ضواحيها أرسل عمرو إلى «أباكيري» في مدينة دلاس ليأتوا بسفن الريف لتتنقل الإسماعيليين الذين كانوا غربي النهر إلى الشرق، وجمع إليه كل الجنود ليشنوا كثيرًا من الحروب، وأرسل إلى «جيورجيس» الوالي ليشيد له قنطرة عند النهر بمدينة قليوب ليستولي على كل مدن مصر ومدينة أتريب كذلك وكورديس وأخذوا يعينون الإسلام، فاستولى على مدينة أتريب ومنوف وجميع ضواحيها. وكذلك شيد جسرًا على النهر عند بابليون بمصر حتى لا تمضي السفن إلى نقيوس وإسكندرية وأعلى مصر، وحتى تعبر الأفراس دون مشقة من غرب النهر إلى الشرق، وحاز كل مدينة مصر، ولم يكفِ عمرو ما صنع بل قبض على حكام الروم وكبل أيديهم وأرجلهم بأغلال الحديد والخشب ونهب أموالًا كثيرة بعنف، وضاعف فرض الضرائب على العمال، وكان يسخرهم ليحملوا طعام أفراسهم، وارتكب آثامًا كثيرة لا تحصى.

وهرب من كانوا بمدينة نقيوس من السادة، وساروا إلى مدينة إسكندرية وتركوا «دمنديانوس» مع قليل من الجنود ليحموا المدينة، وأرسلوا كذلك إلى «دارس» رئيس حكام مدينة سمنود ليحمي النهرين.

وبعد هذا حدث خوف عظيم في كل مدن مصر، وكان أهل المدينة يهربون ويلجأون إلى مدينة إسكندرية، وهجروا كل أموالهم وخزائنها وحيواناتهم.

الباب التاسع والأربعون

وعندما وصل هؤلاء المسلمون مع المصريين الذين جحدوا عقيدة المسيحيين وانضموا إلى عقيدة هذا المفترس، احتاز الإسلام كل أموال المسيحيين الذين فروا، وكانوا يدعون عبید المسيح أعداء الله. وترك عمرو كثيرًا من آله في حصن بابلين بمصر وسار هو شرقًا إلى «تيودور» الحاكم الذي أرسل بغيري وسنفرى ناحية كلا النهرين ليستوليا على مدينة سمنود، وليقاتلا الإسلام (المسلمين) وعندما بلغا مجمع الأقوام أبى جميع الأحزاب حرب الإسلام، فجمع هذان أناسًا وقتلوا كثيرًا من المسلمين الذين كانوا معهم، ولم يستطع المسلمون أن يلحقوا ضررًا بالمدن التي تقع على كلا النهرين لأن المياه كانت حاجزًا، ولم تستطع الأفراس أن تدخل إليها لكثرة المياه التي تحيطهم، فتركوها وساروا إلى مدينة ريف، وجاءوا إلى مدينة بوصير، فحصنوا المدينة والطرق التي استولوا عليها من قبل.

ومن هذه الأيام قدم «تيودور» الحاكم إلى «كلادجي» ودعاه قائلاً: عد إلينا وعد إلى الروم. ووهب «كلادجي» «تيودور» كثيرًا من المال خوفًا منه حتى لا يقتل أمه وزوجته المختبتين في إسكندرية. وطيب «تيودور» الحاكم قلب «كلادجي» فنهض هذا ليلاً والمسلمون نائمون، بينما يسير على قدميه مع آله، وجاء إلى «تيودور» الحاكم، ومن ثم ذهب إلى مدينة نقيوس وانضم إلى «دمنديانوس» لحرب الإسلام. وبعد هذا فكر «سبنديس» فكرة حسنة فهرب من أيدي المسلمين ليلاً وسار إلى مدينة دمياط حيث يوحنا الوالي، وأرسله هذا إلى مدينة إسكندرية مع رسالة خطية معتزلاً بخطه لدى السادة مع غزير من الدموع قائلاً: هكذا هذا العمل الذي عملته بسبب الغرور والخسران الذي أصابني من يوحنا دون خجل بعد الشيخوخة، ولهذا انضمت إلى المسلمين. وقبل هذا بذلت جهدي مع الروم.

الباب الخمسون

ومكث عمرو رئيس المسلمين اثني عشر شهرًا يحارب المسيحيين الذين كانوا في شمال مصر ولم يستطع فتح مدنهم. وفي الشهر الخامس عشر القمري وعندما جاء الصيف سار إلى مدينة سكا ونوخود ومصاي مغضبًا لقتال المصريين قبل أن يفيض ماء النهر، ولم يستطع أن يلحق بهم ضررًا، وفي مدينة دمياط كذلك لم ترص عنه، وأراد أن يحرق زروعهم بالنار، وبدأ يسير نحو جنوده الذين كانوا في حصن بابليون بمصر، وأعطاهم كل الغنائم التي أخذها من مدينة إسكندرية، وهدم بيوت السكندريين الذين هربوا وأخذ أخشابها وحديدتها وأمر أن يمهدوا طريقًا من حصن بابليون حتى يصلوا به إلى المدينة ذات النهرين ليحرق هذه المدينة بالنار، وعندما سمع أهل المدينة هذا أخذوا أموالهم وفروا تاركين مدينتهم خاوية، وأحرق المسلمون هذه المدينة، فخرجوا ليلاً وأطفأوا النار. وسار المسلمون إلى مدن أخرى ليحاربوها، وسلبوا أموال المصريين وألحقوا بهم ضررًا.

ولم يستطع «تيودور» الحاكم و«دمنديانوس» أن يلحقا أذى بأهل المدينة لأن الإسلام كان بينهم.

وغادر عمرو المدينة بحري مصر وسار إلى ريف ليحاربها وأرسل قليلًا من المسلمين إلى مدينة أنصنا، وعندما رأى المسلمون متاعب الروم وكراهيتهم لملك هرقل، للنفي الذي أحدثه في كل مدينة مصر للعقيدة الحقبة بفضل كيرس البابا الخلقيدوني، تقووا وتشددوا في الحرب.

وتشاور أهل المدينة مع يوحنا رئيسهم في أن يحاربوا المسلمين، فأبى هو ونهض بسرعة مع جنوده، وجمع كل مال الضرائب من المدينة وسار إلى مدينة الإسكندرية لأنه عرف أنه لا يستطيع مقاومة المسلمين، وحتى لا يحدث له ما حدث لأهل فيوم، فإن كل أهل المدينة خضعوا للإسلام وقدموا له الضرائب، وكل من وجدوهم من جنود الروم كانوا يقتلونهم.

وكان جنود الروم في أحد الحصون فحاصروهم المسلمون، وأخذوا منجنيقاتهم

ودمروا مساكنهم وأخرجوهم من بين الحصون، وحصنوا حصن بابلين واستولوا على مدينة نقيوس وحصنوا داخلها.

الباب الحادي والخمسون

وكان هرقل حزين القلب لموت يوحنا رئيس القوم، ويوحنا الحاكم للذين قتلهم المسلمون، وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا في مدينة مصر، وبأمر الله الذي يأخذ أرواح حكامهم والقوة التي لدى الملوك، مرض هرقل بمرض الحمى ومات في العام الحادي والثلاثين من حكمه في شهر يكابيت عند المصريين، وفي شهر فبراير عند الروم، وفي الرابع عشر من دورة القمر، وفي عام ٣٥٧ من تاريخ دقلديانوس. وكان الناس يقولون إن موت هرقل كان بسبب ختم دينار الذهب بصور ثلاثة ملوك، إحداها صورته والاثنتان صورتا ابنه، واحد من الجهة اليمنى والآخر من اليسرى ولم يجدوا مكاناً يكتبون فيه اسم مملكة الروم، وبعد موت هرقل طمسوا هذه الصور الثلاث.

الباب الثاني والخمسون

وظل عمرو رئيس جند المسلمين خارج حصن بابلين، وحاصر الجنود الذين كانوا به وتسلموا رسالة من لدنه، ألا يقتلوهم وأن يتركوا لهم كل عدة الحرب وهي كثيرة. ثم أمرهم أن يخرجوا من الحصن فأخذ هؤلاء قليلاً من الذهب وساروا. وبهذا المنوال تسلم حصن بابلين بمصر في اليوم الثاني من عيد القيامة وجزاهم الرب، لأنهم لم يكرموا آلام الخلاص لسيدنا ومخلصنا يسوع المسيح الذي وهب الحياة لمن يؤمنون به، ولهذا جمعهم الرب بعدهم. وفي يوم عيد القيامة المقدسة هذا أطلقوا المسجونين الأرثوذكسيين ولم يتركهم أعداء المسيح هؤلاء دون أذى، بل أساءوا إليهم وقطعوا أيديهم وكان هؤلاء يبكون ودعمهم يسيل على وجناتهم، واحتقروهم في هذا اليوم كما هو مكتوب في شأن هؤلاء النجسين.

الباب الثالث والخمسون

وعندما استولى المسلمون على حصن بابلين وعلى نقيوس كذلك. كان لدى الروم حزن عظيم. وعندما أنهى عمرو أمر الحرب دخل حصن بابلين، جمع كثيراً من السفن العظيمة والصغيرة وربطها عند الحصن الذي صار به.

وأما «ميناس» الذي كان رئيس العمال، و«قسما بن صمويل» مبعوث «الألوانطس» فقد حاصرا مدينة مصر وضايقا الرومان أيام المسلمين، وصعد المحاربون بالسفن ناحية غرب النهر في عظمة وفخامة، وكانوا يتحركون ليلاً. وكان عمرو ومحاربو المسلمين ممتطين أفراساً، يسيرون برّاً حتى وصلوا إلى مدينة كبرياس في أباديا، ولهذا السبب حارب «دمنديوس» الحاكم. وعندما عرف أن محاربي المسلمين اقتربوا منه صعد إلى سفينة، وهرب بالسفينة وترك الجنود مع سفنهم، وكان يريد أن يعبر إلى نهر صغير حفره هرقل في أيامه. وعندما وجده مغلقاً ذهب ودخل مدينة إسكندرية. ولما رأى الجنود أن حاكمهم فر، تركوا عدة حربهم ونزلوا في البحر أمام أعدائهم، فقتلهم جنود المسلمين بالسيف في البحر، ولم ينج منهم سوى رجل واحد فقط اسمه زكريا، وهو قوي محارب، وعندما رأى ملاحو السفن فرار الجنود هربوا هم ودخلوا مدينتهم.

ثم دخل المسلمون نقيوس واحتلوها، ولم يجدوا أحداً من المحاربين. وكانوا يقتلون كل من وجدوه في الطريق وفي الكنائس، رجالاً ونساء وأطفالاً ولم يشفقوا على أحد.

وبعد الاستيلاء على المدينة ساروا إلى أماكن أخرى ونهبوها وقتلوا كل من وجدوا، ووصلوا إلى مدينة قصا فوجدوا «اسقوطاوس» ومن معه موجودين في ساحة الخمر، فقبض عليهم المسلمون وقتلوهم، وكانوا من أقارب «تيودور»، ولنصمت الآن فإنه لا استطاع الحديث عن الإساءات التي عملها المسلمون حين استولوا على جزيرة نقيوس في يوم الأحد الثامن عشر من شهر جنوب في الخامس عشر من الدورة.

وبتعب كثير ومشقة أسقطوا سور المدينة واستولوا عليها في الحال، وقتلوا

آلافًا من أهل المدينة والجنود، ونهبوا كثيرًا من الأسلاب وأسروا النساء والأطفال، وتقاسموهم فيما بينهم وجعلوا هذه فقيرة. وبعد قليل سار المسلمون إلى مدينة قبروس وقتلوا «إسطفانوس» ومن معه.

الباب الرابع والخمسون

وكانت مصر كذلك مستعبدة للشيطان. وكان بين أهل الوجه البحري خصومة شديدة وانقسموا قسمين: قسمًا انضم إلى «تيودور» وقسمًا آخر أراد أن ينضم إلى المسلمين، وفي الحال نهض قسم على آخر، ونهبوا أموالهم وأحرقوا بلادهم بالنار، وكان المسلمون يخشونهم فأرسل عمرو مسلمين كثيرين إلى إسكندرية، واستولى على كريون وهي خارج المدينة، وهرب «تيودور» مع جنوده، وكان في هذا المكان، وجاء إلى مدينة إسكندرية، وأخذ المسلمون يحاربونهم، ولم يستطيعوا الاقتراب من حصن المدينة بينما كانوا يقذفونهم بالأحجار من أعلى الحصن، وأبعدوهم حتى خارج المدينة.

وكان أهل مصر يحاربون أهل الوجه البحري ويختلفون معهم كثيرًا وكان قليل عقدوا سلامًا. وعندما انتهى بغضهم أنشأ الشيطان بغضًا آخر بمدينة إسكندرية فإن «دومنديانوس» الحاكم و«ميناس» القائد تباغضا فيما بينهما من أجل الرياسة وأسباب أخرى.

وكان «تيودور» القائد يلتقي بـ«ميناس» ويكره «دومنديانوس» لفراره من نقيوس وتخليه عن الجنود.

الباب الخامس والخمسون

ثم نهض كيرس البابا وسار إلى بابليون حيث المسلمون، راغبًا أن يعمل سلامًا وأن يؤدي لهم الضرائب ليدعوا الحرب عن بلاد مصر. فرحب عمرو بمجيئه وقال له: حسنًا فعلت بخروجك إلينا، فأجاب كيرس وقال له: منحكم الرب هذا البلد،

من الآن لا يكون بينكم وبين الروم خصومة، وحددوا عبء الضرائب التي تؤدي، ولم يقل هؤلاء الإسماعيليون شيئاً ما. ومكثوا منفردين أحد عشر شهراً. ورحل الروم الذين كانوا بإسكندرية. أخذوا أموالهم وخزائنها وساروا بحرًا، ولم يعد أحد ثانية من جنود الروم. ومن كانوا يريدون المسير برًا كانوا يؤدون الضرائب كل شهر. وأسر المسلمون لديهم ١٥٠ من الجنود و ٥٠ من أهل المدينة رهينة وعقدوا سلامًا وكف الروم عن حرب المسلمين، والمسلمون عن الاستيلاء على الكنائس ولم يقربوا شيئاً ما من عمل المسيحيين وتركوا العبرانيين يقيمون بمدينة إسكندرية.

ولما انتهى البابا سار إلى بلدة إسكندرية، وقال لـ «تيودور» و«قسطنطين» القائد أن يقولوا هذا للملك هرقل، ويؤيدوه عنده. ثم اجتمع لديه كل الجنود والسكندريين و«تيودور» القائد، وسجدوا لكيرس البابا، وقال لهم كلهم إنه تعاهد مع المسلمين وأرضى قلوبهم كلهم بهذا العمل. وحين صار الأمر هكذا جاء المسلمون لأخذ الضرائب وأهل إسكندرية لا يعلمون. وعندما رآهم السكندريون استعدوا للحرب غير أن الجنود والقادة جلسوا للتشاور، وقالوا نحن لا نستطيع حرب المسلمين، بل يكون كما قال كيرس البابا، وأراد شعب المدينة أن يثوروا على البابا وأرادوا أن يقدفوه بالأحجار، وهو يقول لهم: إنما صنعت هذا لإيقاظكم مع أبنائكم. واستعطفهم بكثير من البكاء والحزن، فاستحى منه السكندريون وأعطوه ذهبًا كثيرًا ليؤديه إلى الإسماعيليين مع الضرائب التي حددوها عليهم. وأهل مصر الذين فروا عادوا إلى مدينة إسكندرية خائفين من المسلمين. وسألوا البابا وقالوا له: تأخذ لنا كلمة من المسلمين أن نعود إلى بلدنا ونخضع لهم.

فعمل لهم كما قالوا، واستولى المسلمون على كل بلاد مصر جنوبًا وشمالًا وضاعفوا عليهم الضرائب ثلاثة أمثال.

وكان رجل اسمه «ميناس» قد عين من قبل هرقل الملك على الوجه البحري، كان عنيد القلب بما لا تعرفه الكتب، يكره المصريين جدًا. وبعد أن أخذ المسلمون كل البلد أبقوه في وظيفته، وعينوا رجلًا اسمه «سينودا» في بلاد الريف، وآخر اسمه «فيليكانوس» عينوه في مدينة أرجاديا التي هي فيوم، وهؤلاء ثلاثتهم يحبون الوثنيين ويكرهون المسيحيين ويضطرون المسيحيين أن يحملوا العلف للحيوان،

ويضطرونهم لحمل اللبن والعسل والفاكهة والكرات وبأعمال أخرى كثيرة. وهذا كله كان مضافاً إلى الطعام، هؤلاء كانوا يفعلون هذا خوفاً دون توقف.

ونهر أندريانوس الذي انطمر منذ زمن طويل جعلهم يحفرونه ليجري به الماء من بابل يون بمصر حتى البحر الأحمر. وحملوا المصريين نيراً أثقل من نير فرعون الذي فرضه على إسرائيل الذي حكم عليه الرب حكم الحق وأغرقه في البحر الأحمر هو مع كل جيشه بعد كثير من العقوبات التي عاقبهم بها من الإنسان حتى الحيوان.

ولما كان حكم الله على هؤلاء الإسماعيليين فقد يصنع بهم كما صنع بفرعون أولاً بل بسبب خطيئتنا صيرهم ليصنعوا بنا مثل هذا، وبالروح الطويلة لإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح يرانا ويحفظنا، ونؤمن أيضاً بأنه يهلك أعداء الصليب، كما يقول الكتاب.

والحق عمرو والخسران ببلاد مصر، وأرسل أهلها ليحاربوا أهل المدن الخمس، وبعد الانتصار عليهم لم يتركهم يقيمون هناك، وأخذ هو منها كثيراً من الغنائم والأسرى وسار «أبو ليانوس» والي المدن الخمس والجنود الذين معه وأغنياء المدينة إلى مدينة دوشرا الآن جدارها منيع، وأغلقوا الأبواب عليهم، وسار المسلمون آخذين الغنيمة والأسرى إلى بلدهم.

وكان البابا كيرس أسيف القلب كثيراً للبؤس الذي كان ببلد مصر، ولم يشفق عمرو على المصريين، ولم يعمل بما تعاهدوا معه لأنه كان من نسل البربر. ولما كان يوم عيد الشعانين مرض كيرس البابا بمرض الحمى لكثرة حزن القلب ومات في اليوم الخامس للفرح، في الخامس والعشرين من شهر مجاييت، ولم يشهد عيد القيامة المقدسة لسيدنا يسوع المسيح.

.....

وبعد هذا قام «تيودور» الحاكم و«قسطنطين» رئيس الجيوش والجنود الباقون وكذلك الجنود الذين كانوا رهينة في يد المسلمين، وصعدوا في سفينة جاءت إلى مدينة إسكندرية. وبعد عيد الصليب عينوا الدياقون بطرس بطريركاً في العشرين من حملي من عيد القديس تيودور الشهيد وأجلسوه على كرسي البطريركية وفي العشرين من شهر ماسكرم قام «تيودور» مع كل الجنود والرؤساء وسار إلى جزيرة

قبرس وترك مدينة إسكندرية، ومن ثم دخل عمرو رئيس المسلمين دون تعب مدينة إسكندرية واستقبله أهل المدينة بتعظيم لأنهم صاروا في فقر وبلاء شديد.

الباب السادس والخمسون

ودخل الأنبا بنيامين بطريرك المصريين مدينة إسكندرية بعد هربه من الروم في العام ١٣ وسار إلى كنائسه وزارها كلها. وكان كل الناس يقولون هذا النفي وانتصار الإسلام كان بسبب ظلم هرقل الملك وبسبب اضطهاد الأرثوذكسيين على يد البابا كيرس وهلك الروم لهذا السبب، وساد المسلمون مصر.

وكان عمرو يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئاً من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئاً ما سلباً أو نهباً، وحافظ عليها طوال الأيام. ولما استولى على مدينة إسكندرية جعل نهر المدينة يابساً كما تعلم من «تيودور» العاصي، وزاد الضرائب قدر اثنين وعشرين عصاً من الذهب، حتى اختبأ كل الناس لكثرة البؤس وعدموا ما يؤدون.

وفي العام الثاني من دورة القمر جاء «يوحنا الدمياطي» الذي عين من لدن «تيودور» الحاكم وعاون المسلمين حتى لا يدمر المدينة، ونصب في مدينة إسكندرية وقت دخول عمرو إليها. وأشفق يوحنا هذا على الفقراء وأعطاهم مالاً كثيراً من ماله. وحين رأى بؤسهم أشفق عليهم، وكان يبكي ألماً لما أصابهم، وأقصى عمرو «ميناس» وعين يوحنا بدله، و«ميناس» هذا زاد على المدينة الضرائب التي حددها عمرو ٢٢٠٠٠ (اثنين وعشرين ألف) دينار ذهب وما فرضه العاصي كان ٣٢٧٥٠ (اثنين وثلاثين ألفاً وسبعمائة وخمسين) دينار ذهب وجعلها للإسماعيليين، ولم يستطع أحد التحدث عن البكاء والنواح الذي كان في هذه المدينة حتى قدموا أبناءهم بدلاً من الآلاف التي كانوا يقدمونها كل شهر، وانعدم من يساعدهم وقطع الرب رجاءهم (ورد المسيحيين إلى يد أعدائهم) لكن رحمة الرب القادرة تلحق الخسران بالذين يحزنوننا.

رحلة الانصهار

تقديم

بعد الرحيل

«حكايات الدخول»، كانت الجزء الأول من «هوامش الفتح العربي لمصر»، والآن، فإن «رحلة الانصهار» هي الجزء الثاني من هوامش الفتح. والمادة التي جمعت، والمراجع التي رجعت إليها المؤلفة، تدل على أنه كان مشروعاً طموحاً، ولكن كان للقدر كلمة أخرى، هو الآن مشروع لم يكتمل، ولكنه برغم ذلك - وبحالته هذه التي ينشر بها في هذا الكتاب - بحث مهم جداً للمؤلفة تعتقد أن الحقيقة وحدها ثورية بطبيعتها وأنها الأولى بالاتباع لكل باحث نزيه.

وقصة «رحلة الانصهار» تبدأ بحافظة جلدية لونها نبيتي، كانت سناء تصطحبها معها في جولاتها في مكتبات مدينة القاهرة، وتجمع فيها «كروت» بحثها. في هذه الحقيقة وجدنا مادة غزيرة مسجلة على «كروت» البحث، أول ما فعلناه، هو أننا سجلنا المراجع المهمة والعديدة التي رجعت إليها الباحثة، ثم بدأنا في قراءة «كروت» البحث، وكان من عادة سناء أن تكتب المسودة الأولى في أثناء جمع المادة، لذلك وجدنا كراساً من كرايس تلامذة المدارس منقطعاً بزهور صغيرة بنية اللون، وفي الوسط رسم لقلب باللون الأحمر مكتوب عليه بالفرنسية «قلب البروفانس» (Cœur de Provence)، في هذا الكراس كتبت سناء سبعين صفحة تمثل بعض فصول كتابها، ورقمتها من أول صفحة مباشرة من ١ إلى ٦٩، وعلى باطن غلاف الكراس كتبت مقدمة قصيرة ولكنها شافية. واضح أن كل هذا كان مسودة أولى لبعض الفصول. وعلى أحد «كروت» البحث، تصحح سناء خطأ تاريخياً وقعت

فيه الكاتبة سلوى بكر في رواية «البشموري»، وعلى أربع صفحات «فولسكاب» وضعتها سناء وسط الكراس، كان هناك بحث عن المكان الأصلي للبشموريين. ناقشت فيه ما اختلف عليه الباحثون الجدد والمؤرخون القدامى حول الموقع الجغرافي للبشامرة، ووصلت لنتيجة تحدد فيها موقعهم بدقة.

في هذا الكتاب، نشر المخطوطة الأصلية، كما هي دون أي تدخل من جانبنا، ونلحقها بملحق فيه تصحيحها لسلوى بكر، وملحق فيه بحثها عن موقع البشموريين، كما نشر الجداول التي جمعتها والتي وضعتها، وفي آخر الكتاب نشر أسماء المراجع التي رجعت إليها، أي أننا لم نفعل سوى نشر ما كتبه سناء، حتى الملاحظات في الهوامش هي لها، فيما عدا عدد قليل من الملاحظات، رأينا أن نضيفها من جانبنا، ووقعنا بجانبها بالحرفين (و، أ).

وبرغم أن هذا المشروع لم يكتمل، فنحن نعتقد أنه عمل رائع، ينبض بنبض كاتبة جسور، لم تهتم أبداً بشيء في هذه الحياة سوى بالحقيقة، وكانت منسجمة مع نفسها حتى النهاية، وكل من يقرأ كتابتها، يلمس هذه الروح السارية في سطورها، حيث يصبح التاريخ، ليس مادة ميتة مملة، بل حياة تتخلق أمام أعيننا، تنبض وتشع حماسة، وتألق وعياً.

وفي النهاية، البحث أمام القارئ ليحكم عليه، ولا ننسى هنا أن نوجه شكرنا وامتناننا إلى الأنسة مها العوضي، التي بإخلاصها المعهود وجديتها، بذلت معنا مجهوداً كبيراً في نسخ المخطوطة الأصلية بخط واضح حتى يمكن طباعتها، وكذلك أسهمت في تكملة البيانات الناقصة لبعض المراجع.

وفاء المصري

إبراهيم الباز

مقدمة

مرة أخرى، ليس هدفي من مواصلة البحث في تاريخ فتح مصر وما تلاه من الحكم العربي لمصر إبراز مساوئ الفتح والحكم كما قد يتصور البعض. ولا الانتصار للشعب القبطي كما يتصور البعض الآخر. ولكنني قصدت البحث عن إجابة لسؤال شغلني كثيرًا، كيف حدث الانصهار بين العرب الوافدين من الشرق، والمصريين المقيمين في الأرض؟ فتغيرت اللغة والدين والمعتقدات وأصبحت شعبًا واحدًا ممتزجًا لا تستطيع أن تميز أحد عنصريه عن الآخر إذا ما سنحت لك الفرصة ورأيته مجتمعًا في مكان عام.

وبالتأكيد فإن رحلة الانصهار لم تكن سهلة يسيرة، وإنما مرت بأطوار العنف حينًا، والمهادنة حينًا آخر، القمع والسياسة، الضغط والبحث عن طريق للتفاهم، الصراع والملاينة، الرفض والقبول، ثنائيات كثيرة وطويلة استغرق الصراع بينها عدة قرون لا يجب الاستهانة بها في تاريخ أمة، ولذلك فإن الكتابة عن أحدها دون الآخر هو الظلم بعينه، الكتابة عن غنائيات التسامح الإسلامي القادم على صهوات الجياد دون النظر إلى حالة الشعب المقيم، خلل في التفكير يؤدي غالبًا إلى نتائج ظالمة، والتأثر فقط ببيكائيات الشعب المهزوم خلل آخر يعوق فهم الحالة ويتركنا أسرى حالة عاطفية مشوهة ومنقوصة.

مائة سنة مقاومة

ربما أكثر من مائة عام، دخل قبط مصر خلالها في ثورات متتالية ضد حكامهم من العرب، ولأنها كانت ثورات كبيرة لم يستطع المؤرخون العرب إغفالها. وإن حاولوا التقليل من شأنها بذكرها عرضاً في جملة أو جملتين تبدأ عادة بكلمة «انتقض القبط»، التي هي من نقض العهد، وكأنه كان هناك إجماع على عهد ما متفق عليه بين القبط المحكومين من جهة والعرب الحاكمين من جهة أخرى. ويمكننا تتبع هذه الثورات من خلال كتابات ثلاثة مؤرخين كبار، اثنان منهما عريان والثالث قبطي وهم على التوالي: الكندي وابن المقفع والمقرئزي، فالكندي هو أول المؤرخين العرب الذين وصلت إلينا كتاباتهم عن هذه الثورات، بعد أن تجاهلها ابن عبد الحكم في كتابه «فتوح مصر وأخبارها» كما تجاهلها غيره.

وقد ولد أبو عمر محمد بن يوسف الكندي عام ٢٨٣هـ في الفسطاط لأسرة عربية تنتمي إلى عشيرة تجيب من قبيلة كندة، وأسرته لم تقطن الريف كما فعل كثير من الأسر في القرن الثالث الهجري، بل ظلت تتخذ من الفسطاط مقاماً لها، فنشأ الكندي في كنف الأرسقراطية العربية وتلقى علوم القرآن والحديث والفقه والسير وغيرها من علوم العرب كشأن جميع أترابه في ذلك الحين، وقد تتلمذ على يد ابن قديد المؤرخ الذي كان قد تولى الرواية مباشرة عن ابن عبد الحكم^(١) وتوفي عام ٣١٢هـ.

(١) وربما كان لابن عبد الحكم تأثير غير مباشر في حفظ تاريخ ثورات مصر ورواياتها شفاهة دون تدوينها.

ومصادر الكندي جميعاً في كتابه «الولاية والقضاة» من العرب مثل الليث وابن لهيعة ويحيى بن عثمان وابن عفير وغيرهم، وقد بدأ الكندي الإشارة إلى ثورات القبط منذ عام ١٠٧هـ، في معرض حديثه عن ولاية الحر بن يوسف وما وقع فيها من أحداث. أما ساويروس بن المقفع صاحب كتاب «تاريخ البطارقة» فهو كما رأينا في الجزء الأول من هذا الكتاب صوت رسمي للكنيسة المصرية، وحياته بدأت بين سنتي ٩٠٥-٩١٠م وتربى تربية دينية، ثم التحق بوظيفة كاتب في بلاط الدولة الإخشيدية حتى أصبح كاتباً ماهراً في ديوان الخليفة، ولأسباب غير معروفة ترك أبو البشر بن المقفع وظيفته وكل ما يتعلق بالحياة الدنيوية وترهب في أحد الأديرة، ثم أصبح أسقفاً على مدينة الأشمونين وغيّر اسمه فعرف بأبنا ساويروس، وله كتب كثيرة، وقد جمع ساويروس سير بطارقة الكنيسة من الأديرة المختلفة وعمل على ترجمتها وصياغتها من جديد لأنه كما يقول: «إنه لو اوجب علينا الاستقصاء والبحث عن جميع سير البيعة كما كان آباؤنا المتقدمون يفعلون»^(١).

وقد نقل ساويروس عن مقار الراهب، ونقل عن يوحنا ابن أبي موسى أسقف وسيم، ويوحنا بن الرعد وغيرهم. وسنرى عند مقارنة تواريخ الكندي بتواريخ ساويروس بن المقفع اتفاقهما العجيب فيما يخص أحداث الثورات القبطية، على الرغم من اختلاف مصادر كل منهما عن الآخر، وعلى الرغم من أن أحدهما عربي المنشأ والأصول والتربية والانحياز وقد كان يعيش في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي وتوفي ٣٥٠هـ-٩٦١م، والآخر قبطي المنشأ والأصول والتربية والتفكير والانحياز وقد عاش في القرن العاشر الميلادي / الرابع الهجري.

أما ثالث المؤرخين الذين سنعتمد عليهم فهو تقي الدين أحمد بن علي المقرئ المولود بالقرن الرابع عشر الميلادي / الثامن الهجري في حارة برجوان في القاهرة، والمتوفى بها سنة ١٤٤٢م-٨٤٥هـ وهو في سن الثمانين.

وعلى الرغم من أن أسرة المقرئ وفدت حديثاً في حياة أبيه من موطنها في بعلبك إلى القاهرة، إلا أنه أكثر المؤرخين انتماءً إلى مصر؛ حيث تلقى علومه بالقاهرة وتلمذ فيها عدة سنوات على يد ابن خلدون، ثم التحق بديوان الإنشاء بالقلعة كاتباً، وعمل

(١) ساويروس بن المقفع، تاريخ البطارقة، المجلد الأول، ص ٢١٢.

بالقضاء، ثم إمامًا لجامع الحاكم الفاطمي ومدرسًا للحديث، ثم محتسبًا للقاهرة والوجه البحري «واستقى المقرئ مادته تباعًا من سلسلة متصلة المصادر تبدأ بابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧هـ، وتنتهي بابن المتوج المتوفى سنة ٧٣٠هـ، مسندًا كل اقتباس إلى مؤلفه: الكندي، القضاء، ابن بركات النحوي، الجاوني، ابن عبد الظاهر، ابن زولاق، المسيحي، ابن المأمون»^(١).

وقد أفرد المقرئ في كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» فصلًا بعنوان «ذكر انتقاض القبط وما كان من الأحداث في ذلك» ينقل فيه عن الكندي في كتابه «ولاة مصر».

وقد نقل عن المقرئ من أتى بعده من المؤرخين مثل ابن تغري بردي الأتابكي وابن إياس والسيوطي وغيرهم، حتى إنه يعتبر عمدة المؤرخين العرب المهتمين بشؤون قبط مصر متمثلًا فيما كتبه عن ثوراتهم وطرق حياتهم وكنائسهم وأديرتهم وكل ما يخصهم. ويبدو أن المقرئ لم يكتفِ بالاطلاع على كتابات من سبقوه من المؤرخين العرب، بل تيسر له الاطلاع على كتاب ساويروس بن المقفع وربما كتابات قبطية أخرى، ونقطة البدء لدى المؤرخين العرب الكندي والمقرئ هي عام ١٠٧هـ زمن الانفجار الأول للثورة القبطية الكبرى. أما ساويروس فينفرد بذكر أسبابها ومقدماتها المتمثلة في ظلم وقسوة الولاة ومسؤولي الخراج وشدتهم في جمع المال بما لم يُسمع بمثله من قبل - وتقتضي الحال هنا أن نعود إلى النظر في أحداث الدولة الأموية وما وقع فيها على أقباط مصر - ومن خلال تتبعه لسيرة البابا ألكسندروس الثاني، البابا رقم ٤٣، والذي انتخب بعد أن ظل كرسي البابوية خاليًا بلا بطريك يرعى شؤون الشعب القبطي والكنيسة الأرثوذكسية حوالي ثلاثة أعوام، وحينما أتيحت الفرصة اختار الكهنة والقسس ألكسندروس، وكان راهبًا في دير الزجاج: «وقد صودرتين أخذ منه فيهما ستة آلاف دينار نقرة، فكانت أول جزية أخذت من الرهبان خلافًا للعهد؛ قال أصحاب التواريخ: واشتد عبد الله بن عبد الملك بن مروان على القبط بمصر وضيق عليهم واقتدى به قره بن شريك أيضًا في ولايته على

(١) محمد مصطفى زيادة، وآخرون، دراسات عن المقرئ.

مصر فقتلا وأحرقا وخربا وأراقا الدماء بحورًا وأنزلا بالنصارى شدائد لم يتتلوا بمثلها فكانت أيامهما كلها بلايا وإحنا، ورزايا ومحنا»^(١).

ويفصل ساويروس تلك المحن بقوله إن قرّة بن شريك والي مصر «أحضر البطرك وهم بقتله بسبب يمينه أن ليس معه ذهب، ولما أخذ منهم الأربع كيزان هرب جميع أصحاب البطرك، مثل الحواريين ذلك الزمان، فلما أحضروا البطرك إليه صر بأسنانه عليه، وأراد قتله فمنعه الرب عنه، فكبّله بالحديد وطرحه في السجن، فأقام سبعة أيام، ثم بعد هذا ألزمه أن يقوم بالثلاثة آلاف دينار، ولحقه تعب عظيم وضيق إلى أن تخلصت له ألف دينار»^(٢).

ولم تنته محنة البطريك بدفعه الألف دينار، حيث وشى به بعض الناس وقالوا إن: «عنده قومًا يضربون الدنانير وإن عنده سكة»، فاستشاط قرّة غضبًا وأمر جنده بالقبض على البطريك «فيما هو جالس في تاسع ساعة من النهار في بعض الأيام يفطر ليس عنده علم إلا وقد أحاطوا بالأسقفية وأن أهل مدينة الإسكندرية والكاتب بأمر قرّة قد قبضوا عليه وعلى أصحابه وطرحوه على الأرض وضربوا أصحابه وعوقبوا حتى سالت دماؤهم إلى الأرض، وكادوا يموتون من العقوبة، ووجدوا ما سعوا به عليه باطلاً»^(٣).

ثم جاء عيد الفصح وطلب الكهنة والشعب القبطي من البابا «أن يقوم لهم برسوم وديارات في ثالث عيد الفصح، ولم يكن له شيء يدفعه لهم، وكان يقول لهم يا إخوة قد نظرتم نهب جميع مال البيعة حتى الكاسات اللاتي يدفع فيهن الدم الزكي جعلنا عوضًا من الذهب والفضة كاسات زجاج والدسقاب خشبًا من أجل نهب قرّة لهم».

وظلت محنة البطريك قائمة حتى تقدم إنسان أرخن، والأرخن هو كبير القوم وسيدهم ويُقصد به الغني ذو الشأن والنفوذ بين القبط، وغالبًا ما كان أغنياء القبط يحتلون وظائف مهمة في ديوان الكتابة والخراج ويعملون لدى الولاة المسلمين

(١) ميخائيل شاروويم، الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث.

(٢) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه، ص ١٤٥.

(٣) المصدر السابق.

لمعرفتهم بشؤون البلاد وأسرارها، فكانوا بذلك مفتاح سيطرة الحكام العرب على الشعب القبطي في القرى القريبة والبعيدة. كما كانوا في نفس الوقت واسطة العلاقة بين الحكام ورجال الكنيسة. ولذلك فقد تقدم هذا الأرخن «السيد» واسمه يؤنس وقد «رزقه الله قبولاً عند الولاة» ويجب ألا ننسى أنهم نفس الولاة الذين يشتدون على الشعب القبطي وعلى رجال كنيسته ويسومونهم سوء العذاب، ويؤنس الذي ارتقى بماله وارتفع فوق عذابات شعبه، وكان له ذلك القبول والنفوذ عند والي «مضى إلى قرّة وقال له يجب أن تعلم أن الرهبان والأساقفة الذين في سائر الأماكن قد ثقل عليهم الخراج وها هنا أمر سهل، منهم من هو مكثر ومنهم من لا يقدر على قوته ونحن نعرف حال سائر النصارى فإن رأيت أن توليني أمرهم استخرجت الخراجات، فولاه على الأساقفة والرهبان»^(١).

ومضى هذا السيد القبطي يجمع الأموال من الأديرة المختلفة مستنداً إلى قوة الحكم وجبروته، ويبدو أنه كانت تنتشر بين رهبان ذلك الحين آراء مذهبية مختلفة منها مقالات الغايانيين والشمطيركيين فقضى عليها يؤنس مستنداً إلى قوة والي ويده الباطشة.

وبرغم ما جمعه هذا الأرخن «السيد» للوالي من الأديرة والرهبان فإن نهم قرّة إلى المال لم يشبع، ودارت دائرته على أصدقائه المتعاونين معه من الأراخنة «وكان كل أرخن يموت يأخذ جميع ماله، وكان قد مات صاحب ديوان الإسكندرية وبقيرة الذي كان كاتباً من تنيس وجماعة لا يحصون من مصر وأخذ مالهم، حتى الأساقفة أخذ ميراث الجميع وزاد على البلاد مائة ألف دينار سوى خراجها المعروف، وكان الناس يهربون ونساؤهم وأولادهم من مكان إلى مكان ولا يؤويهم موضع من أجل البلايا ومطالبات الخراج، وعظم ظلمه أكثر ممن تقدمه ثم إنه ولى إنساناً اسمه عبد العزيز من مدينة سخا، وكان يجمع الذين يهربون من كل موضع ويردهم ويربطهم ويعاقبهم ويعيد كلاً منهم إلى موضعه وكان على الناس بلايا عظيمة»^(٢).

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

ولم يلبث قرّة بن شريك أن ذاق بعض ما سببه لأهل مصر ومات في الوباء الذي حل بالبلاد وأباد أعدادًا ضخمة من البشر، ويقول ساويروس بن المقفع إنه «من بعد موت قرّة أنفذ الوليد عوضه إلى مصر واليًا اسمه أسامة، فلما وصل الفسطاط التمس علام جميع الكور وكتبها بالعربي وكان كثير الفهم، فلما بدأ بذلك حدث غلاء عظيم لم يُسمع بمثله من الجيل الأول، ومات في ذلك الغلاء أكثر ممن مات في الوباء، وأشرف جميع الأغنياء والفقراء على الموت».

وهنا نجد اختلافًا بين ساويروس والكندي الذي يكتب أنه بعد وفاة قرّة بن شريك عين الخليفة على ولاية مصر - جندھا وخراجھا - عبد الملك بن رفاعة بن خالد الفهمي ويبدو أن سبب الخلاف يعود إلى اهتمام ساويروس بتتبع سلسلة المشتدين على القبط في جمع الخراج، والكندي يهتم في الكتاب بتتبع سلسلة الأشخاص الذين تولوا منصب الولاية، وبذلك يكون التالي بعد قرّة هو عبد الملك بن رفاعة، والوالي يعين بعد ذلك شخصًا ينفذ سياسته في جمع الخراج. وبذلك يكون هو المسؤول أمام الخليفة في العاصمة عن السياسة المالية للبلاد وآخر مسؤول أمامه عن التنفيذ بالداخل.

ويقدم لنا المقرئ في كتابه «المقفى الكبير» معلومات أكثر عن أسامة بن زيد التنوخي الذي يذكره ساويروس ويتجاهله الكندي فيقول: «كان على ديوان الجند بدمشق في زمان الوليد بن عبد الملك. ثم ولي خراج مصر في زمن الوليد، فقدمها يوم السبت لإحدى عشرة خلت من شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين. ثم نُزع في شهر ربيع الآخر سنة تسع وتسعين، وأمر على الخراج عوضه حيان بن شريح من قبل عمر بن عبد العزيز»، فظل مسؤولًا عن خراج

عن أوراق البردي: «من قرّة بن شريك إلى بسيل صاحب أشقوه، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد فإنك قد علمت الذي كتبت إليك به من جمع المال والذي قد حضر من عطاء الجند وعبالهم وغزو الناس، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ في جمع المال فإن أهل الأرض قد حموا منذ أشهر، ثم عجل إليّ بما اجتمع عندك من المال بالأول فالأول، ولا أعرفك ما حسبتنا بما قبلك؛ فإن أهل الأرض قد فرغوا من الحرثة وصلحت أفراطهم».

مصر حوالي ثلاثة أعوام وعُزل في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز، «ثم أعيد أسامة إلى ولاية الخراج في سنة اثنتين ومائة، وصرف حيان، فأقام على الخراج إلى سنة أربع ومائة»^(١).

وعاصر أسامة بن زيد أواخر زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك بالإضافة إلى زمن سليمان بن عبد الملك الذي أوصاه بقوله: «احلب حتى ينقيك الدم. فإذا أنقاك الدم حتى ينقيك القيح. لا تبقيها لأحد بعدي»^(٢).

وقد عمل أسامة بوصية الخليفة وبدأ عملاً ما عمله فرعون، واشتد «على نصارى مصر، وأمر بقتلهم وأخذ أموالهم، ووسم أيدي الرهبان بحديدة عليها اسمه - الراهب - واسم ديرِه وتاريخه، فكان من وجد منهم بغير وسم قطع يده، ثم كبس عليهم الديارات، فوجد جماعة منهم بغير وسم، فضرب أعناق بعضهم، وضرب بعضهم حتى مات تحت الضرب. وكتب إلى الأعمال بأن من وجد من النصارى ولم يكن بيده منشور يؤخذ منه عشرة دنانير»^(٣).

ويقدم ساويروس بن المقفع تفصيلاً أكبر للعذاب الذي نزل على قبط مصر على يدي أسامة بن زيد بقوله: «وكان في سنة ست وتسعين للهجرة قلق على الرهبان، وضيق على المؤمنين، وإذا ظهروا بهارب أو غير موسوم قدموه إلى الأمير، فيأمر بقطع أحد أعضائه ويبقى أعرج، ولم يكن يُحصى عدد من شوه به على هذه القضية، وحلق لحي كثير بالسياط، وكان من محبته للدنانير يأمر الولاة أن يقتلوا الناس ويحضرُوا إليه مالهم، ويكتبهم ويقول سلّمت لكم أنفس الناس فتحملوا ما تقدرون عليه من أساقفة ورهبان أو بيع أو كل الناس، فاحملوا القماش والمال والبهايم وكل ما تجدونه لهم ولا تراعوا أحداً، وأي موضع نزلتموه فانهبوه، وكانوا يخربون المواضع ويقلعون العمود والأخشاب ويبيعون ما يساوي عشرة دنانير بدينار حتى صارت الفضة خمسة وثلاثين درهماً بدينار، وكان من معه شيء يخاف عليه

(١) المقرئ، المقفى الكبير، الجزء الثاني، ص ٣٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٩.

(٣) المقرئ، المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.

أن يظهره لئلا يعاقب، ومن الضيق والظنك هم الناس بيع أولادهم وإذا أعلموا الأمير بهذا لم يرق قلبه ولا يرحم بل يزيد فيما هو فيه»^(١).

ولم تنته تلك الشدة العظمى إلا بموت الخليفة سليمان بن عبد الملك وتولى الخليفة عمر بن عبد العزيز فأمر بأن توضع «طوبة حديد في رجلي أسامة البائس وخشبة في يديه وجعله في الحبس»^(٢).

وحل الاطمئنان مدة قصيرة «وكانوا النصارى في أمن وهدوء والبيع، ثم من بعد ذلك بدأ يفعل السوء وكتب كتاباً إلى مصر مملوءاً غمّاً» فماذا كتب الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى واليه أيوب بن شرحبيل حتى يسبب هذا الغم لقطب مصر؟ لقد أمره بأن ترفع الجزية عمن يدخل في دين الإسلام على أن يحمّل مقدار الجزية الذي كان يدفع من قبل، ويلزم به من بقي على دين المسيحية، ويقال إنه أمر بأن تحمل جزية موتى القبط على أحيائهم وأعلن أن «من أراد أن يقيم في حاله وبلاده فليكن على دين محمد مثلي ومن لا يريد فليخرج من أعمالي»^(٣).

ويقول الكندي بأنه قد «نزعت موازيت القبط عن الكور، واستعمل المسلمون عليهم، ومنع النساء الحمامات»^(٤).

وأمام تلك الضغوط المادية المتمثلة في زيادة الضرائب، والضغوط المعنوية المتمثلة في فكرة إخراج غير المتحولين إلى الإسلام من بلادهم، أشهر بعض الناس إسلامهم حفاظاً على أموالهم وممتلكاتهم وأراضي أجدادهم التي يقطنونها من قدم الأزل.

لكن القدر لم يمهل عمر بن عبد العزيز لينفذ تلك الأحكام ومات بعد فترة قصيرة. ويقال إن الأمويين قد سموه - لأسباب أخرى لا تمت إلى سياسته مع القبط بصلة،

(١) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه، ص ١٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٨.

أما عن مقدار المكوس التي فرضت في مصر في عهد خلافة عمر بن عبد العزيز فقد تناول أبو يوسف الكلام على ذلك في «كتاب الخراج»: «وقد فرض على المسلمين دينار واحد عن كل ٤٠ ديناراً واتبعت هذه النسبة في كل مبلغ».

(٣) المصدر السابق.

(٤) الكندي، الولاة والقضاة.

ولكن لتضييقه على أفراد البيت الأموي وشدته عليهم - وتولى من بعده الخليفة يزيد بن عبد الملك، فإذا به يعود إلى سياسة الاضطهاد المكشوف للقبط ويلغي القوانين العمرية، ويفرض على الكنائس والأديرة والأوقاف «الأواس» والرهبان الجزية والخراج مرة أخرى، ثم أمر بكسر الصلبان في كل مكان وكشط الصور التي في البيع، لما تمثله تلك الصور والتماثيل من علاقة بالأفكار الوثنية. ويذكر الكندي واقعة محو الصور بقوله:

وكتب يزيد بن عبد الملك في سنة أربع ومائة يأمر بكسر الأصنام فكسرت كلها، ومحيت التماثيل، وكسر منها صنم حمام زبان بن عبد العزيز الذي يقال له حمام أبي مرة، وله يقول كريب بن مخلد الجيشاني:

من كان في نفسه للبيض منزلة فليأت أبيض في حمام زبان
عبل لطيف هضم الكشح معتدل على ترائبه في الصدر ثديان

وانقضت أيام حنظلة التي كانت مرة على قبط مصر كاسم واليها بانقضاء حياة الخليفة يزيد بن عبد الملك، واستبشر القبط خيرًا بصعود هشام بن عبد الملك إلى سدة الخلافة لأنه كتب «يأمر بأن تدفع لكل من يزن الخراج براءة باسمه حتى لا يظلم أحد ولا يكون في مملكته ظلم فأعطاه الله مملكة جديدة، فأقام اثنتين وعشرين سنة ملكًا ولم تقم عليه حرب»^(١).

ويذكر ساويروس أن هشام بن عبد الملك وثق علاقته بالبطركيين المسيحيين، (القبطي والملكاني)، وقربهما إليه، خصوصًا بطريك الكنيسة الأرثوذكسية بدمشق لأن مقرها كان قريبًا من قصر الخليفة وهو يسعد بسماع ترانيمها ليلاً.

وبرغم تلك الصداقة الفوقية عين الخليفة مسؤولاً عن الخراج في مصر يدعى عبيد الله بن الحبحاب، في ظل ولاية الحر بن يوسف، «فلما وصل إلى مصر أمر بأن تحصي الناس والبهائم وأن تقاس الأراضي والكروم بحبال القياس ففعل ذلك، وأن يجعل طابع رصاص في حلق كل الناس من ابن عشرين سنة إلى من عمره مائة سنة، وأحصاهم وكتبهم جميعهم ودوابهم من الصغير إلى الكبير، والأراضي الوكس التي هي صعبة التي تنبت حلفًا وشوكًا، وبنى أميالاً في وسط الغيطان على

(١) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه.

الحدود والطرق في جميع أرض مصر وأضعف الخراج»^(١). وكان «لا يبيع أحد ولا يشتري إلا من كان على يده علامة الأسد»^(٢).

ولكن لماذا اختار العرب تلك العلامة بالذات ليسموا بها القبط؟ الأسد هو الملك الذي لا يفوقه آخر في القوة والشجاعة، إنه رمز الحاكم المسلم الذي يرى في نفسه تلك الصفات ويدمج محكوميه بصورته المنتقاة إشارة إلى وقوعهم تحت أسر الدائم وسطوته المطلقة.

ومع ذكر أعمال عبيد الله بن الحبحاب يصل ساويروس إلى ذكر ثورة عام ١٠٧هـ، التي يتفق المؤرخون العرب على أنها أولى ثورات القبط.

ولم تكن كل تلك المظالم السابقة التي تعرض لها القبط على أيدي الولاة وجبة الخراج إلا مقدمات للانفجار الكبير الذي حدث عام ١٠٧هـ، بعد أن كتب عبيد الله بن الحبحاب إلى جميع أنحاء مصر «بأن تحشد له جماعة من الناس يشغلهم فيما يريد»، وكأن كل إجراءات جمع الخراج والجزية ليست بكافية حتى يضيف إليها مظالم السخرة والعمل الإجباري في عملية إعادة بناء مدينة الفسطاط، «حتى إن الناس هلكوا من التعب من كثرة ما أشغلهم، فلما عظم التعب والقيام بالخراج الذي أضعفه عليهم ثارت حرب على النصارى والمسلمين حتى سفكت دماء كثيرة بأرض مصر، أولها في مدينة بنا ومدينة صا ومدينة سمنود وما يجاورهن ومواقع كثيرة في أسفل الأرض وكذلك كان في الطرق والجبال والبحار»^(٣)، وكان اضطراب في كل كورة مصر كما يقول ساويروس.

أما الكندي فيذكر أحداث هذه الثورة بقوله: «وفي إمرة الحر كتب عبيد الله بن الحبحاب صاحب خراجها إلى هشام بأن أرض مصر تحتل الزيادة، فزاد على كل دينار قيراطاً فانتفضت كورة نتو، وتمي، وقريط، وطرايبة، وعامة الحوف الشرقي، فبعث إليهم الحر بأهل الديوان، فحاربوهم فقتل منهم بشر كثير»^(٤).

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الكندي، المصدر نفسه، ص ٩٥.

ولم يكتفِ الوالي وأهل ديوانه - والمقصود بهم الجيش العربي الذي يتلقى عطاءه من بيت المال - بمحاربة الثوار وقمعهم في مواطنهم الطبيعية، بل إنه عمم العقاب لأن ساويروس يشير إلى أن «الوالي دخل الإسكندرية ليسم الناس، فقبض على البطرك ليسمه فامتنع فلم يدعه الوالي»^(١).

وهنا ينقطع حديث ساويروس عن أحداث الثورة ومتابعة تفاصيلها وينشغل بأمر البطريك وما كان بينه وبين الوالي: «والتمس البطرك المضي إلى الملك فلم يجبه إلى ذلك، ثم بعد مدة أنفذ البطرك إلى مصر مع جند يوصلونه إلى عبيد الله، فلما حضر بين يديه عرفه سبب حضوره فلم يتركه بغير وسم»^(٢).

وطلب البطريك من عبيد الله أن يمهلّه ثلاثة أيام فأجابه وأمهلّه، ظل البطريك يصلي في محبسه ثلاثة أيام حتى يموت قبل أن يتمكن الوالي من وسمه، وأن الله استجاب دعاءه ولم يمكن أعداءه منه. فأنقذ من عقاب الوسم - الذي هو الختم بالرصاص أو بغيره في رقبة أو يده - بفضل الموت محرر البشر أجمعين، بعد أن ظل أربعاً وعشرين سنة ونصفاً على كرسي البطريكية. وقد استهلك عبيد الله بن الحبحاب زمن البطريك الجديد، ويدعى «قسما»، وكان لا يتجاوز الخمسة أشهر، وجزءاً كبيراً من زمن البطريك تاودروس، وهو البابا رقم ٤٥ في تاريخ الكنيسة، في مواصلة سياسة العنف والشدة حيث «كان عبيد الله الملك بمصر ينزل عذاباً وبلايا وخسارات على أهل مصر، وأضاف على كل دينار من الخراج ثمن دينار وكان يحدث أموراً على الناس حتى إن الدينار قل وعز. ولما تمادى على ذلك لم يصبر الله عليه لكن أثار عليه قومًا من مقدمي المسلمين مضوا إلى هشام وعرفوه الشرور التي يفعلها وما أحدثه من البلاء في مصر فامتلاً عليه غيظاً وكتب للوقت بعزله»^(٣).

ويجب ألا نتمادى في حسن الظن ونعتقد أن عزل عبيد الله عن خراج مصر جاء سهلاً هكذا بمجرد شكوى بعض مقدمي المسلمين أو رؤسائهم

(١) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

منه للخليفة، فهو الذي جعل البقرة تحلب لهذا الخليفة كما لم تحلب من قبل، ولذلك كان من السهل عليه التضحية بالآخرين حتى لا يعكروا على جابي الخراج انطلاقه في عمليات الحلب التعسفي. فنحن نفهم من الكندي أن الخليفة هشام بن عبد الملك ضحى بالحر بن يوسف والي مصر حينما دب النزاع بينه وبين عبيد الله، «وفي سنة ثمانٍ ومائة تباعد ما بين الحر بن يوسف وعبيد الله بن الحبحاب صاحب الخراج، وكتب عبيد الله إلى هشام يشتكي الحر. وكتب الحر يستعفي من ولايتها، فصرفه هشام في ذي القعدة سنة ثمانٍ ومائة»، وبهذا ذهب الوالي وبقي متولي الخراج.

ثم اعترض عبيد الله على الوالي الجديد حفص بن الوليد، فلم يمكث سوى جمعيتين على كرسي الولاية وعزل هو الآخر، بعد أن كتب عبيد الله بن الحبحاب متولي الخراج إلى الخليفة قائلاً: «إنك لم تعزل الحر إذ وليت حفصاً».

واستجاب الخليفة لرغبة متولي الخراج للمرة الثانية وعزل حفصاً أيضاً، بل زاد الخليفة في إطلاق يد جابي الخراج وتدعيم سطوته على مصر بأن فوضه لاختيار والٍ جديد لمصر، فاختار عبد الملك بن رفاعه الذي انسحب من ميدان الصراع على السلطة بعد فترة قصيرة من الولاية لم تتعد الخمسة عشر يوماً حيث وافته المنية، فتولى بعده الوليد بن رفاعه أمور الولاية، وظل عبيد الله بن الحبحاب على الخراج ليهلك بذلك أكثر من ثلاثة ولاة من المسلمين، وثلاثة بطارقة من القبط، وشعباً بأكمله من المصريين ظل يصرخ من كثرة المظالم وشدة القمع.

وظل عبيد الله يخطط وينفذ السياسة المالية، وتعدى نفوذه ذلك إلى رسم السياسات العامة لولاية مصر، وربما نلاحظ أن ساويرس يسميه عبيد الله الملك، وليس مجرد مسؤول الخراج، أو صاحبه كما كان يسمى السابقين عليه.

وقد رأى عبيد الله بدعائه السياسي أن أفضل وسائل القضاء على الثورات القبطية في مهددها وقبل اندلاعها هو إحلال القبائل العربية الموالية للخليفة في مناطق الخطر لتسكن وتعمل وتستقر وتغير طبيعة المكان والسكان من مناطق ثورات قبطية إلى مناطق نفوذ عربي، فهو صاحب فكرة نقل قبيلة قيس إلى مصر وخصوصاً في منطقة الحوف الشرقي التي اندلعت فيها ثورة القبط بهدف كسر شوكة القبط في مواطنهم

الأصلية، وكتب بذلك رسالة إلى هشام بن عبد الملك يشرح له فيها حال المنطقة من وجهة نظره فيقول: «وفيها كور ليس فيها أحد، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم، ولا يكسر ذلك خراجًا، وهي بلبيس»^(١).

والنقطتان الجديرتان بالانتباه هنا هما قوله بأن المنطقة ليس فيها أحد، إشارة إلى خلوها من العرب فقط وليس من البشر جميعًا والمصريين خصوصًا. ثانيًا: إن نزول قيس بها لن يضر بالخراج. وهكذا، «وفد ابن الجحباب على هشام فسأله أن ينقل إليها منهم أبياتًا، فأذن له هشام في إلحاق ثلاثة آلاف منهم، وتحويل ديوانهم إلى مصر، على أن لا ينزلهم القسطنط»^(٢).

وبعث - عبید الله - إلى البادية فقدم عليه مائة أهل بيت من بني نصر، ومائة أهل بيت من بني عامر، ومائة أهل بيت من أفناء هوازن، ومائة أهل بيت من بني سليم فأنزلهم بلبيس، وأمرهم بالزرع، ونظر إلى الصدقة من العشور فصرها إليهم، فاشترؤا إبلًا فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم. وكان الرجل يصيب في الشهر العشرة دنائير وأكثر وأقل. ثم أمرهم باشتراء الخيول فجعل الرجل يشتري المهر فلا يمكث إلا شهرًا حتى يركب وليس عليهم مؤونة في إعلاف إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم، فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمل إليهم خمس مائة أهل بيت من البادية، فكانوا على مثل ذلك، فأقاموا سنة. وأتاهم نحو من خمس مائة أهل بيت. فمات هشام وبلبيس ألف وخمس مائة أهل بيت من قيس^(٣).

وسنذهب الآن مع ساويروس لنرى نوع التماس الذي حدث بين عرب القيسية النازحين إلى المكان وبين القبط المقيمين فيه من قبل، فيقول:

وكانت قبيلة في الجبل الشرقي لمصر من بلبيس إلى القلزم والبحر من المسلمين يسمون العرب، وكان فيهم أكثر من ثلاثين ألف فارس منتشرين في تلك البراري والبلاد، ومنهم أمراء مقدمون عليهم، فولى عليهم زمامًا يسمى أبا جراح وكانت خيامه عند دير على اسم السيدة مريم قريب من تنيس وفيه جماعة من الرهبان وكهنة مزيين بأفعال

(١) الكندي، المصدر نفسه، ص ٩٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

حسنة، وكان للزمّام أخوان فأخذهما وصعد إلى الدير ودخل البيعة
وطرد الرهبان من البيعة ونهبوها وأخذوا كل ما في الدير من قماش
وغلة وأثاث^(١).

لكن العربيين أعادا جميع ما أخذه بعد ذلك بسبب نزول المرض بأحدهما فظننا
أن ذلك بسبب كرامات رهبان الدير وخافا خوفاً عظيماً.

ويذكر ساويروس أن واقعة نهب الدير هذه حدثت زمن تولي القاسم بن
عبيد الله بن الحبحاب مكان أبيه على خراج مصر، وأن القاسم كان أشد قسوة من
أبيه وأنه قد «صار فيه الشر أكثر من أبيه»، وأنه كان صبيّاً محبّاً للشر ومحبّاً للنساء
وقد «جعل له سراري من كل جنس ليس لهن عدد، وكان قلبه ملتهباً بهن جداً»،
«وأنه لم يتخلّ عن طريقة السوء ومحبتة جمع الذهب»^(٢). ثم يذكر قصة دخول
هذا القاسم مع خليلته إلى الدير.

وفي الحقيقة إننا لا نجد ذكراً لهذا القاسم بن عبيد الله بن الحبحاب لدى
الكندي أو المقرئزي أو حتى لدى ابن تغري بردي الأتابكي صاحب كتاب
«النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة». مما يدل على أنه لم يكن يتولى أمر
جباية الخراج رسمياً بقرار من الخليفة أو من والي مصر، وإنما كان يعمل تحت
مظلة نفوذ أبيه الممتدة في ربوع الأراضي المصرية. تلك المظلة التي حدث
بساويروس وبالرهبان الذين استقى منهم تاريخه إلى الظن بأنه كان مسؤولاً عن
كل خراج مصر حيث يقول: «وكان القاسم سالكاً في طريق الجهل كل حين،
تضاعف الظلم في أيامه على الناس، وولي ولاية في كور مصر أشد منه، قومًا
يجمعون أموال الغرباء من أسوان إلى الإسكندرية، وألقى على الناس بلاءً عظيماً
في كل البلاد والكور، الكبار والصغار، وكان الكبير يأكل الصغير والقوي يأكل
الضعيف مثل سمك البحر، وبعد ذلك عمر مراكب مثل قصور الملوك وزينها،
وكان يركب فيها نساءه وعبيده ويخرج في بلاد مصر ويمضي بهن إلى الإسكندرية
معه وتيس ودمياط فيأخذ أموال التجار والناس والمقيمين في تلك المواضع

(١) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه.

(٢) المصدر السابق.

ويصعد إلى صعيد مصر وينتهي إلى أسوان يفعل ذلك، وكان يسير صحبته من الجند والعسكر ويدخلون إلى ملعب أنصنا»^(١).

وربما كان هذا القاسم مسؤولاً عن خراج منطقة الحوف الشرقي فقط وليس على عامة خراج مصر، وزاد نفوذه وبدأ في ممارسة أعمال الإغارات على المناطق الأخرى حتى «أنفذ إليه الخليفة من قبض عليه وحمله إليه تحت الحوطة والضيق، ولما سار على بلبس مع الموكلين والسائرين به إلى الخليفة لحقوه الأساقفة وجماعة من النصاري إلى بلبس. ثم سيروه الموكلون به ولم يعد إلى مصر بل أخذ جميع ماله وهو في العذاب والاعتقال وأنفذ إلى مصر وأخذ عبيده وسرايه ومضوا بهم إلى الخليفة»^(٢).

والكندي لا يذكر ما يخص رجلاً يسمى القاسم بن عبيد الله، ولكنه يهتم بالحديث عن الولاية حسب ترتيبهم الرسمي، حيث تولى عبد الرحمن بن خالد ولاية مصر بعد وفاة الوليد بن رفاعه، ثم تولى حنظلة بن صفوان، وفي عهده «انتفض أهل الصعيد، وحارب القبط عمالهم في سنة إحدى وعشرين ومائة فبعث حنظلة بأهل الديوان، فقتلوا من القبط ناساً كثيراً، وظفر بهم»^(٣).

ويقول ابن تغري بردي إن: «حنظلة بن صفوان دام بها إلى سنة إحدى وعشرين ومائة، وفيها انتفض عليه قبط مصر، فحاربهم حنظلة المذكور حتى هزمهم»^(٤)، ولا يذكر ساويرس تلك الثورة المهمة في سلسلة الثورات القبطية لانشغاله بتتبع الخلافات بين رجال الكنيسة قبل تولي البابا خائيل وهو البابا رقم ٤٦، وهو حينما يذكر أن والي مصر بعد القاسم هو إنسان اسمه حفص بن الوليد الحضرمي، فإنه يخالف بذلك المؤرخين العرب الذين ذكروا أن السابق على حفص كان حنظلة بن صفوان الذي حدثت ثورة القبط في زمنه، فهل كان بأوراق ساويرس بعض الخلط في تلك الفترة الزمنية؟ أم أن القاسم كان مجرد مسؤول خراج في منطقة الحوف الشرقي في أثناء ولاية حنظلة بن صفوان.

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الكندي، المصدر نفسه.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزء الأول، ص ٢٨١.

المهم أنه بعد اختيار البابا خائيل قام رجال الكنيسة وكهنتها «ومضوا إلى القصر وعرفوا حفصاً الذي جرى وما كانوا فيه، وسألوه كتب كتاب إلى شيوخ وكهنة وادي هبيب ليسلموا لهم أنبا خائيل المذكور وكتب لهم الكتب وأخذوها وخرجوا من عنده»^(١).

ويختلف الكندي وساويروس في موقف كل منهما من حفص بن الوليد، فعلى حين يمدحه الكندي لأنه أعاد أرزاق المسلمين إلى مقدار الاثني عشر إردباً لكل رجل، فإن ساويروس يذمه بسبب الإحصاء الذي أجراه رؤساء القبط في ذلك الحين واكتشافهم أن حوالي أربعة وعشرين ألف إنسان قد انتقلوا إلى الإسلام في عهده، وربما كانت هناك أسباب أخرى للكرهية مثل أن حفص قد «أمر بقسم مواريث أهل الذمة على قسم مواريث المسلمين، وكانوا قبل حفص يقسمون مواريثهم بقسم أهل دينهم»^(٢).

وبعد أن كان البنون والبنات لا فرق بينهم بل هن مساويات
والزوج إن مات بلا أولاد للزوجة النصف بلا عناد
والزوج والزوجة في الحكم سوى والنصف للأهل فدع عنك الهوى
والأم إن كانت مع الأعمام تحوز ثلثيه بلا كلام
كما تقول أرجوزة الأسعد أبي الفرج هبة الله.

وبذلك نزع الوالي المسلم حفص بن الوليد اختصاص دعاوى المواريث من القضاء الذمي وأسندها إلى القضاء الإسلامي الذي يخسف حق المرأة إلى نصف منزلة الرجل عمومًا.

كما أعلن حفص بن الوليد أن «كل من يتخلى عن دينه ويكون مسلمًا لا تؤخذ منه بعد جزية»^(٣).

وبالفعل فقد جاء رؤساء القبط يشكون للبطريرك بقولهم: «يا أبانا صلّ علينا واجتهد فقد أحصينا من انتقل إلى دين الإسلام من إخوتنا من بني المعمودية من مصر وأعمالها على يدي هذا الوالي أربعة وعشرين ألف إنسان»^(٤).

(١) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه.

(٢) ابن تغري بردي، المصدر نفسه.

(٣) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه.

(٤) المصدر السابق، ص ١٦٨.

وبرغم هذا المدح العربي لحفص إلا أننا نجد أنه عُزل ثلاث مرات: كانت المرة الأولى التي عُزل فيها بعد أسبوعين فقط من الحكم بفضل رفض عبيد الله بن الحبحاب له، والمرة الثانية التي أعاد فيها أرزاق المسلمين إلى نصابها القديم وتصادف في أثنائها موت الخليفة هشام بن عبد الملك وتولي الوليد بن يزيد بن عبد الملك بعده، ولم يلبث أن قتل وتولى ابنه مقاليد الخلافة ثم توفي أيضًا وبويع إبراهيم بن الوليد، ثم جاء مروان بن محمد فخلع الخليفة إبراهيم. وهنا كتب حفص بن الوليد والي مصر للخليفة الخامس في فترة ولايته الثانية أن يستعفيه فأعفاه من الولاية التي استمرت ثلاث سنين إلا شهرًا، ولكنه لم يلبث أن عاد إليها كرهاً بناءً على إصرار قواد القروض حتى عزله الخليفة مروان وأرسل الحوثر بن سهيل الذي سارع بقتل حفص بن الوليد سنة ثمانٍ وعشرين ومائة، وبذلك تنقضي ولاية رجل شهد حكم خمسة خلفاء، وتولى هو نفسه الولاية ثلاث مرات حدث في أثنائها كثير من الفتن العربية.

ويذكر الكندي ثورة قبطية أخرى حدثت في زمن الوالي عبد الملك بن مروان بن نصير حيث «خرج رجل من القبط يقال له يحنس بسمنود فبعث إليه عبد الملك بعبد الرحمن بن عتبة المعافري، فقتل يحنس في كثير من أصحابه»^(١).

وليس هناك ذكر لهذه الثورة القبطية أيضًا في كتاب ساويروس بن المقفع، مع أن ساويروس يذكر عن الوالي ابن نصير هذا أنه «كان يبغض النصارى جدًا ومعه تكبر عظيم وأنزل تعبًا عظيمًا على أهل مصر وأظهر أمورًا عظيمة بمصر وأخذ لمروان الذهب والفضة والنحاس والحديد وكل شيء يجده وكان يفعل ذلك بمشورة رجل سوء تعلم هذه الأفعال من الشيطان، وكان رئيسًا على جميع صنائع مصر وأمور المملكة، اسمه عبد الرحيم»^(٢).

فهل هناك علاقة بين عبد الرحيم المذموم لدى ساويروس، وعبد الرحمن بن عتبة المعافري قاهر ثورة القبط في سمنود؟ وربما يكونان شخصًا واحدًا خصوصًا أن الخلاف اللفظي بين عبد الرحيم وعبد الرحمن ليس كبيرًا بالإضافة إلى ربط الاسمين بحدث واحد.

(١) الكندي، المصدر نفسه، ص ١١٦.

(٢) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه، ص ١٦٩.

وربما لم يدقق ساويروس في الاسم بسبب اهتمامه هنا بذكر تفاصيل الخلاف بين بطريرك الكنيسة اليعقوبية (القبطية) وبطريرك الكنيسة الخلقيدونية (الملكانية) وتنازعهما على ملكية كنيسة أبي مينا بمريوط، وتضعيدها أمر الخلاف إلى الولاة والقضاة.

على أية حال فساويروس الذي جمع مادة كتابه وصاغها لتسجيل تاريخ بطاركة الكنيسة القبطية لا يلتفت في كثير من الأحيان إلى تفاصيل حياة الشعب القبطي وعذابه وثوراته ولذلك تسقط منه تواريخ بعض الثورات كما سقطت ثورة يحنس السمنودي. ولولا حديث الكندي عن ثورتي سنة ١٢١ هـ، ١٣٢ هـ القبطيتين لضاع تاريخ مقاومة الشعب القبطي في تلك الفترة وطوته السنون. وقد ذكر الكندي بالتوازي مع ثورة القبط الأولى عام اثنين وثلاثين ومائة^(١)، ثورة أخرى قام بها العرب في منطقة الحوف الشرقي حينما «خالف عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان على مروان أمير المؤمنين وتابعه على ذلك الرماحس بن عبد العزى الكناني في جمع من قيس، فنزلوا الحوف الشرقي وأظهروا الفساد، فبدر عبد الملك بن مروان أهل الديوان إليهم، وجعل على جماعتهم موسى بن المهند بن داود بن نصير. فساروا في سبعة آلاف إلى بليس، فلما التقوا دعوا إلى الصلح، على أنهم يخرجون عمرو بن سهيل والرماحس إلى أي أرض شاء، فأجابهم موسى بن المهند إلى الصلح وانصرفوا. ثم ظفر بعد ذلك بعمرو بن سهيل فحبس بالفسطاط»^(٢).

أما ثورة القبط الثانية لعام ١٣٢ هـ والموازية لأحداث سقوط الدولة الأموية فيذكرها الكندي باختصار قائلاً: «وخالفت القبط برشيد، فبعث إليهم عثمان بن أبي نسة في المصصة فهزمهم»^(٣).

أما ساويروس بن المقفع بعد أن نسي ذكر أحداث الثورة الأولى فيقول: «عصى

(١) الكلام عن ثورة القبط الأولى وثورة القبط الثانية خاص بعام ١٣٢ هـ، حيث اندلعت ثورتان في نفس ذلك العام، كانت الثانية منهما هي المواجهة لأحداث سقوط الدولة الأموية. (و، أ)

(٢) الكندي، المصدر نفسه، ص ١١٦.

(٣) المصدر السابق، ص ١١٨.

على عبد الملك قوم من البشموور ومقدمهم مينا بن بقيرة وقوم آخرون من شبرا بسنباط، ومسكوا تلك الكورة ولم يعطوه خراجًا، ولا لصاحب ديوان مصر إلى أن افتقدهم الرب وكان يعطيهم الظفر فخرج إليهم عبد الملك بعسكر فهزموه بقوة الله وقتلوهم، ولما وصل مروان إلى مصر عرفوه جميع ذلك فكتب لهم كتابًا وأمانًا فلم يقبلوه، فأنفذ لهم عسكرًا كثيرًا من مسلمي مصر ومن وصل في صحبته من الشام فلم يقدر العسكر أن يصل إليهم بالجملة لأنهم تحصنوا في مواضع الوحلات التي لا يقدر أن يصل إليها سوى رجل رجل، فإذا زلت رجله عن الطريق غطس في اللوث وهلك، وكانوا العساكر يحرسونهم من برا فيخرجون لهم في الليل البشامرة من طرق يعرفونها يتلصصون عليهم ويقتلون من قدروا على قتله ويسرقون أموالهم وخيلهم فيطول عليهم الأمر فيرحلون عنهم»^(١).

وقد انتصر البشمووريون على جيش والي الأموي عبد الملك بن مروان عدة مرات في نفس الوقت الذي خرج فيه ملك النوبة بجيش جرار ليحارب والي بعد أن سمع عن سجن البطريك القبطي في سجن مصر ومعه طائفة من رهبان الكنيسة لذلك، «سار الملك من بلاد النوبة يريد ديار مصر في عسكر عظيم فيه مائة ألف فارس بمائة ألف فرس ومائة ألف جمل»، وكان ملك النوبة قد بعث رسولًا يطلب من والي إطلاق سراح البطريك فقبض والي على رسول ملك النوبة وحبسه هو الآخر مع البطريك، لكنه اضطر إلى إطلاق سراح الجميع حينما «علم مجيء الملك ووصوله إلى مصر ولم تكن له قدرة على محاربتة»^(٢).

ثم لم يلبث أن جاء مروان بن محمد الخليفة الأموي فأرأى أمام جيوش العباسيين و«كان يطرح النار في كل موضع يصله وهو منهزم»، وقد وصل مروان مصر وثورة البشموريين ما زالت مشتعلة فكتب الرسائل لتهدة البشموريين حتى يجد سبيلًا للخروج من محنته وحتى لا يتعقد الموقف أكثر من تمرد المصريين من ناحية ومطاردة العباسيين له من ناحية أخرى.

لكن البشموريين رفضوا عرضه واستمروا في ثورتهم، فاستمرت بالتالي حروب

(١) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه.

(٢) المصدر السابق.

مروان في اتجاهات عديدة. وبعد دخول جيش مروان الإسكندرية بقيادة الحوثر بن سهيل الباهلي والذي يسميه ساويروس «كوزارا» ويصفه بأنه «كان يشبه الوحش في خلقه وخلقه».

«ودخل عسكر مروان المدينة مع كوزارا وملكها وقتل منها جماعة ونهب أراختها واستأسر أولادهم ونساءهم وأخذ كل مالهم وأخذ الأب أنبا خائيل وقال له كيف مكنت أولادك النصارى - يعني البشامرة - أن يقاتلوا».

وكما قبض على الأنبا خائيل، بطريك الكنيسة الأرثوذكسية، قبض على بطريك الملكانية أيضًا «وجعل رجله مع رجله أبينا البطريرك في الحديد، فبعد خمسة أيام أحضر قسما، بطريك الملكية، من شعبه وبيعه ألف دينار ودفعها لكوزارا فخلاه، وأنفذ إلى أبينا وقال له افعل هكذا وأخليك، فأجابه أن ما في بيعتي شيء وأنا أجعل نفسي عوض المال»^(١).

وإزاء رفض البطريرك القبطي دفع الألف دينار للقائد العسكري كوزارا أسوة بالبطريك الملكاني استمر حبسه تسعة أيام وحينما هم بإعدامه فكر في استخدامه كواسطة لتهدئة ثورة البشامرة بدلًا من قتله، وكان تفكيره مع نفسه هكذا:

نحمله معنا إلى رشيد وندعه أيضًا أن يكتب لهم ويقول إن كل ما حل بي لأجلكم، فأمر بتخليته. فلما بلغ الخبر البشامرة، خرجوا لأولئك الذين كانوا يحاصرونهم فقتلوهم وطردهم وهم على مسيرة يومين، والذي خلص من الموت مضى إلى مروان وعرفه الذي جرى عليهم ووصل الخبر إلى مروان بأن أعداءه قد قربوا منه^(٢).

وانتصر البشامرة على جيوش الخليفة الأموي عدة مرات، وكان مروان بن محمد في أسوأ أوضاعه ويفر هاربًا أمام جيوش العباسيين من الناحية الأخرى ولا يجد أمامه سبيلًا للنجاة، ومن شدة يأسه يحرق كل ما يقابله: مخازن الغلال والسلاح ويحرق الفسطاط. وقد «عزم مروان الحمار على تعدي النيل فعدى إلى الجيزة وأحرق الجسرين والدار المذهبة، وبعث بجيش إلى الإسكندرية فاقتتلوا

(١) ساويروس بن المقفع، المصدر نفسه.

(٢) المصدر السابق، ص ١٨٩.

مع من كان بها بالكريون، وبينما هو في ذلك خالفت القبط، فبعث إليهم مروان من قاتلهم أيضًا وهزمهم»^(١).

وهذه الثورات القبطية والضعف الواضح في صفوف الخليفة الذي يفقد عرشه تدريجيًا ويخسر مواقعه واحدًا إثر الآخر أمام الجيوش العباسية يجعلنا نحار في شأن البطريك القبطي الذي لا يفضل سبيل الاستمرار في المقاومة ويكتب لشعبه البشموري الثائر والمنتصر في ثورته، عدة مرات ينصحه بأن يلقي سلاحه ويسلم لجيش مروان المهزوم، مع أن مروان هذا اضطهد القبط اضطهادًا كبيرًا وخاض في دمائهم - بعد أن ذبح أكثر من مائة راهب ذبح النعاج في دير المحرق - واضطهد البطريك نفسه وبعض الرهبان المصاحبين له حينما اعتقلهم ورمى في رجليه خشبة عظيمة وطوق حديد ثقيل في رقبته حتى يوفي خراجه كاملاً ثم أطلقه إلى الصعيد يجمع له المال من القبط، «وكانت كورة مصر قد هلك أهلها من الظلم والخسائر والخراج»^(٢).

ومعظم عرب مصر يتخلون عن الدولة الأموية ويعلنون موالاتهم للجيوش العباسية. كل ذلك وأبو الكنيسة المصرية ماضٍ في سياسته القديمة المتوارثة والقاضية بعدم المقاومة، وإن شئنا الدقة فلنسماها المقاومة السلبية والانتظار في صمت مع تحمل كل أصناف التعذيب البدني والمادي والمعنوي حتى تتغير الظروف وتنقش سحابة الشدة بفعل عوامل أخرى لا تكون لهم فيها أيادٍ ظاهرة. وقد كان البطريك ورجال كنيسته يضعون آمالهم على ركائب خيل العباسيين القادمة من الشرق ويتمنون خلاص البلاد والعباد على أيديهم، لكنهم لا يظهرون الانحياز مع أن لحظة سقوط الدولة الأموية لم تكن سهلة وخصوصًا حينما «أمر مروان أن يضرب البوق بمصر الفداء ثلاثة أيام، ويقول إنه بعد ثلاثة أيام إن وجدت بمصر إنسانًا أو دابة متخلفة قتلته لأنني أضرب جميع الفسطاط بالنار، وعدوا الناس كلهم إلى الجيزة والجزيرة وغيرها، وهرب جميع الناس في المراكب حتى البنات المخدرات اللاتي لم يخرجن قطُ خرجن إليها مع أهاليهن وترك الناس جميع أموالهم وضرب النار من قبلي مصر إلى بحريها

(١) ابن تغري بردي، المصدر نفسه.

(٢) ساويرس بن المقفع، المصدر نفسه، ص ١٧٨.

حتى انتهت إلى الجامع الكبير الذي للمسلمين - يقصد جامع عمرو - ووقع في البحر من الناس والبهائم ما لا يحصى عدده بحسب أنهم لم يجدوا من يعدو بهم لما هربوا من النار وكان الأخ يهرب من أخيه والصديق من صديقه والأعمى لا يوجد من يقوده والمقعد والمفلوج والضعيف والشيخ الفاني والعجوز التي لا نهضة لها، جميع هؤلاء احترقوا بالنار وكانوا الناس مطروحين في الشوارع والأزقة والغيطان في أعمال الجيزة كالأموات مما حل بهم تحت شقاء عظيم وجوع وعطش ولا يجدون ما يقتاتون به من كثرة الخلق وكانت الغلات التي بمصر قد أحرقتها مروان»^(١).

وبينما الفسطاط تحترق كان الخليفة الأموي ينتف ذقن البابا شعرة شعرة والبابا لا ينطق ولكن صوته الداخلي يردد في صمت: «هذه المملكة تبعد وجميع جيوشها، وتكون بعدهما مملكة جديدة».

وشمل التعذيب بعضًا من الأساقفة المصاحبيين للبابا حتى إن سيف مروان بن محمد «طرح الأب أنبا موسى على ركبته ورفعوا رجليه إلى فوق وضربوه بدبابيس نحاس على أجنابه وعلى رقبته وكانوا يقولون له أعطنا برطيلاً ونخليك»، وكان الأنبا موسى لا يعرف اللغة العربية ولا يفهم ما يقوله هؤلاء المتوحشون بينما تلميذه يترجم له «كلمة بعد كلمة». وكان العباسيون على الضفة الأخرى للنيل يشاهدون وقائع التعذيب ومعهم من انضم إليهم من نصارى مصر وقد قالوا للعباسيين: «هنا أبونا البطرك عند مروان الكافر وما ندري ما يصنع به. وكانوا البشامة قد لقوهم من الفرما وقالوا للخرسانيين: إن بطركنا قد أخذه مروان ليقتله بسبب أننا قاتلناه وقتلنا عسكره قبل مجيئكم».

ولم ينشغل الخليفة الأموي المهزوم المحاصر عن إنزال مزيد من العقاب برجال الكنيسة، بل أمر جنوده بالإبقاء على بطريرك الكنيسة القبطية ورجاله في الأسر والتعذيب تحت الشمس، «حتى ظننت أن أبي ما يعيش إلى مغيب الشمس من شدة العذاب»، كما يقول أحدهم.

(١) المصدر السابق، ص ١٩١، ١٩٢.

وفي اليوم التالي أمر مروان بن محمد حراساً آخرين أن يتولوا مهمة حراسة البطريك ورجاله العشرة، «فجعل مع كل واحد منا ثلاثة من الجند، وضيقوا علينا جدًّا فلما حميت الشمس أعد لنا ذلك الأمير آلات العذاب مختلفات لأنهم لم يتفقوا على قتلة يقتلوننا بها».

واستطاع العباسيون في ذلك الوقت أن يدبروا مراكب يعبروا بها النيل إلى ناحية مروان. وكان مروان يرتب أموره ليهرب إلى صعيد مصر، فنصحه أحد أبنائه أن يفك أسر البطريك ورجاله حتى يستطيع المروانيون أن يهربوا إلى بلاد النوبة والسودان ويطلبوا الأمان هناك من ملك النوبة الذي يتبع الكنيسة القبطية، وقال لأبيه: «إن قتله - البطريك - فما يقبلوننا بل يقومون علينا هم أيضًا ويقتلوننا»، فراجع مروان عن فكرة قتل البطريك ولكن مع إبقائه في الحبس مع رجاله العشرة وفي «رجل كل واحد منا طوبة حديد ثقيلة جدًّا يكون وزنها نصف خنجر وجعلونا خلف ثلاثة أبواب خشبية ليس ضوء ولا هواء ولا راحة».

وتذكر بعض الدراسات القبطية الحديثة كراهية مروان الشديدة للمسيحيين مشوبة ببعض الأخطاء التاريخية فيقول الأنبا غريغوريوس أسقف عام الدراسات العليا اللاهوتية والثقافة القبطية والبحث العلمي في كتاب عن الدير المحرق: «جاء عهد محمد بن مروان آخر خلفاء بني أمية (٧٤٢-٧٥٠م) وكان شديد الكره للمسيحيين فأحرق عددًا من الأديرة وقتل الكثير من الرهبان، فهرب عدد منهم إلى دير المحرق، فتبعهم إلى هناك وذبح أكثر من مائة راهب منهم، حتى لقد قال المؤرخون إن البابا مرقس الثاني، وهو التاسع والأربعون من باباوات الإسكندرية (٧٩٩-٨١٩م)، مات متأثرًا بهول هذا الخراب الذي حل بالأديرة والكنائس»^(١).

وهكذا يذكر أسقف البحث العلمي اسم الخليفة مقلوبًا فاسمه مروان بن محمد وليس العكس، كما أن بابا الكنيسة القبطية كان في ذلك الحين البابا خائيل وهو البطريك السادس والأربعون في تاريخ بطاركة الكنيسة وليس التاسع والأربعين كما يقول. لكن الثابت والمحفور في أذهان المصريين هو الكراهية غير المسبوقة

(١) الأنبا غريغوريوس، الدير المحرق: تاريخه، ووصفه، وكل مشتملاته.

التي جسدها آخر الخلفاء الأمويين تجاه القبط ليس فقط بسبب ثوراتهم ضده، بل لأن هذه الثورات العنيفة كانت إحدى علامات انهيار دولته وزوالها إلى الأبد. فقد كان مروان خليفة الانهيار الذي اعتلى عرش الخلافة لحظة تقوض دعائمها، فأخذها وتهاوى بها إلى السقوط الرهيب. وقبل رحيله أشعل الحرائق في كل مكان، ولذلك كان الاضطهاد عامًا للمسلمين وغير المسلمين، للعرب وغير العرب، الأحرار والموالي وأهل الذمة، للرجال والنساء، للشباب والشيخوخ والأطفال، الجميع، الجميع كانوا أعداءه الذين انتقم منهم لأنهم شهدوا سقوطه العظيم. في حين كان العباسيون يبنون أسس دولتهم الجديدة فقسّموا جيوشهم إلى أربعة أقسام: الأول بقيادة صالح بن علي، والثاني بقيادة أبي الحكم، والثالث توجه إلى أسفل شطنوف ونواحيها، والرابع بقيادة أبي عون، وكانوا يسيطرون على نواحي مصر ويطاردون مروان وأبناءه.

أما من بقي في الجيزة - في النزاهات - من أهلها فأطفأوا النار التي أشعلها ابن مروان قبل هروبه وفكوا وثاق البطريق «الله يشهد أن قومًا من المسلمين كانوا ركاب خيلهم نزلوا من عليها وفكوا الحديد عنا وأخذونا نحن ومضوا بنا إلى ماري بطرس في الجيزة، وكان يمشي معنا قوم مؤمنون وكانت ليلة الأحد الأول من مسرى». وأمام انتصار العباسيين الذين امتد جيشهم من الجبل إلى البحر طلب حوثة أمانًا فلم يقبلوه وطالبوا بتسليم مروان، ومضى حوثة إلى مروان يحتال عليه، فبادر مروان إلى حوثة وقتله. لكن عسكر صالح بن علي العباسي ما لبث أن أدركت آخر الخلفاء الأمويين وقتلته.

وأظهر العباسيون سياسة اجتذاب القبط بأن نادوا في البلاد: «من كان نصرانيًا يعلق مثال الصليب من الذهب والفضة والنحاس على جبهته وعلى ثوبه وعلى بيته ومن لم يعمل ذلك فلا ذنب علينا منه، وكانوا إذا وجدوا قومًا عليهم علامة الصليب يخفون عنهم الخراج ويرفقون بهم ويعملون معهم الخير في جميع البلاد». كما أطلقوا سراح أنبا خائيل «وأكرموا كرامة عظيمة»، «ولما التمس الأب أنبا خائيل من الملك رزق البيع في جميع الكور فعل له ما طلبه منه». «وأما البشامة فإنه سامحهم بالخراج ودفع لهم خراجًا آخر».

لكن فرحة القبط لم تدم كثيرًا، فبعد أن استتبت الأمور للعباسيين ودانت البلاد وخضعت «ومضى كل واحد منا إلى موضعه وأبو عون تولى مصر»، بعث الخليفة العباسي رجلين من أصحاب الدواوين هما: عطاء بن شريحيل والآخر سفر، فأعادا الخراج إلى ما كان عليه وكل الضرائب السابقة وكشفا عن «بغضهما لنا نحن النصارى ومحبتهما للفضة».

وفي السنة الثالثة لحكم العباسيين «أضعفوا الخراج وأكملوه على النصارى... ولم يوافوا لهم بما وعدوهم».

ورأى كثير من الأقباط التحول إلى الإسلام حلًا وحيدًا للتخلص من عبء الجزية. ويمضي الأنبا خائيل إلى أبي عون مناشدًا إياه رفع الخراج عن بيع الإسكندرية. وهنا ينشغل ساويرس بذكر ما يخص البطريك والكنيسة كعادته دائمًا وينسى ما يخص الشعب القبطي.

لكن الكندي يسجل في كتابه أنه في أثناء ولاية أبي عون، ثاني الولاة العباسيين، وبعد حدوث الوباء في مصر سنة خمس وثلاثين ومائة لم يترفق مسؤول الخراج - عطاء بن شريحيل مولى مراد - بالناس فخرج أبو مينا القبطي بسمنود ثائرًا، وبعث إليه الوالي بجيش بقيادة عبد الرحمن بن عقبة، فقتل أبا مينا وخمدت ثورة القبط^(١).

وطلب الخليفة من أبي عون التفرغ لقيادة جيوش المغرب وترك ولاية مصر لصالح بن علي.

ولم تكد تمر عدة أعوام حتى هبت ثورة قبطية جديدة عام ١٥٠ هـ في أثناء ولاية يزيد بن حاتم وفي خلافة أبي جعفر المنصور حيث «خرج القبط على يزيد بن حاتم بسخا ونابذوا العمال وأخرجوهم. وكان أميرها عبد الجبار بن عبد الرحمن الأزدي، وذلك في سنة خمسين ومائة وصاروا إلى شبرا سباط، فقاتلوا ابن عبد الرحمن. وانضم إليهم أهل البشرود والأوسية والبجوم. فأتى الخبر يزيد بن حاتم فعقد لنصر بن حبيب المهلبى على أهل الديوان ووجوه أهل مصر. فخرجوا إليهم فيئتهم

(١) الكندي، المصدر نفسه، ص ١٢٣.

القبط. فطعن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج حتى سقط، وطعن نصر بن حبيب طعنتين، وقتل عبد الجبار بن عبد الرحمن، وألقى توبة الخولاني النار في عسكر القبط. وانصرف الجيش إلى الفسطاط منهزمين»^(١).

ولا يذكر لنا الكندي كيف انتهت ثورة القبط هذه بعد أن حققوا تلك الانتصارات على جيش الوالي العربي وقتلوا عيون رجاله وقادته وقتلوا والي سخا نفسه مما اضطر الجيش العربي للعودة إلى الفسطاط مهزومًا، ويستمر الكندي في تتبع سلسلة الولاة دون أن يذكر شيئًا عن نهاية تلك الثورة وكيف خمدت ومن الذي قام بإخمادها، لكنه يذكر - بعد قليل - نشوب ثورة جديدة في أثناء ولاية موسى بن علي بن رباح اللخمي عام ١٥٦هـ، فيقول: «خرج القبط بلهيب في سنة ست وخمسين فعقد موسى لعبد الله بن المهاجر بن علي، حليف ابن عامر بن عدي بن تجيب، فخرج في الجند إلى بلهيب فهزم القبط»^(٢).

ونجد في كتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» لابن تغري بردي ذكرًا لهذه الثورة حين يقول عن ولاية موسى بن علي «وفي ولايته خرج عليه قبط مصر وتجمعوا ببعض البلاد فبعث موسى هذا بعسكر فقاتلوه حتى هزموهم وقتل منهم جماعة وعفا عن جماعة، ومهد أمور مصر»، وبعد كل ذلك يقول: «وكان فيه رفق بالرعية وتواضع»^(٣).

ولا يذكر ساويروس بن المقفع ثورة عام ١٥٦هـ وخروج القبط بلهيب، كما أنه يقع في خطأ يخص ولاية ابن عبد الرحمن، حيث تولى مصر واليان يدعيان ابن عبد الرحمن، وكانا أخوين أولهما عبد الله بن عبد الرحمن وقد توفي في أثناء ولايته في صفر عام ١٥٥هـ، والآخر هو محمد بن عبد الرحمن الذي توفي وهو والٍ عليها أيضًا في شوال ١٥٥هـ، أي بعد أخيه بحوالي ثمانية أشهر ونصف، فأيهما كان يقصد ساويروس وهو يقول: «عزل الوالي ابن عبد الرحمن عن مصر وأنفذ غيره إلى مصر»؟

(١) المصدر السابق، ص ١٣٧، ١٣٨.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤١.

(٣) ابن تغري بردي، المصدر نفسه، ص ٢٦.

وإذا دققنا النظر في تفاصيل الثورات السابقة سنلاحظ تغييرًا واضحًا في طريقة إعلان القبط عن غضبهم في القرن الثاني للهجرة حيث أصبحت ثوراتهم أكثر تنظيمًا عن ذي قبل، فالكندي يحدثنا عن عسكر القبط الذين هزموا عسكر الوالي المنظمين والمتفرغين للقتال والتدريب والإعداد، كما سنلاحظ نشوب ثورات مشتركة فيما بعد يتعاون فيها عرب وأقباط بعض المناطق ضد جيش الوالي والخليفة. وخصوصًا بعد انقضاء عهد الخليفة هارون الرشيد واندلاع ثورات عربية في الحوف والصعيد، فقد ثار أهل نتو وتمي ضد الوالي حاتم بن هرثمة بن أعين في عهد الأمين، وكما نعلم أن منطقتي نتو وتمي كانتا منطقتي ثورات قبطية متتالية. وفي ولاية السري بن الحكم الثانية عام ٢٠٣هـ، حينما اندلعت ثورة القبط بسخا ضد قوات عبد العزيز الجروي، نجد قبيلة بني مدلج وهي نحو الثمانين ألفًا تناصر قبط سخا، فخرج إليهم الجروي فهزمهم وهرب بنو مدلج.

وسنجد إشارة عارضة لطلب الجروي مقابلة البابا يعقوب. وبينما لا يذكر ساويروس شيئًا عن خروج القبط في سخا - ثورة قبط سخا - فإنه ينشغل بتتبع محنة البابا يعقوب وموته وتولي الأنبا سيمون ثم البابا يوساب رقم ٥٢ في كرسي البطريركية.

وهنا نتوقف كثيرًا، حيث اندلعت في عهده أحداث الثورة الكبرى عام ٢١٦هـ في ربوع مصر كلها واشترك فيها قبط مصر وعربها - جميعًا - المضطهدون. وربما تكون أسباب الاضطهاد مختلفة لدى الطرفين: فالعرب كانوا يثارون لعنجهيتهم القبلية المهدرة بعد أن فضل عليهم العباسيون أجناس الفرس والديلم والأتراك وأكثرها من شرائهم وجعلهم دعامة الجيش والحكم؛ فنزلت بذلك مرتبة العرب من أصحاب الديوان ومقاتلي الدولة الذين يفوزون بالغنائم والأموال ويتحكمون في البلاد والعباد إلى مجرد رعايا يقطنون الأرض حينًا. أما القبط فقد كان يزداد اضطهادهم كلما زاد شره الولاة ومسؤولي الخراج لجمع مزيد من المال، «وكان متوليا الخراج في ذلك الزمان رجلين، أحدهما اسمه أحمد بن الأسبط والآخر إبراهيم بن تميم، هذان مع ما كانوا الناس عليه من البلايا لا يراعيان طلب الخراج بغير رحمة، وكانوا الناس في ضيق زايد لا يحصى وأصعب ما عليهم ما يطلبه منهم

متولو الخراج، وطلب ما لا يقدرُونَ عليه، وبعد هذا أنزل الله الكريم بأحكامه الحق غلاءً عظيمًا على كورة مصر، حتى إن القمح بلغ خمس وبيات بدينار، ومات بالجوع خلق كثير من النساء والأطفال والصبيان والشيوخ والشبان، ومن جميع الناس ما لا يحصى عدده من شدة الجوع»^(١).

فالغلاء والموت جوعًا من جهة، وقسوة جامعي الخراج من جهة أخرى، كانا سبب انفجار الثورات القبطية. والضغط يأتي من أعلى إلى أسفل، فيرتد ثورة من أسفل إلى أعلى.

وخزائن الخليفة المأمون تطالب واليه أبا إسحاق المعتصم بحقتها في أموال الجباية، وخزائن المعتصم تلح على نائبه في مصر للإسراع في توريد المال اللازم، ونائب الوالي يشتد على رجاله، ورجاله يؤججون نار قسوتهم ضد الشعب القبطي، دافع الجزية والخراج. حتى كان عام ٢١٦هـ فانفجر أتون الغضب في مصر كلها شرقها وغربها، شمالها وجنوبها، واشترك في إشعاله عربها وقبطها، ولأول مرة منذ الفتح العربي لمصر يجتمع العرب والقبط في عمل مشترك كبير في بداية القرن الثالث الهجري، بعد أن جرى الدهر على العرب، وتغيرت أحوالهم وهبطوا من منزلة الحكام الظالمين إلى أرض المحكومين المظلومين. لا أقول إن الرؤوس قد تساوت تمامًا، ولكن اقتربت المسافات وتزامنت الأحداث، وإن لم تنصهر العناصر تمامًا. وربما كانت أحداث تلك الثورة قد شكلت لبنة أساسية على طريق انصهار قبط وعرب ذلك الزمان.

ويقدم ابن إياس صورةً للتحالف المشترك بين العرب والقبط بقوله:

وانضم الأقباط عليهم - يقصد على عرب أسفل الأرض أو عرب الوجه البحري - وذلك في جمادى الأولى، وحشدوا وجمعوا فكثرت عددهم، وساروا نحو الديار المصرية، فتجهز عيسى وجمع العساكر والجند لقتالهم، فضعف عن لقاءهم وتقهقر بمن معه، فدخلت الأقباط وأهل الغربية مصر، وأخرجوا منها عيسى هذا على أقبح وجهه لسوء سيرته، وخرج معه أيضًا متولي خراج مصر، وخلعوا الطاعة^(٢).

(١) ساويرس بن المقفع، المصدر نفسه، ص ٢٦٧.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور.

وهكذا لم يكتفِ قبط مصر بالثورة في مواطنهم الطبيعية بالقرى كما كانوا يفعلون من قبل، بل خرجوا وساروا إلى العاصمة في تحالف مسلح مع العرب الثائرين ضد الحاكم الرسمي المعين من قبل الخلافة العباسية ويدعى عيسى بن منصور الراققي، ولما عجزت قوات الوالي عن صد الثورات الزاحفة إليها في عقر دارها فضلاً عن فشلها في حفظ الاستقرار السياسي للبلاد، استنجدت بالخليفة في بغداد الذي أمر الأفشين بالتوجه على رأس جيوشه من برقة إلى مصر على وجه السرعة، فقدم الأفشين حيدر بن كاوس الصفدي تحت الراية السوداء للعباسيين ليؤدب أهل مصر ويقمع ثورتهم.

ووصل الأفشين في أوان الفيضان حينما تكون قرى مصر ومدنها كالنجوم السابحة من شدة إحاطة الماء بها، فيتعذر الانتقال من بلدة إلى أخرى إلا بالسفن، ووصل الأفشين بجيشه إلى الفسطاط في جمادى الآخرة وعسكر بها حتى انتهاء الفيضان الذي يأتي بالخير حيناً وبالدمار أحياناً أخرى.

وهكذا، تزامن فيضان النيل مع فيضان ثورة الشعب بينما الجيش الفاتك القادم تحت الراية السوداء للخليفة يقيم «بالفسطاط لأن النيل في مده قد حال بينه وبينهم، ثم خرج الأفشين وعيسى بن منصور جميعاً، فعسكروا في شوال سنة ست عشرة، فحاربه أهل نتو وتمي، وقد اجتمعوا بأشليم، وعقدوا عليهم لابن عبيدس الفهري من ولد عقبة بن نافع، فواقعهم الأفشين بأشليم، فهزمهم وأسر منهم كثيراً فقتلهم. ورجع عيسى بن منصور إلى الفسطاط ومضى الأفشين إلى الحوف ففلّ جماعتهم، وبعث الأفشين عبد الله بن يزيد إلى الغربية، فانهزم إلى الإسكندرية، واستجاشت عليه بنو مدلج فحصره في حصن الإسكندرية، وذلك في شوال سنة ست عشرة. ومضى الأفشين إلى شريقيون، فلقي من هناك بمحلة أبي الهيثم، فاقتتلوا. فظفر بهم الأفشين وقتل صاحبهم أبا ثور اللخمي ومضى الأفشين أيضاً إلى دميرة فحاربهم في ذي القعدة سنة ست عشرة، فظفر بهم، وخرج عيسى بن منصور من الفسطاط إلى تمي، فقاتل أهلها، فانهزم أهل تمي. وأقبل الأفشين في جنوده إلى الإسكندرية فلقية طائفة من بني مدلج بخربتا، فهزمهم، وأتوه أيضاً بمحلة الخلفاء، فهزمهم وأسر أكثرهم، فنزل بهم قرطسا، فضرب أعناقهم بها. وأتى الإسكندرية، فدخلها وهرب منه رؤساؤهم،

وهم بحر بن علي اللخمي، وابن عقاب اللخمي. وكان رئيس جماعتهم معاوية بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج. وكان دخول الأفشين الإسكندرية لعشر بقين من ذي الحجة سنة ست عشرة، ومضى الأفشين بعد فتح الإسكندرية إلى أهل البشرد، فكان موافقاً لهم وقد امتنعوا حتى قدم المأمون^(١). ونلاحظ أن نتائج معارك الأفشين لم تكن نهائية وحاسمة منذ الجولة الأولى في القضاء على ثورات كثير من المناطق، ففي منطقة تمي اندلعت الثورة عدة مرات؛ ففي المرة الأولى خرج فيها أهل نتو و تمي من بلادهم وعسكروا بإشليم حيث قاتلهم الأفشين وبدأ هناك منتصراً. ويدو أنه وثق بقوة جيشه حينما كسب تلك الجولة فأعاد عيسى بن منصور إلى الفسطاط خوفاً على أمن العاصمة، واقتطع جزءاً من جيشه وبعثه إلى الغربية ومضى هو إلى الشرقية، لكن العرب الثائرة من بني مدلج هزموا رجله عبد الله بن يزيد وطاردوه حتى اضطر للفرار إلى الإسكندرية والاحتماء بحصونها، وظل محاصراً هناك.

وبينما جيش الأفشين يتجول في الناحية الشرقية ويقا تل من موقع إلى آخر «من محلة أبي الهيثم إلى دمية قرب دمياط»، عادت ثورة تمي مرة أخرى فخرج إليهم جيش الوالي عيسى بن منصور من الفسطاط وهزمهم الهزيمة الثانية. ولم تسلم منطقة الحوف الشرقي للخلافة العباسية بسهولة، وخصوصاً زمن الخليفة المأمون، فسند ثورات عقب ثورات، وحروباً تلي حروباً بسبب زيادة الخراج ورفض العرب القيسية واليمانية لهذه الزيادات كما حدث في ثورة ١٩٤ هـ، فقدم حاتم بن هرثمة والي مصر على رأس ألف رجل ونزل ببليس، «فصالحه أهل الحوف على أداء الخراج ولكنهم ما لبثوا أن نقضوا صلحهم وثاروا عليه واجتمعوا على قتاله. فبعث إليهم جيشاً قاتلهم وأحمد ثورتهم. وانتقل حاتم من بليس إلى الفسطاط في شوال ١٩٤ هـ ومعه مائة من الرهائن من أهل الحوف. وولى أبا إسحاق بن هارون الرشيد «المعتصم» - الذي ولاه أخوه الخليفة المأمون على الشام ومصر - صالح بن شيرزاد الخراج، فظلم الناس وزاد وعسف فانتفض عليه أهل الحوف واجتمعوا وعزموا

(١) الكندي، المصدر نفسه، ص ٢١٤.

على قتاله فبعث عيسى بن يزيد الجلودي والي مصر ابنه في جيش لنصرة صاحب الخراج، فلقية أهل الحوف ببلييس في صفر ٢١٤هـ، فهزموه وقتلوا أصحابه، ونجا هو هاربًا، فلما بلغ الخبر المعتصم عظم عليه وعزل الوالي وولى عوضه عمير بن الوليد التميمي فاستعد عمير للحرب، وأراد التفريق بين القيسية واليمانية من أهل الحوف فأرسل إلى القيسية عبد الله بن حليس الهلالي ليردهم إلى الطاعة ويبعدهم عن اليمانيين. ولكن ابن حليس انضم إليهم وزادهم تحريضًا على الوالي حتى جعلوه رئيسًا عليهم. فسار إليهم عمير في جيوشه لليمنية ينصحانهم ويرغبانهم. فلم ينههم ذلك عن الحرب وزحفوا إلى عمير».

وهكذا كان الحوف الشرقي في ثورات متتالية، فبعد ثورة ١٩٤هـ التي أحمدها الوالي حاتم بن هرثمة، سجد ثورة صفر ٢١٤هـ، ثم ثورة ثالثة في شعبان ٢١٤هـ في أثناء ولاية عيسى بن يزيد الجلودي الثانية، مما اضطر المعتصم إلى المجيء بنفسه «فقتلهم وقتل أكابرهم ووضع السيف في القيسية واليمانية حتى أفناهم»^(١). وأخيرًا، كانت ثورة ٢١٦هـ التي اضطرت الخليفة المأمون إلى المجيء بنفسه «فسخط على عيسى بن منصور، وأمر بحل لوائه بلباس البياض، وقال: لم يكن هذا الحدث العظيم - يقصد أحداث الثورة - إلا عن فعلك وفعل عمالك حملتم الناس ما لا يطيقون، وكنتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد»^(٢).

فهل كان المأمون لا يعلم بأوضاع مصر غير المستقرة وهو الذي غير ولايتها حوالي عشر مرات في مدة قصيرة؟! وإذا كان لا يعلم، أفلم يسمع عن جيوشه التي جاءت لتحارب الثوار عدة مرات؟

أم أن الأمر لا يتعدى كون الخليفة كان يريد كبش فداء يضحي به أمام محكوميه، صحيح أن الخليفة المأمون كان قد ولى أخاه أبا إسحاق «المعتصم» الشام ومصر، وأن أبا إسحاق هو الذي كان يعين ولاية مصر بعد أن أصبحت إقطاعة المهدي إليه من الخليفة، ولذلك ربما يرى البعض أن الخليفة قد قطع وشائج اهتمامه بالأمر الداخلية لولاية مصر بعد أن أعطاها لأخيه طعمة، ولكن ضخامة الأحداث واتساع

(١) لمزيد من التفاصيل، انظر: حسين نصار، الثورات الشعبية في مصر الإسلامية.

(٢) الكندي، المصدر نفسه.

حجم الثورات ومجيء الجيوش من الشرق عدة مرات لإخمادها ينفي أن تكون ثورة ٢١٦ هـ مفاجئة للخليفة الذي ادعى أنهم كتموا عنه الأخبار حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد، فكيف لا يعلم الخليفة أن والي مصر قد تغير عشر مرات وأن الثورة اندلعت في ربوعها أكثر من خمس مرات، وأنها شملت الحوف الشرقي وعمت الإسكندرية في الشمال وزحفت إلى الصعيد في الجنوب.

وهكذا تصدت ثلاثة جيوش لثورات مصر؛ فكان جيش المأمون يقاتل أهل الحوف، وجيش الأفشين يحاصر أهل البشرد، وجيش موسى بن إبراهيم ابن عم الخليفة يقاتل أهل الصعيد. ونجحت الجيوش الثلاثة في إخماد الثورات المصرية، وكان حكم المأمون في القبط يقضي «بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال، فبيعوا وسبي أكثرهم»^(١).

ويقال إن المأمون كان قد استفتى في قبط مصر فقيهاً يقال له الحارث بن مسكين، وهو على مذهب الإمام مالك: «فقال: إن كانوا خرجوا لظلم نالهم فلا تحل دماؤهم وأموالهم، فقال المأمون: أنت تيس ومالك أتيس منك، هؤلاء كفار لهم ذمة إذا ظلموا تظلموا إلى الإمام، وليس لهم أن يستنصروا بأسيا فهم ولا يسفكوا دماء المسلمين في ديارهم. وأخرج المأمون رؤساءهم، فحملهم إلى بغداد»^(٢). ويقول ابن إياس: «سبوا القبط وقتلوا مقاتلتهم وأبادوهم وقمعوا أهل الفساد من سائر أراضي مصر بعد أن قتلوا مقتلة عظيمة»^(٣).

وسياسة المأمون القاضية بضرورة قتل كل الخارجين على حكمه دون هوادة كانت عامة وشاملة؛ فبعد أن حكم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال من الأقباط، وبعد أن انتصر جيشه الذي كان قد أرسله إلى الصعيد بقيادة ابن عمه موسى بن إبراهيم، أمر بأن يأتوا له بقائد ثورة الصعيد ابن عبيدس الفهري من طحا بصعيد مصر إلى سخا في أسفل الأرض وقتله هناك «وتتبع كل من يومئ إليه بخلاف، فقتله، فقتل ناساً كثيراً»^(٤).

(١) المصدر السابق، ص ٢١٦.

(٢) تاريخ اليعقوبي، ص ١٩٢.

(٣) ابن إياس، المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص ٢١٥.

(٤) الكندي، المصدر نفسه، ص ٢١٦.

ويروي الكوفي في «كتاب الفتوح» لحظة القبض على عبيدس الفهري بقوله: «أحدقت به الخيل من كل جانب، واشتعلت النار حواليه، فلما نظر إلى ذلك خرج هاربًا هو وأصحابه، فأخذ أسيرًا ومعه أصحابه».

وعوملت البشروء معاملة البلاد المفتوحة عنوة، حتى إن الطبري يتحدث عنها كما لو كانت من بلاد الأعاجم التي يدخلها جيش المسلمين للمرة الأولى فيقول: «قري كتاب فتحها لليلة بقيت من شهر ربيع الآخر»^(١).

ويبدو أن رياح الفتن قد انتقلت إلى حاشية الخليفة نفسه، حيث وشى محمد بن أبي العباس الطوسي وأحمد بن أبي داود بيهيى بن أكثم قاضي الخليفة ومفتيه، وبعد أن استمع المأمون إلى وشاية الواشين وأدرك مدى غضب أخيه أبي إسحاق المعتصم على هذا القاضي «فسخط عليه المأمون وأمر بنفيه من عسكره ونزع السواد عنه وأخرجه إلى بغداد وأمره أن لا يخرج من منزله فأخرج من مصر وأرسل موكلين به، وسخط أيضًا على عيسى بن منصور القائد الرافقي وأخرجه من عسكره، وكان السخط عليهما في يوم واحد. وكان مقام المأمون بمصر سبعة وأربعين يومًا، قدم لعشر خلون من المحرم، وخرج لثلاث بقين من صفر سنة ٢١٧هـ»^(٢).

وسكنت مصر على بحيرة الدم التي أريقَت طوال هذه المدة، ولم يعد بها من مناوئ أو معارض «فلما خمدت هذه الفتنة، سرح المأمون في ضواحي مصر، فكان يقيم في كل قرية يومًا وليلة، ثم يرحل عنها، فكان إذا نزل بقرية، يضرب له سراق من حرير، ويجلس على دكة من الأبنوس مطعمة بفضة، وينصب له عليها لواء من حرير أسود مرقوم بالذهب وتحاط به الوزراء والأمراء من كل جانب»^(٣).

(١) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، الجزء السابع، ص ١٩٠.

(٢) اليعقوبي، المصدر نفسه.

(٣) ابن إياس، المصدر نفسه.

مارية الثانية: حقيقة أم خيال؟

بعد كل هذه الثورات الناتجة عن قسوة الجبابة في جمع الضرائب والفاقة والبؤس الشديدين المحيطين بالفلاح المصري، تحدثنا بعض كتب التاريخ عن مارية أخرى، قبطية أيضًا، عاصرت وقت نزول الخليفة المأمون مصر في بداية القرن الثالث الهجري، وكان لها ولقريتها الصغيرة، المسماة طاء النمل أو طاه أنمل حكاية معه. وربما لا نجد لهذه القرية أثرًا في خرائط الجغرافيين المهمة بالأقاليم والمدن والقرى الكبيرة فقط، كما لا نجد لها ذكرًا لدى ياقوت الحموي في «معجم البلدان» القديم، أو عند محمد رمزي في «قاموس البلدان المصرية» الحديث، ولضآلة هذا الشأن مر بها الخليفة المأمون، «فلم يدخلها لحقارتها»، كما يقول المقرئ في كتاب «المواعظ والاعتبار»: «فلما تجاوزها خرجت إليه عجوز تعرف بمارية القبطية صاحبة القرية وهي تصيح، فظنها المأمون مستغيثة متظلمة فوقف لها».

ولأنه لا يعرف لغتها فلم يفهم سبب صياحها، إنها تتحدث باللغة القبطية على الرغم من كونها تعيش في القرن الثالث الهجري، والخليفة العربي ورجال دولته يعرفون أن شعب مصر القبطي وخصوصًا في القرى ما يزال متمسكًا بلسانه القبطي، ولذلك فقد كان المأمون يحتاط للأمر «ولا يمشي أبدًا إلا والترجمة بين يديه من كل جنس، فذكروا له أن القبطية قالت: يا أمير المؤمنين، نزلت في كل ضيعة وتجاوزت ضيعتي والقبط تعيرني بذلك وأنا أسأل أمير المؤمنين أن يشرفني بحلولة في ضيعتي ليكون لي الشرف والعقبى ولا تشمت الأعداء بي، وبكت بكاء كثيرًا؛ ففرق لها المأمون وثني عنان فرسه إليها ونزل»^(١).

(١) المقرئ، المقفى الكبير.

عاد المأمون أدراجه ودخل قريتها هو ورجال دولته، ولكن هل تقدر تلك العجوز القبطية على استضافة الخليفة والجموع المصاحبة له؟ هذا ما لمح به المأمون لحاشيته حينما قال: «إن قريتها صغيرة لا تحمل العسكر، ولا تطيق هذه العجوز كلفتنا»^(١). وكانت القرى المصرية تضج قبل ذلك من كلفة الضيافة الإجبارية للجنود العرب، فما بالناس بكلفة استضافة الخليفة وحاشيته ورجال دولته وعساكره وهو الذي يني له «بكل قرية دكة يضرب عليها سرادقه والعساكر من حوله وكان يقيم في القرية يوماً وليلة»، كما يقول المقرئ، أو حسب تفصيل ابن إياس بأنه «كان إذا نزل بقرية يضرب له سرادق من حرير، ويجلس على دكة من الأبنوس مطعمة، وينصب له عليها لواء من حرير أسود، مرقوم بالذهب وتحاط به الوزراء والأمراء من كل جانب». وبرغم هذه الحشود الرسمية وضآلة حجم القرية بالنسبة لها فقد أصرت العجوز على التمسك بالدعوة قائلة: «لا سبيل أن يتجاوز أمير المؤمنين قريتي، فعند ذلك ثنى المأمون عنان فرسه ونزل بقريتها، وضرب بها خيامه»^(٢). فهل تستطيع أن تقوم بواجب الضيافة وتوفر له ما كانت تقدمه القرى الأخرى «من الغنم والدجاج والفراخ والسمك والتوابل والسكر والعسل والطيب والشمع والفاكهة والعلوفة، وغير ذلك»^(٣).

وكالعادة تقدم رواية ابن إياس تفاصيل أكثر، فيقول:

فلما استقر بها ومن معه من المعسكر، جاء ولد تلك العجوز إلى صاحب المطبخ وقال له: اذكر لي ما تحتاج إليه من غنم، وبقر، ودجاج، وأفراخ السمك، وأوز، وسكر وعسل، وفستق، ولوز وفاكهة، وحلوى، ومسك، وماورد، وشمع، وبقوليات وغير ذلك مما جرت به عادة الخلفاء. فلما ذكر له صاحب المطبخ ما تحتاج إليه فغاب ساعة يسيرة وأحضر له جميع ما يحتاج من تلك الأصناف التي ذكرها له، ثم أحضر لأقارب المأمون لكل واحد منهم ما يخص به على انفراد^(٤).

(١) ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.

(٤) ابن إياس، المصدر نفسه.

وأقارب المأمون المصاحبون له في تلك الجولة هم: «أخوه المعتصم وابنه العباس وأولاد أخيه الواثق والمتوكل ويحيى بن أكثم - قبل أن يغضب عليه الخليفة ويبعده - والقاضي أحمد بن داود»^(١)، ومع كل واحد من هؤلاء حاشيته وأتباعه الكثيرون.

ومارية العجوز القبطية أحضرت لكل فيلق «ما يخصه على انفراد، ولم تكل أحدًا منهم ولا من القواد إلى غيره، ثم أحضرت للمأمون من فاخر الطعام ولذيذه شيئًا كثيرًا حتى إنه استعظم ذلك. فلما أصبح وقد عزم على الرحيل حضرت إليه ومعها عشر وصائف مع كل وصيفة طبق، فلما عاينها المأمون من بُعد قال لمن حضر: قد جاء تكم القبطية بهدية الريف الكامخ والصحناء والصبر. فلما وضعت ذلك بين يديه إذا في كل طبق كيس من ذهب فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته، فقالت: لا والله لا أفعل، فتأمل الذهب، فإذا به ضرب عام واحد كله، فقال: هذا والله أعجب، ربما يعجز بيت مالنا عن مثل ذلك. فقالت: يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحقر بنا، فقال: إن في بعض ما صنعت لكفاية، ولا نحب التثقل عليك، فردي مالك بارك الله فيك، فأخذت قطعة من الأرض وقالت يا أمير المؤمنين، هذا، وأشارت إلى الذهب، من هذا، وأشارت إلى الطينة التي تناولتها من الأرض، ثم من عدلك يا أمير المؤمنين، وعندي من هذا شيء كثير، فأمر به فأخذ منها، وأقطعها عدة ضياع، وأعطاهما من قريتها طاء النمل مائتي فدان بغير خراج، وانصرف متعجبًا من كبر مروءتها وسعة حالها»^(٢).

تلك هي قصة مارية القرن الثالث الهجري التي ذكرها المقرئزي ونقلها عنه ابن إياس بتفصيل أكبر في بعض المواضع. أما المؤرخون الأقرب عهدًا من زمن حدوث الحكاية والمهتمون بالإشارة إلى ما يخص ثورات الأقباط وخصوصًا أحداث عام ٢١٦هـ وزيارة المأمون لمصر، مثل الكندي المتوفى عام ٣٥٠هـ، فلا نجد لديه أي أثر عن هذه الحكاية الشبيهة بحكايات ألف ليلة وليلة، كما لا نجد لها أثرًا أيضًا لدى المتأخرين من المؤرخين مثل السيوطي في كتابه «تاريخ الخلفاء» و«حسن

(١) المقرئزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.

(٢) المصدر السابق.

المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة» أو لدى ابن تغري بردي الأتابكي في كتابه المهم «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة».

وفي الحقيقة إن القصة التي ذكرها المقرئ في أفاض فيها ابن إياس تحتاج إلى بعض التأمل. فحكاية مارية القبطية التي لم تخرج من قريتها، ولم تذهب إلى الحكام بل جاء إليها الخليفة تجعلنا نتساءل: كيف يعقل أن تمتلك كل هذا القدر من المال والذهب والمؤمن في نفس الوقت الذي كانت كل القرى الأخرى تشكو الجوع والفاقة وفداحة استنزاف الجباة لثرواتها أولاً بأول؟ هل كانت قريتها قطعة منتزعة من خريطة العذاب والواقع على القرى الأخرى؟ أم أن العجوز وجدت كنزاً قررت بذله لرجال الدولة عن طيب خاطر؟ ولكنها تقرر في النص السابق أن هذا - مشيرة إلى الذهب - من هذا - مشيرة إلى الطينة التي تناولتها من الأرض - مما ينفي فكرة العثور على كنز مفاجئ.

فهل أخرجت مدخراتها وخبيثة زمانها؟ وأنى لها الادخار في ظروف جعلت أقرانها يبيعون أولادهم نظير ما عليهم من خراج. ويكفي أن نقرأ وصف البطريك ديونيسيوس بطريك كنيسة إنطاكية والذي كان يحظى بمنزلة عالية لدى الخليفة المأمون فاصطحبه معه في رحلته إلى مصر وليساعده في التقرب إلى أقباط مصر وتهدة ثورتهم.

ويحكي ديونيسيوس عن مدينة تنيس وهي مدينة كبيرة نسبياً فيقول:

ومع أن مدينة تنيس عامرة بالسكان كثيرة الكنائس فإنني لم أر من البؤس في بلد أكثر من بؤس أهلها، وقد سألتهم عن مصدر هذا البؤس فأجابوني: إن مدينتنا محاطة بالماء فلا نستطيع زرعاً ولا تربية ماشية، والماء الذي نشربه يجلب لنا من بعيد، ونشتري الجرة منه بأربعة دراهم، ولا شغل لنا سوى نسيج الكتان، فنسأؤنا تغزله ونحن ننسجه، ونعطي على ذلك نصف درهم في اليوم من تجار الأقمشة، ومع أن أجرتنا لا تكفي لإطعام كلابنا فإن على كل منا أن يدفع ضريبة مقدارها خمسة دنانير، ومع ذلك نُضرب ونُسجن ونُلْزم بإعطاء آبائنا وبناتنا رهائن، فيلزمون بالعمل كالعبيد سنتين لأجل كل دينار، ولو ولدت عندهم امرأة طفلاً فإنهم يأخذون قسمنا بالآ نطالب به، وقد يحدث أن تحل ضرائب جديدة قبل إطلاق هؤلاء

النساء. فأجابهم البطريق بأنه بحسب قانون العراق عليهم متى طلبت منهم الجزية أن يدفع الغني منهم ثمانية وأربعين درهماً والمتوسط أربعة وعشرين والفقير اثني عشر درهماً. وكانت الجزية تؤخذ مقسطة على ستة أجزاء أو خمسة أو أربعة أو ثلاثة أو اثنين^(١).

ومأساة مدينة تنيس تكررت في البلاد المصرية الأخرى مما دفع إلى الثورة العارمة، فكيف تُستثنى قرية مارية القبطية من تلك الظروف العامة، وحتى إذا سلمنا بملكيتها لتلال الذهب في الحكاية، لأسباب خارجة عن منطقنا المحدود أو بمقتضى التسليم بمبالغات المؤرخين فكيف تبذل ما تملك بتلك السهولة لملوك أبادوا إخوتها القبط في مواضع ثوراتهم، فليس سرّاً أن الخليفة المأمون لم يكن يتنزه هو وعساكره ورجال دولته في ربوع مصر من أجل التمتع بالخضرة الوارفة وتنسم الهواء العليل، ولم يكن في رحلة صيد كالتي نسمع عنها في حكايات ألف ليلة وليلة، وإنما كان في جولة تأديب للقطر المنشق عن طاعته في ثورات متتالية فشلت جيوش قواده في إخمادها فاضطر إلى أن يأتي بنفسه على رأس جيش كبير، بل ثلاثة جيوش بعث بأحدها إلى الصعيد والآخر إلى البشرد وتزعم الثالث بنفسه للقضاء على نائري سخا.

وتفاصيل حكاية مارية وخلفياتها غير المنطقية تدفعنا إلى التساؤل:

هل كان كرمًا من مارية؟ أم هي الحيلة والدهاء؟

هل هي مبالغات المؤرخين وما أكثرها؟

أم هو عدم صحة الحكاية من الأصل؟

وأياً كانت الإجابة فغربة القصة تأتي من مفارقتها للواقع القبطي العام في ذلك

الحين وابتعادها عنه كل الابتعاد.

(١) آدم متر، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، ص ٩٧.

الكنيسة مع من؟ وضد من؟

ويظل موقف الكنيسة القبطية من ثورة الشعب القبطي يشكل علامة استفهام كبرى بلغت ذروتها في عام ٢١٦هـ مع ثورة البشموريين حيث لم يكتفِ البابا يوساب بأن «كتب إليهم كتباً مملوءة خوفاً ويذكر لهم ما يحل بهم ليعودوا ويندموا ويرجعوا عن خلافهم ويدعوا مقاومة السلطان فلم يرجعوا، فلم يفتر من مكاتبتهم كل يوم وكان يكتب إليهم فصولاً من الكتب ويقول: قال لسان العطر بولس كل من يقاوم السلطان فهو يقاوم حدود الله والذي يقاومه يدان»^(١).

ولم يكتفِ البابا بهذه المكاتيب المحطمة لروح الشعب بل كان في طليعة المستقبلين للخليفة المأمون وجيش التأديب الوافد تحت إمرته، فيقول ساويروس بن المقفع:

لما علم الأب البطرك أنبا يوساب بوصول المأمون وصحبته بطرك أنطاكية جمع الأساقفة وسار إلى فسطاط مصر ليسلم عليه كما يجب للملوك. فلما عرفه بوصول أنبا يوساب تقدم بدخوله إليه فلما حضر عنده قبله بفرح بنعمة الله الهائلة عليه، ثم عرفه أنبا ديونوسيوس - بطرك أنطاكية المقرب إلى المأمون والقادم معه من بغداد - إن أبانا لم يتأخر عن مكاتبتة البشموريين وأردعهم أن لا يقاوموا أمرك، ففرح المأمون بهذا الأمر، ثم قال للبطرك أنبا يوساب: هو ذا أمرك أنت ورفيقك البطرك ديونوسيوس أن تمضيا إلى هؤلاء القوم وتردعاهم كما يجب في ناموسكما ليرجعوا عن خلافهم ويطيعوا أمري، فإن أجابوا فأنا

(١) ساويروس بن المقفع، تاريخ البطارقة.

أفعل معهم الخير في كل ما يطلبونه مني وإذا تمادوا على الخلاف
فنحن بريئون من دمائهم.

ففعل أبوانا البطرکان وسارا إلى البشموريين وسألاهم ثم نصحاهم
ووبخاهم ليتخلوا عن أفعالهم، فلم يجيبوا ولا قبلوا سؤالهما، فعادا
وأعلمنا المأمون بذلك، فأمر حينئذ المأمون الأفشين الأمير بأن يسير
إليهم بعسكره وأن يقاتل البشموريين.

ومن الغريب ألا يسجل لنا التاريخ أي دفاع يفهم منه من قريب أو بعيد شبهة
انحياز البابا يوساب إلى شعبه البشموري، بل إننا نجد دفاعاً صريحاً عنهم يأتي على
لسان بطريرك الكنيسة الأنطاكية، وصمماً مطبقاً من بابا الكنيسة المصرية، حينما تجرأ
وذكر أمام المأمون بأن ثورة البشموريين كانت بسبب «ظلم متولي الخراج وعنتهما
وأعتابهما». فلما سمع منه المأمون هذا الكلام قال له: «اعف نفسك ولا تقم بمصر
بعد هذه الساعة، إن سمع أخي إبراهيم فهو يقتلك».

فالمأمون لم يبعثهما للتفاوض مع الشعب، وسماع شكواه ومظالمه لنقلها
إليه، وإنما بعثهما بهدف استخدام سطوتهما الدينية لإخراص الناس، وحينما تجرأ
بطريرك أنطاكية، وذكر سبب الظلم الواقع عليهم، غضب عليه ونفاه من فوره خارج
مصر دفاعاً عن أخيه إبراهيم المسؤول عن تعيين جباة الخراج الظالمين. ولم تكد
ثورة البشموريين أن تخدم والمأمون يرحل عن مصر، حتى انقلب الحكام على
البطريرك برغم تعاونه، بعد أن جرد «أخو الأفشين سيفه ليأخذ رأس البطريرك، فعند
ذلك مالت يده فوق السيف في عمود رخام وانكسر»^(١).

ونجا البابا يوساب بالصدفة من محاولة القتل، ولكن أخا الأفشين «أخذه
ليمضي به إلى أخيه كما أمره، وفيما هم يجذبونه ليخرجوه والشعب متعلق به،
قال لهم: لا تمسكوني فما نحن مقاومون للسلطان. فخرج والشعب يتبعونه باكين
يسجدون على رجليه ويديه ويظنون أنه يقتل، فلما نظرهم أخو الأمير يمسكونه
غضب جداً ورفع يده وضربه بمقرعة على رأسه؛ فانجرح عيناها، ودخل إلى
الأفشين فخاطبه بما ينبغي. ولما علم المأمون الخبر من الواردين عليه أمر أن

(١) المصدر السابق، ص ٢٧٢.

يكتب له سجل بكرامته ورعايته أن لا يعترضه أحد في أحكامه ولا في من يرسمه أو يقطعه. ثم بعد ذلك أمر المأمون أن يطلب من بقي من البشموريين بكورة مصر وأن يسيروا إلى بغداد، فسيروا وأقاموا في الحبوس مدة كبيرة حتى أراد الله خلاصهم من يد إبراهيم الملك بعد أخيه. فمنهم من رجع إلى بلده ومنهم من بقي هناك ببغداد وأنشأوا بساتين وأقاموا هناك إلى اليوم وهم إلى اليوم - يقصد يوم كتابة تلك السطور من كتاب ساويروس - يسمون أهل البشروديين^(١). وربما كانت تلك الحادثة السبب في جعل ساويروس يفكر بأن المأمون «كان رجلاً حكيماً في فعله ويبحث عن مذهبنا ويجلس عنده قوم حكماء يفسرون له كتبنا، وبهذا الحكم كان محباً للنصارى»^(٢).

لأننا إذا بحثنا عن سبب القول بحب المأمون للنصارى فلن نجد له أصلاً في حوادث البشموريين الذين لاقوا العذاب على يديه من قتل وبيع وسجن حتى إن بقاياهم لم تنعتق من السجن إلا بعد موت المأمون. وفي تاريخه لم يكن هناك تكريم لقبط مصر إلا حين أمر والي مصر بالإفراج عن البابا يوساب وأن «يكتب له سجل بكرامته ورعايته».

وظل البابا يوساب يدعو شعبه في المواقع الأخرى بطاعة الخليفة حتى يأمن عقابه وبطشه، فحينما بدأ يهتم بأمر النوبة والحبشة كتب إليهم كتباً تقول:

كانت خطيئتي تمنعني ألا أكاتبكم لأجل الحروب التي كانت بأرض مصر ومخالفة أهل البشروديين لأوامر الملك إلى أن قتلهم وأخرب مواضعهم وهدم بيعهم فوجدنا الوسيلة بهذه المكاتبه أن نعلمكم ما جرى ويجب الآن يا أحبائي أن تتموا ما يجب عليكم لهؤلاء الملوك، وإن كان لا يجب أن نأمركم بشيء من هذا فقد قاسيت عذاباً من إخوتي كما قاسى يوسف بن يعقوب من إخوته^(٣).

ومن المفارقات الطريفة أن اسم البابا يوساب الأصلي قبل دخوله الدير واندراجه في سلك الرهبنة كان يوسف، وهو نفس اسم المثال الذي شبه به نفسه في رسالته

(١) المصدر السابق، ص ٢٧٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٧٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٧٤.

إلى ملك الحبشة، ولكن أي عذاب هذا الذي سببه له إخوته من القبط؟ بينما معذوبه كانوا من الحكام العرب الذين يطالب أبناءه بطاعتهم.

والتمثيل يكون أصدق لو رأى أن الشعب القبطي كله يوسف، وخصوصًا في حالة «يوسف» ملك النوبة المطلوب منه أداء خراج أربع عشرة سنة للخليفة الجديد، وهو المعتصم الآن بعد وفاة المأمون، وقد احتار ملك النوبة حينما وصلته رسالة البابا التي يطالبه فيها بإعطاء المعتصم ما يريد.

وجعل يتساءل: «ما الذي أصنع في ما التمس مني الملك، من يجمع لي بقط أربع عشرة سنة أنفُسًا أنفذهم إليه ولا أتمكن من مفارقة كرسي لثلا يهلكوا البربر المخالفون لي»^(١).

وظل الملك مهمومًا يفكر كيف يجمع بقط أربع عشرة سنة؟ ومن أين له بخمسة آلاف وأربعين رأسًا بشرية، عن كل سنة ثلاثمائة وستين حسب الاتفاق المفروض على ملك النوبة؟ واهتدى الملك الحيران إلى أن يبعث ابنه لمقابلة الخليفة الجديد في بغداد مرورًا بمصر والمسؤولين فيها أولًا لإيجاد وسيلة تخفف من حدة تلك الشروط.

وبعد انتهاء تلك المشكلة ظهرت مشكلة أخرى في عقر دار البابا حينما «أنفذ الملك إبراهيم أخا سلمويه بن بنان - طيب المعتصم المقرب إليه - إلى مصر أن تؤخذ من البيع في كل مكان العمد والرخام»^(٢).

وكان الرجل القادم للقيام بهذه المهمة مسيحيًا على مذهب النسطورية الخلقيدونية، فحسن له أتباع مذهبه المقيمون بمصر، أعمدة كنائس الإسكندرية وكنيسة ماري مينا بمربوط، «فلما نظر إليها وإلى زينتها رأى حُسن ما فيها من العمد والرخام الملون، تعجب وبُهِت وقال هذا الذي يحتاج إليه الملك»، وبدأ فعلاً في تجريد الكنيسة من رخامها الملون وبلاطها النادر، «لأنه قائم من كل لون وليس له نظير ولا يعرف له ثمن»^(٣).

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٧٧.

(٣) المصدر السابق، ص ٢٧٨.

ولم يستطع الأنبا يوساب منع عملية تجريد الكنيسة من حليها، وكل ما فعله هو الحزن والبكاء، ثم إعادة تزيينها من جديد بحلي مستعار و«أحضر صفائح مزوقة من مصر والإسكندرية وبدأ يعمر المواضع التي قلع منها البلاط بكل زينة حسنة حتى إن كل من يشاهدها ما يعلم أن قد مضى منها شيء».

ولم تكد تنتهي محنة تجريد الكنائس من زينتها حتى تصادف حدوث وباء عظيم على البهائم بمصر، «ولا يقدر أحد أن يمشي في الأزقة إلا بعد أن يسد أنفه من كثرة جيف الدواب، حتى إن الزرع انقطع وقلت الثمرة وكانت أرض مصر في حزن عظيم، ثم عاد الوباء على الناس وفنوا مثل البهائم»^(١).
وليس أمام البابا إلا أن يبكي على شعبه.

وكان في مصر في ذلك الوقت وال اسمه علي بن يحيى الأرمني من قبل أبي إسحاق المعتصم بن هارون الرشيد أخى المأمون. و«بدأ يهدم بيع فسطاط مصر، فأول مبتدأ جاء إلى البيعة التي في قصر الشمع التي تسمى المعلقة فهدموا أعلاها حتى وصلوا إلى الأسطون».

والبابا يبكي بيعته بدموع مرة، لكن الدموع لا تفيد شيئاً. بل كان غضب الوالي يتزايد وتهديده للبابا يوساب يتزايد أيضاً فيقول له: «ما أرفع الهدم عن البيع إلا بثلاثة آلاف دينار؛ فقلق الشعب والأساقفة الحاضرون معه وقالوا: يا أبانا لا يضيق صدرك نحن نقوم بهذا المال، فقسطه علينا لتسلم البيع ولا يلحقها شيء، فتقدموا الأراخنة إلى الوالي وضمنوا له القيام بثلاثة آلاف دينار فهدأ غضبه»^(٢).

ولم تكد تنتهي تلك المشكلة حتى ظهرت مشكلة جديدة أثارها القاضي المسلم ضد البابا يوساب بسبب ثمانية من الغلمان والعبيد قبلهم البابا كهدية من ملك الحبشة، وأدخلهم أحد كتاتيب الكنيسة ليتعلموا، فعلم القاضي بذلك وأخذهم ودارت مشادة كلامية طويلة بين القاضي والبابا بشأنهم لأنهم مسلمون في رأي القاضي ونصارى في اعتقاد البابا، وفي كل مناسبة كان يوساب يؤكد للقاضي: «أنا ما أقاوم أمر الملك ولا أقاوم كلمة صالحة»، وانتهى الأمر لصالح القاضي الذي

(١) المصدر السابق، ص ٢٨٠.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨٧.

أمر بقسمة الغلمان فاقسمهم المسلمون. وكان لذلك القاضي رجل ينوب عنه بالإسكندرية وأعمالها، وكان أشرف منه، وكان اسمه محمد بن بشير، فأنفذ القاضي قاضي الإسكندرية أن يحضر الأب القديس أنبا يوساب البطريك ويحضر معه المطرانين، فقال له لما حضر عنده: «قد أعلموني أن لك غلمانًا، الذين أمرك القاضي أن لا تقبلهم إليك دفعة أخرى، بعضهم عندك، وقد أعدتهم إلى ذمتك، فأجاب القديس وقال له: ما عندي شيء مما ذكر به، وإني لم أشاهد وجه واحد منهم من ذلك اليوم».

ثم ظهرت محنة جديدة في السنة الثامنة عشرة من بطريركيته حينما «ولي على مدينة الإسكندرية أمير اسمه مالك بن ناصر الحدر، وكان إنسان سوء ظالمًا، فلما دخل المدينة بدأ أن يفعل سوءًا بكثير من الناس أكثر من الوالي الذي كان قبله فاعترض أصحاب الصنائع والتجار الكبار والبزازون والباعة، وتقدم إلى التجار الكبار والبزازين أن لا يبيعوا ويشترؤا إلا حدًا يحد لهم وعمل قياسًا كبيرًا»^(١). وقد دخل هذا الأمير الظالم بيعة البطريك مع سراريه، بل ودخل مخدعه الذي ينام فيه البطارقة كل زمان، فطرد الأب منه وأدخل سراريه إليه وأكل معهن وشرب هناك ونام معهن فيه، ولم يكن أمام البابا إلا أن ييكي.

ثم أمر الأمير باعتقال البطريك على إثر وشاية به أنه يكتاب ملوك الروم، وأنهم يبعثون إليه أموالًا كثيرة، وعول على عقوبته إلى أن يدفع له ألف دينار وهو صابر ولم يزل يهدده إلى أن استقر الحال على أربعمئة دينار، وفي اليوم السابع لحبسه حينما كان يزن الدنانير ليدفع الأربعمئة المطلوبة مات الوالي.

ولم يلبث أن اعتل البطريك بعد ذلك بحمي، وفي اليوم السابع من مرضه تنيح؛ أي مات، بعد سلسلة طويلة من التسليم بإرادة الولاة وقواد الجيوش والخلفاء، حيث عاصر البابا يوساب أربعة خلفاء هم: المأمون والمعتمد والواثق والمتوكل خلال مدة إقامته على الكرسي البابوي، وهي حوالي سبعة عشر عامًا وأحد عشر شهرًا، كان طوالها مثال البابا الخاضع لأوامر الحكام وسطوتهم، فهل كان فريدًا

(١) المصدر السابق، ص ٢٨٩.

في ذلك، أم أنه سار على نفس سياسة سابقه من بابوات الكنيسة المصرية منذ الفتح الإسلامي لمصر؟

وللإجابة عن ذلك سنعود إلى جذب طرف الخيط الأول مرة أخرى، وربما قبل ذلك بكثير.

فقد كانت الكنيسة منذ القرن الرابع الميلادي تملك مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية التابعة للأديرة والبيع المختلفة، وعلى سبيل المثال كانت تمتلك غالبية أراضي أفروديتو ومساحات واسعة من أراضي أكسير نخوس وأنطونيوبوليس، وقد ذكر المؤرخون أكثر من عشرين ديرًا وكنيسة بأنطونيوبوليس فقط.

ويقال إن أكبر الأديرة بمصر دير أنطانيوس، «وهو يقع شرقي إطفيح من قبلي مصر، وهو على جبل عال، وله بمصر وقوفات وأملاك عدة، وعليه حصن دائر، وداخل الحصن بستان كبير وفيه نخل مثمر، وأشجار تفاح وكمشى ورمان وغير ذلك، وأرضه مزروعة بالبقول، وله ثلاث عيون ماء تجري دائمًا ويسقى منها البستان، ومن جملة البستان فدان وسدس كرم عنب، وقيل إن عدد نخيله ألف رأس نخل، وبه جوسق كبير وقلال للربان مطلة على البستان، وله بإطفيح أيضًا أملاك وبساتين»^(١).

هذا بخلاف ما كانت تملكه الكنيسة في أسفل الأرض أو بحري البلاد، وفي الإسكندرية مقر الكرسي البابوي. وقد ظلت الكنيسة حريصة على أملاكها وأوقافها، في نفس الوقت الذي كانت هذه الأملاك محط أطماع الرومان والكنيسة الملكانية ومحل تنازع مستمر فيما بينهما.

ويذكر بعض الباحثين أن الكنيسة تمتعت «في القرن السادس بحق الجباية الذاتية فقامت بجمع الضرائب من مؤجري أرضها»^(٢).

وحينما دخلت الكنيسة القبطية في محنتها الكبرى أثناء اضطهاد قيرس الروماني لها، فر البابا بنيامين إلى أديرة الصعيد وكنائسها واختفى هناك، حيث كانت سلطة الكنيسة القبطية واسعة.

(١) آدم مترز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، ص ٨٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٦.

ثم جاء الفتح العربي لمصر، وتعاون بعض أغنياء القبط مع عمرو بن العاص وجيشه، ولعبوا دور همزة الوصل بين عمرو من جهة والكنيسة القبطية من جهة أخرى. ومن المعروف أن «الدوقس سنوتيوس» أو الرئيس شنودة كان من بين قواد الأسطول الروماني، وكان من أنصار الكنيسة القبطية الأرثوذكسية وكان مخلصًا للبابا بنيامين. وتقرب الدوقس سنوتيوس أو الرئيس شنودة من عمرو بن العاص بتقديم خدمات كثيرة له ولجيشه من إصلاح الطرق والجسور وإمدادهم بالمراكب اللازمة للعبور وتعريفهم بأسرار الخريطة المصرية.

فلما استقر الحكم العربي في الإسكندرية قربه القائد عمرو إلى مجلسه فانتهز سنوتيوس الفرصة وأخذ بتمهيد السبيل لإعادة البابا بنيامين إلى كرسيه، ولما أطلع عمرو على جلية الأمر كتب أمانًا للبابا بنيامين وأقر عودته ليكون حر التصرف مطلق اليد في جميع بيعه وأديرته وأوقافه بل أعطاه إلى جانب ذلك حق التصرف في كثير من أملاك الكنيسة الملكانية وأوقافها بعد خروج الرومان من مصر.

وقد أحدث عمرو بن العاص معيارًا مزدوجًا في المعاملة واستخدمه استخدامًا سياسيًا موفقًا حين أعطى للكنيسة امتيازات لم تكن تنتظرها أو تحلم بها في نفس الوقت الذي طبق فيه قانون جباية الجزية والخراج من جموع الشعب القبطي دون هوادة.

بل إن القبضة التي استخدمها عمرو في تشديد سيطرته على الشعب كانت قبطية بالدرجة الأولى بعد أن قرب أغنياء القبط إليه، وترك لهم أعمالهم على جاري عاداتهم، فظلوا الأعيان وسماهم «مقدمي القبط» واستخدم موازيت القرى أو المشرفين على جباية ضرائبها من القبط، وبذلك خلقت تلك الازدواجية التي قسمت الشعب القبطي ورسخت انقسامه.

الأراخنة... الأراخنة... سامحهم الله

وظل أغنياء القبط حلفاء للحكام العرب يلعبون دور التهدة وتمير السياسات. وإذا ما تتبعنا تجليات هذه العلاقة المعقدة بين الثالوث المقدس: الحكام العرب والكنيسة وأغنياء القبط من خلال كتابات ساويروس بن المقفع، فلن يصيبنا الحزن إلا على فقراء الشعب القبطي وقود الثورات وضحاياها في نفس الوقت. فمقدمو القبط عملوا في الدواوين والموازيت تحت عباءة الحكم العربي ورايته.

والكنيسة ظلت بحكمتها الأزلية القائلة: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله». وحكمة القديس بولس القائلة: «أعطوا الجميع حقوقهم، الجزية لمن له الجزية، الخوف لمن له الخوف، الإكرام لمن له الإكرام».

وكل تعاليم الرسل القاضية بضرورة الصلاة «لأجل الملوك والذين لهم منصب». وفي أوقات تأزم العلاقة بين الكنيسة والحكام العرب يتدخل أغنياء القبط لحل الأزمة، ولما كانت محنة البابا ألكسندروس الثاني مع قرة بن شريك و«نهبه جميع مال البيعة حتى الكاسات اللاتي يدفع فيهن الدم الزكي جعلنا عوضاً من الذهب والفضة كاسات زجاج والدسقاب خشباً»^(١).

ولحل هذه المشكلة تقدم أرخن ذلك الزمان واسمه يؤنس وهو أحد أغنياء القبط و«رزقه الله قبولاً عند الولاة»، وطلب يؤنس من قرة أن يولييه أمر النصارى ليستخرج منهم الخراج فولاه على الأساقفة والرهبان. وعمل هذا الأرخن على قمع الاتجاهات المذهبية المخالفة للكنيسة القبطية.

(١) ساويروس بن المقفع، تاريخ البطارقة، ص ١٤٤.

وكان اختلاف الآراء الدينية شائعاً في أوساط بعض الرهبان فانتصر لرأي الكنيسة القبطية «وجمع كورة مصر جعلها إحاداً واحداً وأمانة واحدة وأبطل سائر المقالات النجسات» كما يقول ساويرس بن المقفع.

وما لبث أن تلاشى الهدوء بتلاشي المال المدفوع إلى قرة بن شريك، وزادت شراسته فأحدث بدعة الاستيلاء على ميراث الأراخنة فكان «كل أرخن يموت يأخذ جميع ماله، وكان قد مات صاحب ديوان الإسكندرية وبقيرة الذي كان كاتباً من تنيس وجماعة لا يحصون من مصر. وأخذ مالههم حتى الأساقفة، أخذ ميراث الجميع»^(١). والأكثر من ذلك هو صدور أمر نهب الثروات المعمارية للكنيسة «بأن تقلع من البيع العمدة الملونة والرخام الذي في البيع ويحمل جميعه»^(٢)، وكان الأب البطريك حزيناً لأجل بيعته لأنها صارت خراباً لأجل ما فعلوه معه وهو مع هذا يشكر الله ويصبر بشجاعة.

وحينما تولى أسامة بن زيد التنوخي بعد قرة أمر بتفتيش الأديرة ومراجعة كشفها «فوجد فيها جماعة من الرهبان بغير حلق في أيديهم، فمنهم من ضربت رقبة، ومنهم من مات تحت السياط، ثم إنه سمر باب البيعة بالحديد وطلب منهم ألف دينار وجمع مقدمي الرهبان وعذبهم والتمس منهم عن كل واحد منهم ديناراً، وقال: متى لم تقوموا بذلك هدمت البيع وأخربتكم وجعلتكم في مراكب الأسطول، فقلقوا الشيوخ الرهبان وتمنوا الموت»^(٣).

ولم تخرج الكنيسة القبطية من هذا المأزق إلا بموت الخليفة سليمان بن عبد الملك، وتولي عمر بن عبد العزيز الذي عزل والي مصر أسامة بن يزيد التنوخي و«أمر أن لا يكون على أواسي البيعة والأساقفة خراج، وبدأ أن يجعل البيع بغير خراج والأساقفة وأبطل الجبايات». في نفس الوقت الذي أمر فيه بأن «تؤخذ الجزية عن سائر الناس الذين لا يسلمون»^(٤).

(١) المصدر السابق، ص ١٤٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٦.

(٣) المصدر السابق، ص ١٤٨.

(٤) المصدر السابق، ص ١٤٩.

ثم تولى عبید الله بن الحبحاب ولاية مصر فبادر إلى وسم جميع الأقباط حتى إنه قبض على البطريك نفسه ليسمه.

وكان البطريك شديد الحزن رافضاً كل الرفض لوسمه بتلك العلامة ومات من شدة غمه. وقبض الوالي على مساعده الذي حاول الفرار معه من الوسم وطالبه بألف دينار نظير إطلاق سراحه، وجعل عسكره يعذبونه على مرأى من الناس أمام كنيسة ماري جرجس حتى جمع له الناس ثلاثمائة دينار وتوسط له رؤساء النصارى.

وفي ولاية حفص بن الوليد ذهب أراخنة مصر إلى البطريك ينعون إليه نتيجة آخر إحصاء توصلوا إليه لعدد القبط المتحولين إلى الإسلام لقد «حضر وا عنده وهم حزاني وقالوا له: يا أبانا صلّ علينا واجتهد فقد أحصينا من انتقل إلى الإسلام من إخواننا من بني المعمودية من مصر وأعمالها على يدي هذا الوالي أربعة وعشرين ألف إنسان، فقال لهم الأب: يا أولادي آمنوا أن في هذا الشهر تنظرون بأعينكم هذا الوالي الكافر حفصاً يحرق جسده بالنار في وسط فسطاط مصر ويقتل رجا بالسيف، فتمت نبوءة هذا الأب بسرعة»^(١).

وكما نعلم من أحداث التاريخ فقد بعث الخليفة جيشاً بقيادة حوثره وانتصر على المتمردين وأحرق حفص وقتل رجا بالسيف.

وفي نفس زمن البابا خائيل تحايل بعض التجار الخلقيدونيين ودفعوا للخليفة مروان مالاً ليستردوا كنيسة أبي مينا بمربوط بحجة أنها كنيسة ملكانية وقد انتزعتها منهم الكنيسة القبطية. وأرسل الخليفة مروان بن محمد إلى والي مصر عبد الملك بن موسى بن نصير ليحقق في الأمر ويرى لمن تكون ملكية الكنيسة محل النزاع، فجمع الوالي ممثلي الطرفين لينظرهم في الأمر.

فكان زحام شديد. أناس من كل مكان؛ قبط وملكانيون، قسس ورهبان، كتاب وأراخنة، «سادة ومسؤولون ورؤساء عائلات» من الصعيد ومن بحري، جموع كبيرة يحيط بهم عسكر وموَالٍ، وهناك في المقدمة على سرير الملك جلس والي

(١) المصدر السابق، ص ١٦٨.

مصر عبد الملك بن موسى بن نصير وحوله حجابيه وعساكره ورجال دولته وكتابه وقضاته وبعض أعيان العرب في مصر. أزياء مختلفة، ووجوه مختلفة، ضجيج عظيم ولا أحد يسمع شيئاً من كثرة الأصوات وتداخلها.

وقد دعا الوالي رجال الكنيستين في هذا المحفل أو تلك المناظرة ليحل مشكلة قديمة تعود إلى بداية الفتح العربي لمصر، وقد سبق هذا الجمع تحقيق استمرار حوالي الأربعين يوماً، أو كل خلالها الوالي إلى صاحب ديوانه ويدعى عيسى بن عامر أمر النظر في تلك القضية الشائكة، وحاول الملكانيون رشوة عيسى بن عامر وحملوا إليه الهدايا ليساعدهم فيما يلتمسونه، أما البطريك القبطي البابا خائيل فكتب رسالة تثبت حق كنيسته في بيعة أبي مينا بمربوط وسلمها لعيسى، وقد مال عيسى هذا مع الملكانيين بسبب ما قدموه له من هدايا، ورفض البطريك القبطي دفع رشوة، وما لبث عيسى بن عامر أن عُزل عن أمور الديوان وتولى مكانه رجل يدعى أبا الحسين، فأنصف البطريك القبطي وحكم له. لكن الحكم لم يعجب الملكانيين فرفعوا أمرهم مرة أخرى للوالي الذي دعا الجميع إلى ذلك المحفل في قصره. ويقول ساويروس:

حضرنا جميعاً بعد هذا عند الملك وكان قد كتب ذلك اليوم كتاباً إلى مصر وأعمالها يأمر أن يجمع إليه الكتاب والأراخنة من كل بلد، وأحضرهم، وكان القصر مشحوناً بالناس حفلاً، حتى لم يكن أحد يسمع شيئاً من كثرة الأصوات، فدخلنا نحن أيضاً وحولنا خلق كثير فلما جلسنا انفرد قسطنطين الأسقف عنهم - يقصد عن الجانب الملكاني - وجلس مع أساقفتنا وسألهم أن يقبلوه ويشركوه معهم ويعطوه كرسیه، وكانت الجموع وأهل البلاد حولنا متطلعين لمعرفة ما يستقر وينظرون أساقفة الأرثوذكسيين والخلقيدونيين فوثبوا قوم من الصعيديين - قبط الصعيد - على قسطنطين لما علموا أنه خلقيدوني ليطرده حتى رموا الأساقفة الأرثوذكس شيئاً من لباسهم وأخلطوه معهم وإلا كادوا الصعيديون يقتلونه، ثم صرخوا الصعيديون قائلين أبعدوا الذئاب من وسط الخراف، اهربوا من السباع الضارية المفترسة للنفوس، اطردها الثعالب الذين يهلكون كرم رب صباوت، أبعدوا يودس من وسط تلاميذ المسيح لا تجعلوا ثيابكم تخلط بهؤلاء الأنجاس يا عبيد المسيح، فعند ذلك اختفى قسماً إلى أن زال غضبهم.

ثم حضر للوقت الأرخن متولي الإسكندرية إبراهيم الماحكي لأنه كان جالسًا في ناحية من القصر ومعه جماعة من الهرطقة، فجروا وأرادوا الهرب، وأن رجلاً من أهل دمياط كان شريرًا جدًا فخاطبته أنا الخاطيء بكلمة سمعتها فوثب في وسط الجماعة ووقف وشتمني وجدف على الثالوث المقدس، فحينئذ شاهدته وكل الحاضرين قد انشق الثوب الذي عليه من فوق إلى أسفل على ثلاث قطع فصرخ كل من في القصر المسلمون والنصارى: لا أمانة إلا أمانة الأب أنبا خائيل، وكان صراخًا عظيمًا في القصر، وسعوا الناس لينظروا ما قد كان حتى إن الناس والعسكرية من كثرة زحامهم نالهم جراح وقتال؛ فأمر عبد الملك بإخراج كل من في القصر^(١).

وهكذا فشلت المناظرة وكادت أن تنقلب إلى حرب ضروس بين الطرفين لولا سيطرة عسكر الوالي على الموقف وإخراجهم لكل من في القصر.

وقد قصدت تقديم نص ساويروس لتوضيح صورة أول مؤتمر يجمع بين المذاهب المتصارعة على ملكيتها للكنائس، ومن خلف كل جانب أغنياء يدفعون الصراع ويؤججونه، وحينما أعلن أحد القساوسة الملكانيين رغبته في الدخول تحت عباءة الكنيسة القبطية، أراد إبراهيم الماحكي الانسحاب ومعه فريق من الملكانيين الذين يسميهم ساويروس الهرطقة. وينفض المؤتمر دون حل وتعود القضية على قاضي البلاد المسلم لينظر في دعاوى الجانبين بعد أن أمره الوالي «أن يفصل النوبة، وقال أنجز حالهم ودعهم أن يمضوا».

وبعد سماع الطرفين واستقصاء مدى صحة كلامهما سلم البيعة للأنبا خائيل فعادت كنيسة أبي مينا بمربوط إلى الرعايا القبطية. ولم تكدمضي فترة قصيرة حتى قبض الوالي على الأنبا خائيل بطريق القبط حتى يوفي بالخراج الواجب على كنائسه، وتوالت أحداث سقوط الدولة الأموية ونزل الستار على آخر فصولها والخليفة ينتف شعر البابا ويعذبه على مرأى ومشهد من الجيش العباسي الوافد على الضفة الأخرى من النهر وبصحبه أراخنة القبط ومقدموهم يفتحون لهم الطريق ويمدونهم بالسفن ويعرفونهم أسرار الخريطة المصرية أيضًا.

(١) المصدر السابق، ص ١٧٤، ١٧٥.

ملحق ١

تصحيح خطأ في رواية «البشموري» للكاتبة سلوى بكر

في رواية «البشموري» تخلط سلوى بكر بين ثورة البشموريين، التي حدثت في زمن البابا خائيل، وهو البابا رقم ٤٦ في الكنيسة المصرية، وقد جلس على كرسي البطريركية منذ ١٤ سبتمبر ٧٤٣م وحتى وفاته في ١٢ مارس ٧٦٧م، فكانت مدة إقامته على الكرسي حوالي ثلاثة وعشرين عامًا ونصف العام، عاصر خلالها من الخلفاء: هشام بن عبد الملك والوليد بن يزيد وزيد بن الوليد وإبراهيم ومروان وعبد الله أبي العباس السفاح وأبا جعفر المنصور - وبين ثورة البشامرة التي حدثت في زمن البابا يوساب، وهو البابا رقم ٥٢ في تاريخ الكنيسة القبطية، وقد تولى منذ ١٨ نوفمبر ٨٣١م حتى ٢٠ أكتوبر ٨٤٩م. وكانت مدة إقامته على الكرسي سبعة عشر عامًا وأحد عشر شهرًا عاصر خلالها من الخلفاء: المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل. وقد اختلقت ثورة البشموريين على الكثير من الباحثين بسبب اشتغالها عدة مرات في نفس المنطقة والمناطق المحيطة بها.

وقد وقعت سلوى بكر في نفس الخطأ حينما جعلت مينا بن بقيقة زعيم ثورة البشموريين في أثناء ولاية البابا خائيل على كرسي البطريركية، هو نفسه زعيمًا لثورة البشموريين في عهد البابا يوساب.

ولا يخفى علينا أن الأولى قد تزامنت مع أحداث سقوط الدولة الأموية وبداية تأسيس الدولة العباسية. بينما ثورة البشموريين المعاصرة للبابا يوساب لم يكن يتزعمها بشموري بهذا الاسم. كما اختلفت أحداثها عن الأحداث الأخرى المعاصرة للبابا خائيل.

فبينما كانت ثورة البشموريين بقيادة مينا بن بغيرة في عهد البابا خائيل ضد الدولة الأموية، وخليفته مروان بن محمد، وقائد جيوشه المدعو كوزارا أو الحوثر الذي قبض على الأب خائيل وقال له: «كيف مكنت أولادك النصارى - يعني البشامرة - أن يقتلوا» وحمله نتيجة الثورة فسجنه وطالبه بالأموال وعذبه بأن جعل رجله في طوبة حديد. ثم فكر الحوثر بعد ذلك في استخدام البابا خائيل لمكاتبة البشموريين وإقناعهم بالتراجع عن الثورة، فحمله معه إلى رشيد وأمره بأن يكتب لهم ويقول: إن كل ما حل به من سجن وتعذيب كان بسبب ثورتهم. فاستشاط البشامرة وضاعفوا ثورتهم ضد آخر جيش أموي، في نفس الوقت الذي كانت انهيارات الدولة الأموية تتوالى بسرعة مذهلة، وتنتهي بفرار الخليفة مروان بن محمد إلى مصر وإحراق القسطنطينية كما رأينا.

واندفع البشامرة في مساعدة الجيش العباسي فأمدوهم بالمراكب وبالمعونة ليتمكنوا من القضاء على الخليفة الأموي القابض على البطريرك خائيل... «وكانوا البشامرة قد لقوهم من الفرما وقالوا للخراسانيين: إن بطركنا قد أخذه مروان ليقتله بسبب أننا قاتلناه وقتلنا عسكره قبل مجيئكم».

ملحق ٢

الموقع الجغرافي لبلاد البشموريين

حينما نذكر البشموريين يجب أن نسأل أين تقع بلاد البشموريين على وجه التحديد؟ خصوصاً وقد اختلف المؤرخون والباحثون وتضاربوا بشأن موقعها واسم سكانها. فعلى حين يسميهم اليعقوبي - المتوفى بعد سنة ٢٩٢ هـ - أهل البشرد في موضع، وفي موضع آخر يقول إن البيما هم قط البشرد، ثم يذكر البشرد ضمن كفور أسفل الأرض. يذكر ابن عبد الحكم صاحب «فتوح مصر» أن الخيس من البيما ظلوا يقاتلون الناس سنين بعد ما فتحت مصر. الكندي أيضاً يسميهم أهل البشرد كما يتفق معه المقرئ في استخدام الاسم نفسه، وكذلك ساويرس بن المقفع حيث يقول «البشموريون وهم إلى اليوم يسمون البشرودين».

ويحدد ياقوت الحموي موقع البشرد على كورة دمياط وأن فيها قرى وريفاً وغياضاً وفيها كباشاً ليس في الدنيا مثلها عظماً وحسناً. ويعود في موضع آخر لذكرها باسم البشرد قائلاً إنها كورة من كور بطن الريف بمصر، كذلك يفعل القزويني صاحب كتاب «آثار البلاد وأخبار العباد»، حينما يقول: البشرد هي كورة بمصر بها قرى وريف وغياض، وبها كباش ليس في جميع البلاد مثلها عظماً وحسناً. ويذكرها البكري الأندلسي دون تحديد مكان لها على وجه التحديد ولكنه ينسب إليها قول أبي تمام، الشاعر العباسي المشهور، في هجاء بعض الناس وتذكيرهم بأصل يبدو في رأيه وضيقاً حيث يقول:

ونسيت سوء فعالكم نسيانكم أساسكم في كورة البشرد

ويضعها القلقشندي في الجزيرة الواقعة بين فرقتي النيل الشرقية والغربية، والحاوية خمس كور: فهي تجاور كورة دميس ومنوف وكورة طوة ومنوف وكورة سخا وكورة نقيرة وديصا وهي الكورة الخامسة إلى جوارها ثم يذكر أنها

من الأسماء التي جهلت، أما أبو الفدا في كتاب «تقويم البلدان» فيحدد موقعها فيما بين نيل أشموم طناح وهو الشرقي، ونيل دمياط وهو الغربي، وما بين هذين النيلين جزيرة يقال لها البشمور، وفي موضع آخر يحدد عاصمة البشمور بأنها أشموم طناح أو أشموم الرما، ويسميتها العامة الآن أشمون الرمان، التي هي قصبة - أي عاصمة - كورة الدقهلية وقصبة البشمور أيضًا.

ويشاركه الأسعد بن مماتي في كتاب «قوانين الدواوين» تحديد موقع البشمور في الدقهلية. وساوירوس يقول إنها على مسيرة يومين من رشيد، ويذكر أهلها حينًا باسم البشموريين وحينًا باسم البشروديين. وكذلك المقرئ يسميهم أهل البشروء. فالقدماء يجمعهم الميل إلى ذكرها ضمن الحوف الشرقي بالقرب من بحيرة المنزلة ودمياط وتيس عمومًا والدقهلة خصوصًا، أما الباحثون المحدثون فيرون مكانها بوضوح أحيانًا وتغيب عنهم الرؤية أحيانًا أخرى، فيذكر علي باشا مبارك في كتاب «نخبة الفكر في تدبير نيل مصر» بلادًا تعرف بالبشمور عند بحرويش وفي قلبه بقليل مدينة سمنود، وكان يمر بأسفل بلاد الغربية في بلاد تعرف بالبشمور ويصب في المالح عند مدينة بوطو القديمة، وفي موضع آخر يقول إن بحرويش هذا الذي تقع عليه البشمور يستمر إلى المنصورة أو قربها، فينقسم إلى البحر الصغير وبحر دمياط. أما محمد رمزي فيقول في «القاموس الجغرافي» إنه بعد بحثه عن موقع البشروء تبين له أنها كانت كفر الشيخ بمديرية الغربية ويدل عليها حوض البشروء رقم ١١ المحرف عن البشروء بأراضي الناحية المذكورة، ثم يقول إن البشمور كان يطلق قديمًا على إقليم من أخصب الأقاليم في شمال مصر شرقي الدلتا ويسميه اليونان^(١) Bucolies، وورد في «معجم البلدان»: «البشمور كورة بمصر قرب دمياط». وفي «الانتصار»: «البشمور من نواحي أعمال الدقهلية»، وفي «تاج العروس» نفسها: «البشمور قرية بالدقهلية».

وبالبحث عن موقع هذا الإقليم تبين لي - محمد رمزي - أنه كان يشمل منطقة الأراضي الزراعية التي تقع اليوم بين فرع النيل الشرقي وهو فرع دمياط، وبين البحر الصغير بمديرية الدقهلية، وذلك في

(١) محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية، القسم الأول، ص ٣١.

المسافة الواقعة على فرع دمياط بين قرية محلة أنشاق وقرية السرو
بمركز فارسكور، وفي المسافة الواقعة على البحر الصغير بين قرية
القباب الكبرى وقرية برمبال القديمة بمركز دكرنس، وفي عهد دولة
المماليك كان البشموور يطلق على أرض زراعية ذات وحدة مالية
وقد ألغيت هذه الوحدة وأضيف زمامها إلى أراضي ناحية دكرنس
بمديرية الدقهلية، ويدل على موقع هذه الوحدة حوض البشموور رقم
٣٢٢ بأراضي ناحية دكرنس المذكورة^(١).

وبذلك يفرق محمد رمزي بين البشروود ويضعها في كفر الشيخ، والبشموور
ويتركها في الدقهلية قرب دمياط، بعكس ما اتفق عليه القدماء من أنهما شيء واحد.
وقد استقى بعض المحدثين معلوماتهم من «القاموس الجغرافي» لمحمد رمزي
دون تحقيق تلك المعلومات، فيذكر الدكتور حسين نصار، على سبيل المثال، في
هامش كتاب «ولاة مصر» الذي قام بتحقيقه للكندي، أن البشروود: كورة كانت في
أراضي ناحية سيدي غازي (الكفر الغربي سابقاً) بمركز كفر الشيخ بمديرية الغربية
ويدل عليها حوض البشروود، وبذلك يضع البشروود في الغرب مع من وضعوها غرباً.
أما الدكتور حسين مؤنس فيذكر في «أطلس تاريخ الإسلام» أن أهل البشروود هم أهل
منطقة المنزلة في الشرق - لكننا نجد ضمن خرائط الأطلس خريطة بها حوض البشموور
واقعاً بين رشيد وإسكندرية غرباً متفقاً في ذلك مع خريطة وردت في كتاب: «تاريخ
الكنائس والأديرة في القرن الثاني عشر الميلادي» لأبي المكارم الذي يُنسب خطأً لأبي
صالح الأرمني - ويقع جاك تاجر^(٢) في خطأ أكبر حينما يعرف أراضي البشمووريين
بأنها «أرض واقعة على مستنقعات يزرع فيها الغاب بين الإسكندرية ورشيد بالقرب
من بحيرة إدكو» وربما يعود مصدر خطئه إلى الاعتماد على كلام سعيد بن البطريق^(٣)
الذي يمعن في الخطأ في حديث عن أصل البشمووريين بأنهم «سلالة أربعين يونانيّاً

(١) المصدر السابق.

(٢) ربما تقصد المؤلف كتاب: جاك تاجر، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢م. (و، أ)

(٣) سعيد بن البطريق، ولد في الفسطاط سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م، وتوفي بالإسكندرية سنة ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م،
من آثاره كتاب «نظم الجوهر».

بقوا في مصر بعد انتصار العرب ثم نما عددهم بالتزاوج»، وسوف يسقط هذا الزعم عن الأصل التاريخي حينما نستعرض تاريخ ثورات المنطقة.

ويحاول بعض الباحثين التخلص من مأزق تحديد موقع البشموريين في شرق مصر أو غربها بتوسيع القاعدة حتى تشمل كلا الأرضين، فيقول حجاجي إبراهيم محمد في كتاب «مقدمة في العمارة القبطية الدفاعية»: «آثار أهل البشمور بين دمياط ورشيد»، وبذلك يجعلها تشمل كل المساحة الواقعة بين بحيرتي المنزلة شرقاً والبرلس غرباً. وكذلك الأمر لدى الدكتور عبد المنعم ماجد^(١) حيث يقول «البشمور قرب دمياط على ساحل الدلتا بين فرعي رشيد ودمياط»، فيحدها بحدود الساحل بين البحيرتين. وصحيح الأمر هو الإجماع التاريخي الأول لساويروس بن المقفع الذي يرى أنها إلى الشرق من رشيد بمسافة يومين، وهو الزمن نفسه الذي حدده الإدريسي للمسافة بين دمياط ورشيد في السفر: يومين. والأسعد بن مماتي الذي فاق الجميع في تحديد عاصمتها بأشمون الرمان فيتأكد بذلك أن البشمور هي أراضي الدقهلية وما جاورها من الجمالية والمطرية.

وهي منطقة ثورات قديمة بدأت قبل دخول العرب مصر - كما ذكر الدكتور مصطفى العبادي في بحثه عن الأرض والفلاح في مصر الرومانية - حينما «لجأ آلاف من سكان الريف إلى الاعتصام في مستنقعات شمال الدلتا وأحراشها، وذلك في سنة ١٧٢ م في عصر الإمبراطور ماركوس أوريليوس، واضطرت الإدارة الرومانية إلى الاستعانة بالجيش من أجل القضاء على الثورة التي أوشكت أن تستولي على الإسكندرية ذاتها»^(٢).

ونجد في كتاب «فتوح مصر وأخبارها» لابن عبد الحكم أن البيما - وهو اسم ثالث يطلق على قبط البشرد - ظلوا يقاتلون الجيش العربي سبع سنين بعد فتح مصر وسيطرة عمرو بن العاص عليها وعلى عاصمتها. فيقول: «وأقامت الخيس من البيما يقاتلون الناس سبع سنين بعد ما فتحت مصر مما يفتحون عليهم من تلك المياه والغياض».

(١) ربما تقصد المؤلفة كتاب: عبد المنعم ماجد، العصر العباسي الأول أو القرن الذهبي في تاريخ الخلفاء العباسيين: التاريخ السياسي. (و، أ)

(٢) مصطفى العبادي، «الأرض والفلاح في مصر الرومانية»، ص ١٣٦.

ملحق ٣

جدول ولاية مصر في الدولة العباسية حسب كتاب الكندي

اسم الوالي	الخليفة / الوالي	تاريخ الولاية
صالح بن علي	من قبل أبي العباس السفاح	١٣٣هـ
أبو عون عبد الملك بن يزيد	باستخلاف صالح بن علي	١٣٣هـ
صالح بن علي / الثانية	من قبل أبي العباس السفاح	١٣٦هـ
أبو عون عبد الله بن يزيد / الثانية	باستخلاف صالح بن علي	١٣٧هـ
موسى بن كعب	من قبل أبي جعفر المنصور	١٤١هـ
محمد بن الأشعث	من قبل أبي جعفر المنصور	١٤١هـ
حميد بن قحطبة	من قبل أبي جعفر المنصور	١٤٣هـ
يزيد بن حاتم	من قبل أبي جعفر المنصور	١٤٤هـ
عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج	من قبل أبي جعفر المنصور	١٥٢هـ
محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج	باستخلاف أخيه عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، فأقره أبو جعفر المنصور	١٥٥هـ
موسى بن علي بن رباح اللخمي	باستخلاف محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، فأقره أبو جعفر المنصور	١٥٥هـ
عيسى بن لقمان الجمحي	من قبل المهدي	١٦١هـ
واضح مولى أبي جعفر	من قبل المهدي	١٦٢هـ
منصور بن يزيد بن منصور الرعيني	من قبل المهدي	١٦٢هـ

١٦٢هـ	من قبل المهدي	يحيى بن داود الخراسي
١٦٤هـ	من قبل المهدي	سالم بن سودة التميمي
١٦٥هـ	من قبل المهدي	إبراهيم بن صالح العباسي
١٦٧هـ	من قبل المهدي	موسى بن مصعب الخثعمي
١٦٨هـ	باستخلاف موسى بن مصعب الخثعمي	عسامة بن عمرو المعافري
١٦٩هـ	من قبل المهدي	الفضل بن علي العباسي
١٦٩هـ	من قبل موسى الهادي	علي بن سليمان العباسي
١٧١هـ	من قبل هارون الرشيد	موسى بن عيسى العباسي
١٧٢هـ	من قبل هارون الرشيد	مسلمة بن يحيى البجلي
١٧٣هـ	من قبل هارون الرشيد	محمد بن زهير الأزدي
١٧٤هـ	من قبل هارون الرشيد	داود بن يزيد المهلب
١٧٥هـ	من قبل هارون الرشيد	موسى بن عيسى العباسي / الثانية
١٧٦هـ	من قبل هارون الرشيد	إبراهيم بن صالح العباسي / الثانية
١٧٦هـ	من قبل هارون الرشيد	عبد الله بن المسيب بن زهير الضبي
١٧٧هـ	من قبل هارون الرشيد	إسحق بن سليمان
١٧٨هـ	من قبل هارون الرشيد	هرثمة بن أعين
١٧٨هـ	من قبل هارون الرشيد	عبد الملك بن صالح بن علي العباسي
١٧٩هـ	من قبل هارون الرشيد	عبيد الله بن المهدي العباسي
١٨٠هـ	من قبل هارون الرشيد	موسى بن عيسى العباسي / الثالثة
١٨٠هـ	من قبل هارون الرشيد	عبيد الله بن المهدي العباسي / الثانية
١٨١هـ	من قبل هارون الرشيد	إسماعيل بن صالح العباسي
١٨٢هـ	من قبل هارون الرشيد	إسماعيل بن عيسى العباسي
١٨٢هـ	من قبل هارون الرشيد	الليث بن الفضل

١٨٧هـ	من قبل هارون الرشيد	أحمد بن إسماعيل العباسي
١٨٩هـ	من قبل هارون الرشيد	عبد الله بن محمد العباسي
١٩٠هـ	من قبل هارون الرشيد	الحسين بن جميل
١٩٢هـ	من قبل هارون الرشيد	مالك بن دلهم الكلبي
١٩٣هـ	من قبل هارون الرشيد	الحسن بن التختاخ
١٩٤هـ	من قبل الأمين	حاتم بن هرثمة بن أعين
١٩٥هـ	من قبل الأمين	جابر بن الأشعث الطائي
١٩٦هـ	من قبل المأمون	عباد بن محمد بن حيان
١٩٨هـ	من قبل المأمون	المطلب بن عبد الله الخزاعي
١٩٨هـ	من قبل المأمون	العباس بن موسى بن عيسى العباسي
١٩٩هـ	بإجماع الجند عليه	المطلب بن عبد الله الخزاعي / الثانية
٢٠٠هـ	بإجماع الجند عليه	السري بن الحكم
٢٠١هـ	بايعه الجند	سليمان بن غالب بن جبريل البيجلي
٢٠١هـ	من قبل المأمون	السري بن الحكم / الثانية
٢٠٥هـ	بايعه الجند	أبو النصر بن السري
٢٠٦هـ	بايعه الجند	عبيد الله بن السري
٢١٠هـ	من قبل المأمون	عبد الله بن طاهر
٢١٣هـ	باستخلاف عبد الله بن طاهر، ثم من قبل أبي إسحاق بن الرشيد	عيسى بن يزيد الجلودي
٢١٤هـ	باستخلاف أبي إسحاق بن الرشيد	عمير بن الوليد
٢١٤هـ	باستخلاف أبي إسحاق بن الرشيد	عيسى بن يزيد الجلودي / الثانية
٢١٥هـ	من قبل أبي إسحاق بن الرشيد	عبدوية بن حيلة
٢١٦هـ	من قبل أبي إسحاق بن الرشيد	عيسى بن منصور

ملحق ٤

جدول قضاة مصر في الدولة العباسية حسب كتاب الكندي

اسم القاضي	في عهد الوالي / الخليفة	تاريخ الولاية
خير بن نعيم / الثانية	من قبل أبي عون عبد الملك بن يزيد	١٣٣هـ
غوث بن سليمان الحضرمي	من قبل أبي عون عبد الملك بن يزيد	١٣٥هـ
يزيد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن بلال	خلف غوث على القضاء خلال مدة غيابه للصائفة	١٤٠هـ
غوث بن سليمان الحضرمي / الثانية	عاد بعد موت ابن بلال	١٤٠هـ
أبو خزيمة إبراهيم بن يزيد	من قبل يزيد بن حاتم	١٤٤هـ
عبد الله بن لهيعة الحضرمي	من قبل أبو جعفر المنصور	١٥٥هـ
إسماعيل بن اليسع الكندي	من قبل المهدي	١٦٤هـ
غوث بن سليمان الحضرمي / الثالثة	من قبل المهدي	١٦٧هـ
المفضل بن فضالة	من قبل موسى بن مصعب	١٦٨هـ
أبو الطاهر عبد الملك بن محمد الأنصاري الأعرج	من قبل الهادي	١٧٠هـ
المفضل بن فضالة / الثانية	من قبل داود بن يزيد بن حاتم المهلب	١٧٤هـ
محمد بن مسروق الكندي	من قبل هارون الرشيد	١٧٧هـ
إسحاق بن الفرات	استخلفه محمد بن مسروق الكندي حتى سنة ١٨٥هـ	١٨٤هـ
عبد الرحمن العمري	من قبل هارون الرشيد	١٨٥هـ
هاشم بن أبي بكر البكري	من قبل الأمير	١٩٤هـ
إبراهيم بن البكاء	من قبل جابر بن الأشعث	١٩٦هـ

لهيعة بن عيسى الحضرمي	من قبل عباد بن محمد	١٩٦هـ
الفضل بن غانم	من قبل المطلب بن عبد الله الخزاعي	١٩٨هـ
لهيعة بن عيسى الحضرمي / الثانية	من قبل المطلب بن عبد الله الخزاعي	١٩٩هـ
إبراهيم بن إسحاق القاري	من قبل السري بن الحكم	٢٠٤هـ
إبراهيم بن الجراح	من قبل السري بن الحكم	٢٠٥هـ
عيسى بن المكندر	من قبل عبد الله بن طاهر	٢١٢هـ
هارون بن عبد الله	من قبل المأمون	٢١٧هـ

ملح

جدول بطارقة الإسكندرية الذين عاصروا

(من كتاب تاريخ وجداول بطارقة الإسكندرية)

رقم البابا	اسم البابا		تاريخ التقدمة		تاريخ
	الاسم	اللقب	تاريخ الشهداء	تاريخ الميلاد	تاريخ الشهداء
٣٨	بنيامين الأول	-	٩ طوبة ٣٣٩	٤ يناير ٦٢٣	٨ طوبة ٣٧٨
٣٩	أغاثون	ولد بنيامين	١٤ طوبة ٣٧٨	٩ يناير ٦٦٣	١٦ بابة ٣٩٧
٤٠	يوحنا الثالث	يوحنا السمنودي	أول كيهك ٣٩٧	٢٧ نوفمبر ٦٨٠	أول كيهك ٤٠٦
٤١	إسحق	-	٨ طوبة ٤٠٦	٣ يناير ٦٩٠	٩ هاتور ٤٠٩
٤٢	سيمون الأول	سيمون السرياني	٢٣ كيهك ٤٠٩	١٩ ديسمبر ٦٩٢	٢٤ أبيب ٤١٦
٤٣	ألكسندروس الثاني	-	٣٠ برمودة ٤٢٠	٢٥ أبريل ٧٠٤	٧ أمشير ٤٤٥
٤٤	قسما الأول	-	٣٠ برمها ٤٤٥	٢٦ مارس ٧٢٩	٣٠ بؤونة ٤٤٦
٤٥	تاودروس	-	أول أبيب ٤٤٦	٢٥ يونيو ٧٣٠	٧ أمشير ٤٥٨
٤٦	خائيل الأول	خائيل الأخير	١٧ توت ٤٦٠	١٤ سبتمبر ٧٤٣	١٦ برمها ٤٨٣

الفتح العربي لمصر حتى الدولة العباسية

القبط وجدول عام جامع بين أقوال المتقدمين)

الحكام المعاصرون	مركز الرئاسة	مدة خلو الكرسي	نسخ النياحة
هيرقل الأول، هرقل الثاني، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، الحسن بن علي، معاوية بن أبي سفيان	دير متراس بالإسكندرية	يوم شهر سنة	تاريخ الميلاد
		٦ -	٣ يناير ٦٦٣
معاوية بن أبي سفيان	المرقسية بالإسكندرية	١١٤ -	١٣ أكتوبر ٦٨٠
معاوية بن أبي سفيان، يزيد بن معاوية، معاوية بن يزيد، مروان بن الحكم، عبد الملك بن مروان	المرقسية بالإسكندرية	١٧ -	٢٧ نوفمبر ٦٨٩
عبد الملك بن مروان	المرقسية بالإسكندرية	١١٤ -	٥ نوفمبر ٦٩٢
عبد الملك بن مروان	المرقسية بالإسكندرية	٣٩٧	١٨ يوليو ٧٠٠
عبد الملك بن مروان، الوليد بن عبد الملك، سليمان بن عبد الملك، عمر بن عبد العزيز، يزيد بن عبد الملك، هشام بن عبد الملك	المرقسية بالإسكندرية	١٢٣ -	١٠ فبراير ٧٢٩
هشام بن عبد الملك	المرقسية بالإسكندرية	- -	٢٤ يونيو ٧٣٠
هشام بن عبد الملك	المرقسية بالإسكندرية	١٧ ١٣	١٠ فبراير ٧٤٢
هشام بن عبد الملك، الوليد بن يزيد، يزيد بن الوليد، إبراهيم بن الوليد، مروان بن محمد، أبو العباس السفاح، أبو جعفر المنصور	دير الزجاج ثم المرقسية بالإسكندرية	١٥ -	١٢ مارس ٧٦٧

٤٧	مينا الأول	-	أول برمودة ٤٨٣	٢٧ مارس ٧٦٧	٣٠ طوبة ٤٩٢
٤٨	يوحنا الرابع	-	١٧ طوبة ٤٩٣	١٢ يناير ٧٧٧	١٦ طوبة ٥١٥
٤٩	مرقس الثاني	مرقس الجديد	٢ أمشير ٥١٥	٢٦ يناير ٧٩٩	٢٢ برمودة ٥٣٥
٥٠	يعقوب	العمود المضيء	٤ بشنس ٥٣٥	٢٩ أبريل ٨١٩	١٤ أمشير ٥٤٦
٥١	سيمون الثاني	سيمون السرياني	٢١ أمشير ٥٤٦	١٥ فبراير ٨٣٠	٣ بابة ٥٤٧
٥٢	يوساب	-	٢١ هاتور ٥٤٨	١٨ نوفمبر ٨٣١	٢٣ بابة ٥٦٦

٢٦ يناير ٧٧٦	١١ ١٦ -	المرقسية بالإسكندرية	أبو جعفر المنصور، المهدي
١١ يناير ٧٩٩	١٥ -	المرقسية بالإسكندرية	المهدي، الهادي، هارون الرشيد
١٧ أبريل ٨١٩	١٢ -	المرقسية بالإسكندرية	هارون الرشيد، الأمين، المأمون
٨ فبراير ٨٣٠	٧ -	المرقسية بالإسكندرية	المأمون
٣٠ سبتمبر ٨٣٠	١١ ١٧	المرقسية بالإسكندرية	المأمون، المعتصم (والياً)
٢٠ أكتوبر ٨٤٩	١ -	المرقسية بالإسكندرية	المأمون، المعتصم (والياً ثم خليفة)، الواثق، المتوكل

ملحق ٦

ثورات القبط

ما جاء في كتاب الكندي

- ١ - سنة ١٠٧ هـ، زمن ولاية الحر بن يوسف، انتفضت كورة نتو وتمي وقريط وطراية وعامة الحوف الشرقي، فبعث إليهم الحر بأهل الديوان، فحاربوهم فُقتل منهم بشر كثير، وذلك أول انتفاض القبط بمصر.
- ٢ - سنة ١٢١ هـ، زمن ولاية حنظلة بن صفوان الثانية، انتقض أهل الصعيد، وحارب القبط عمالهم، فبعث حنظلة بأهل الديوان فقتلوا من القبط ناسًا كثيرًا، وظفر بهم.
- ٣ - سنة ١٣٢ هـ، زمن ولاية عبد الملك بن مروان، خرج رجل من القبط يقال له يحنس بسمنود، فبعث إليه عبد الملك بعبد الرحمن بن عتبة المعافري، فُقتل يحنس في كثير من أصحابه.
- ٤ - سنة ١٣٢ هـ، زمن قدوم مروان بن محمد إلى مصر، خالفت القبط برشيد، فبعث إليهم عثمان بن أبي نسعة في المصصة فهزمهم.
- ٥ - سنة ١٣٥ هـ، زمن ولاية أبي عون، خرج أبو مينا القبطي بسمنود، فبعث إليه بعبد الرحمن بن عقبة، فُقتل أبو مينا.
- ٦ - سنة ١٥٠ هـ، زمن ولاية يزيد بن حاتم، خرج القبط بسخا، ونابدوا العمال وأخرجوهم، وصاروا إلى شبرا سنباط، وانضم إليهم أهل البشروء والأوسية والبعجوم.
- ٧ - سنة ١٥٦ هـ، زمن ولاية موسى بن علي بن رباح اللخمي، خرج القبط بلهيب، فعقد موسى لعبد الله بن المهاجر بن علي فخرج في الجند إلى بلهيب فهزم القبط.
- ٨ - سنة ٢٠٣ هـ، زمن ولاية السري بن الحكم الثانية، عارضته القبط بسخا.
- ٩ - سنة ٢١٦ هـ، زمن ولاية عيسى بن منصور، ثورة البشروء.

المراجع

مراجع «حكايات الدخول»

المراجع العربية

- ابن تغري بردي الأتابكي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. الجزء الأول. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب، ١٩٦٣.
- ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد. جمهرة أنساب العرب. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. القاهرة: دار المعارف، ١٩٣٤.
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد. المسالك والممالك. ليدن: مطبعة بريل، ١٨٧٣.
- ابن دقماق، إبراهيم بن محمد. الانتصار لواسطة عقد الأمصار. الجزء الرابع. القاهرة: المطبعة الأميرية الكبرى، الطبعة الأولى، ١٣٠٩ هـ.
- ابن سعد، محمد. المعروف بـ«كاتب الواقدي». كتاب الطبقات الكبير. تحقيق: إدوارد سხო. ليدن: ١٣٢٢ هـ. طبعة أخرى؛ بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر.
- ابن شبة، أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري. تاريخ المدينة المنورة. تحقيق: فهيرم محمد شلتوت. الجزء الأول.
- ابن ظهيرة، إبراهيم بن علي بن محمد. الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة. تحقيق: مصطفى السقا، كامل المهندس. القاهرة: وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث، مطبوعات دار الكتب، ١٩٦٩.
- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله. فتوح مصر وأخبارها.

تحقيق: هنري ماسيه. القاهرة: مطبعة مجلس المعارف الفرنساوي الخاص بالعادات الشرقية، ١٣٣٢هـ، ١٩١٣.

ابن الفقيه، أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني. مختصر كتاب البلدان. ليدن: مطبعة بريل، ١٣٠٢هـ.

ابن كثير، أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن عمر. البداية والنهاية. د. ن، د. ت. ابن المأمون، الأمير جمال الدين أبو علي موسى بن المأمون البطائحي. نصوص من أخبار مصر. تحقيق: أيمن فؤاد سيد. القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٨٣.

ابن هشام المعافري، محمد عبد الملك. السيرة النبوية لابن هشام. تقديم وتحقيق: طه عبد الرؤوف سعد. الجزء الثالث. القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٧١. ابن الوردي، زين الدين أبو حفص عمر المظفر بن عمر. تنمة المختصر في أخبار البشر. المعروف بـ «تاريخ ابن الوردي»، تحقيق: أحمد رفعت البدرائي. بيروت: دار المعرفة.

أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين بن محمد. كتاب الأغاني. تحقيق: علي النجدي ناصف. القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر. الأزرقى، محمد بن عبد الله أحمد. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. تحقيق: رشدي الصالح ملحق. بيروت: دار الأندلس. د. ن، د. ت.

الألوسي، محمود شكري. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. الجزء الأول. الأندلسي، ابن سعيد. المغرب في حلى المغرب. الجزء الأول. تحقيق: زكي محمد حسن، شوقي ضيف، سيدة الكاشف. القاهرة: مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣. البغدادي، محمد بن حبيب. المنطق في أخبار قريش. صححه وعلق عليه: خورشيد أحمد فاروق. بيروت: عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر. فتوح البلدان. نشره ووضع ملاحقه وفهارسه: صلاح الدين المنجد. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦.

الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت. معجم البلدان. تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠.

الدميري، كمال الدين بن محمد بن موسى بن عيسى. حياة الحيوان الكبرى. الجزء الأول. د. ن، د. ت.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام. تحقيق: محمد عبد الهادي شعيرة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣. طبعة أخرى؛ القاهرة: مكتبة المقدسي، ١٣٦٧هـ.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. سير أعلام النبلاء. الجزء الثاني. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. تاريخ الخلفاء. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. القاهرة: مطبعة السعادة، الطبعة الرابعة.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة.

الشافعي، محمد بن أبي السرور الصديق. القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب.

الشريف الرضي، أبو الحسن، محمد بن الحسين بن موسى. نهج البلاغة. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك. المعروف بـ«تاريخ الطبري».

العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد بن حجر. رفع الإصر عن قضاة مصر. القاهرة: وزارة التربية والتعليم، قسم نشر التراث، ١٩٥٧.

الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب. المغانم المطابة في معالم طابة. الرياض: دار الإمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٣٩٨هـ، ١٩٦٩.

القرشي، محمد بن محمد بن أحمد. معالم القرية في أحكام الحسبة. د. ن، د. ت. القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. الجزء السادس. القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، سلسلة تراثنا، ١٩٥٨.

الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف. كتاب الولاية وكتاب القضاة. بيروت: مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٨.

الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف. فضائل مصر المحروسة. تحقيق: إبراهيم

العدوي، علي محمد عمر. القاهرة: مطبعة وهبة. طبعة أخرى؛ بيروت: دار الفكر، ١٩٧١.

مبارك، علي. الخطط الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة. القاهرة: المطبعة الأميرية، الطبعة الأولى، ١٣٠٦هـ.

المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد. الكامل. القاهرة: دار نهضة مصر. المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي. مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق: يوسف أسعد داغر. بيروت: دار الأندلس للطباعة والنشر.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي. التنبيه والإشراف. تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي. القاهرة: دار الصاوي، المكتبة التاريخية، ١٣٥٧هـ، ١٩٣٨.

المغربي، يوسف. رفع الإصر عن كلام أهل مصر. المقرئزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر. المقفى الكبير. تحقيق: محمد اليعلاوي. أربعة أجزاء. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١. المقرئزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بـ«الخطط المقرئزية». جزءان. القاهرة: مؤسسة الحلبي للنشر والتوزيع، ١٩٣١.

المكي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العاصمي. سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب. نهاية الأرب في فنون الأدب. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٢٣هـ.

الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي. فتوح الشام. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٩٧.

الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد السهمي. كتاب المغازي. تحقيق: مارسدن جونسون. أكسفورد: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٦٦.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح. المعروف بـ تاريخ اليعقوبي. النجف: المكتبة المرتضوية، مطبعة العزى، ١٣٥٨هـ، ١٩٣٩.

المراجع القبطية

- ابن العسال. المجموع الصفوي. طبعة خاصة لدارسي القانون الكنسي، أعدها للنشر: القس يوسف عوض تادرس. القاهرة، ١٩٩٠.
- ابن المقفع، ساويروس. أسقف الأشمونين. تاريخ بطاركة كنيسة الإسكندرية القبطية. المجلد الأول: من مارمرقس حتى البابا ثاؤنا. أعدها للنشر: صموئيل السرياني.
- ابن المقفع، ساويروس. أسقف الأشمونين. كتاب مصباح العقل. تقديم وتحقيق: الأب سمير خليل. القاهرة: التراث العربي المسيحي (١)، ١٩٧٨.
- الأبنا غريغوريوس. الدير المحرق: تاريخه، ووصفه، وكل مشتملاته.
- الأب متى المسكين. الرهبنة القبطية في عصر القديس أنبا مقار. وادي النطرون: مطبعة دير القديس أنبا مقار، الطبعة الثانية، ١٩٨٤.
- النقيوسي، يوحنا. «مخطوطة». المصدر: مصر في مخطوطة يوحنا النقيوسي. ترجمة ودراسة لغوية وإعداد: عمر صابر عبد الجليل. رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٨١.

المراجع الحديثة

- أبو رابية، عبد الخالق سيد. عمرو بن العاص بين يدي التاريخ. القاهرة: دار الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٨.
- بتلر، ألفرد. ج. فتح العرب لمصر. ترجمة: محمد فريد أبو حديد. القاهرة: مكتبة مدبولي، سلسلة «صفحات من تاريخ مصر» (١)، ١٩٩٠.
- البري، عبد الله خورشيد. القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢.
- بل، هارولد. الهيلينية في مصر: من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربي. القاهرة: دار المعارف، مكتبة الدراسات التاريخية، ١٩٤٨.
- تاجر، جاك. أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٩٢م. القاهرة: كراسات التاريخ المصري، ١٩٥١.

جروهمان، أدولف. أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية. السفر الرابع. ترجمة: حسن إبراهيم حسن. مراجعة: عبد الحميد حسن. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٧.

حبيب، رؤوف. تاريخ الرهبة والديرية في مصر وآثارهما الإنسانية على العالم. القاهرة: مكتبة المحبة، ١٩٧٨.

حسن، حسن إبراهيم. تاريخ عمرو بن العاص. القاهرة: مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، ١٩٢٢.

الباشا، حسن. فن التصوير في مصر الإسلامية. القاهرة: دار النهضة العربية، الطبعة الأولى ١٩٦٦.

حسين، طه. الفتنة الكبرى.

حسين، محمد كامل. أدب مصر الإسلامية: عصر الولاة. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٦١.

حوى، سعيد. الرسول صلى الله عليه وسلم. جزءان معًا. القاهرة: مكتبة وهبة، د.ت. سالم، السيد عبد العزيز. تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي. الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٢.

رمزي، محمد. القاموس الجغرافي للبلاد المصرية: من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٣.

سحاب، فيكتور. إيلاف قريش: رحلة الشتاء والصيف. بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٢.

الشبول، أحمد. «علاقات الأمة الإسلامية في العصر النبوي مع بلاد الشام وبيزنطة». الطيب الأنصاري، عبد الرحمن (تحرير). في: الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين. دراسات تاريخ الجزيرة العربية: الجزء الثاني. الرياض: جامعة الملك سعود، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩.

شيخو، لويس. شعراء النصرانية بعد الإسلام. بيروت: دار المشرق.

العبادي، مصطفى. «الأرض والفلاح في مصر الرومانية». في: الأرض والفلاح في مصر على مر العصور. القاهرة: مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٧٤.

العبادي، مصطفى. «موقع نصتان في ضوء الوثائق البردية قبيل الإسلام وخلال
نصف القرن الأول من الحكم العربي». الطيب الأنصاري، عبد الرحمن (تحرير). في:
الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين. دراسات تاريخ الجزيرة العربية:
الجزء الثاني. الرياض: جامعة الملك سعود، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩.

عطا، زبيدة. الفلاح المصري بين العصر القبطي والعصر الإسلامي. القاهرة:
الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين (٤٨)، ١٩٩١.

عطا، زبيدة. إقليم المنيا في العصر البيزنطي: في ضوء أوراق البردي. القاهرة:
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢.

عفيفي، محمد. الأقباط في مصر في العصر العثماني. القاهرة: الهيئة المصرية
العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين (٥٤)، ١٩٩٢.

قنواطي، جورج شحاتة. المسيحية والحضارة العربية. القاهرة: دار الثقافة،
١٩٩٢.

الكاشف، سيدة إسماعيل. «الأرض والفلاح في مصر الإسلامية». في: الأرض
والفلاح في مصر على مر العصور. القاهرة: مجلة الجمعية المصرية للدراسات
التاريخية، ١٩٧٤.

الكاشف، سيدة إسماعيل. بالاشتراك مع آخرين. موسوعة تاريخ مصر عبر
العصور: تاريخ مصر الإسلامية. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة
تاريخ المصريين (٦٣)، ١٩٩٣.

كامل، مراد. حضارة مصر في العصر القبطي. القاهرة: مطبعة دار العالم العربي.
كحالة، عمر رضا. أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام. دمشق: المطبعة
الهاشمية، الطبعة الثانية، ١٣٧٨هـ، ١٩٥٩.

مؤنس، حسين. أطلس تاريخ الإسلام. القاهرة: دار الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٧.

ماهر، سعاد. البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية. القاهرة: دار الكاتب
العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧.

محمددين، محمد محمود. «الزراعة والري في الحجاز في العصر النبوي وعصر
الخلفاء الراشدين». الطيب الأنصاري، عبد الرحمن (تحرير). في: الجزيرة العربية

في عصر الرسول والخلفاء الراشدين. دراسات تاريخ الجزيرة العربية: الجزء الثاني. الرياض: جامعة الملك سعود، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩.

المصري، إيريس حبيب. قصة الكنيسة المصرية. الجزء الثاني: ٤٣٥-٩٤٨م. القاهرة: مكتبة المحبة، ١٩٦٨.

نخلة، كامل صالح. البابا بنامين الأول البطريك الثامن والثلاثون والفتح العربي لمصر. القاهرة: مكتبة المحبة، ١٩٤٨.

نسيم، سليمان. تاريخ التريية القبطية. القاهرة: دار الكرنك للنشر والتوزيع، ١٩٦٣.

نصار، حسين. الثورات الشعبية في مصر الإسلامية. بيروت: منشورات اقرأ، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠.

مراجع «رحلة الانصهار»

المراجع العربية

ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني. الكامل في التاريخ. المجلد السادس. بيروت: دار صادر، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢.

ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي. بدائع الزهور في وقائع الدهور. حققها وكتب لها المقدمة: محمد مصطفى. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مركز تحقيق التراث، ١٩٨٢.

ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله. رحلة ابن بطوطة: تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. القاهرة: المطبعة الخيرية، الطبعة الثالثة، ١٣٢٣هـ.

ابن البيطار، ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقي. الجامع لمفردات الأدوية والأغذية. المجلد الأول. بغداد: مكتبة المثنى، ١٣٨٤هـ.

ابن تغري بردي الأتابكي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. القاهرة: دار الكتب، ١٩٢٩.

ابن الجوزي، أبو الفرج بن عبد الرحمن بن علي بن محمد. المنتظم في تاريخ

الملوك والأمم. دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٢.

ابن خياط، أبو عمرو خليفة. تاريخ خليفة بن خياط. ت ٢٤٠هـ - ٨٥٤م رواية بقي بن خالد. تحقيق: سهيل زكار. دمشق: منشورات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، ١٩٦٨.

ابن زولاق، أبو محمد الحسن بن إبراهيم بن الحسين. فضائل مصر وأخبارها وخواصها. تحقيق: علي محمد عمر. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، ١٩٩٩.

ابن ظهيرة. الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة. تحقيق: مصطفى السقا، كامل المهندس. القاهرة: وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث، مطبوعات دار الكتب، ١٩٦٩.

ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله. فتوح مصر وأخبارها. القاهرة: مكتبة مدبولي، صفحات من تاريخ مصر (١٠)، الطبعة الأولى، ١٩٩١. ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله. فتوح مصر والمغرب. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٥هـ.

ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج بن هارون الملطي. مختصر تاريخ الدول. الجزء الثاني. بيروت، ١٩٥٨.

ابن عرنوس، محمود بن محمد. تاريخ القضاء في الإسلام. القاهرة: المطبعة المصرية الأهلية الحديثة، ١٣٥٢هـ، ١٩٣٤.

ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحاق. الفهرست. القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٩٢٩.

أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم. كتاب الخراج.

الإدريسي، أبو جعفر محمد بن عبد العزيز الحسيني، المعروف بـ«الشريف الإدريسي». أنوار علوي الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام. حققه وقدم له: ألريش هارمان. بيروت: نصوص ودراسات، سلسلة يصدرها المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، ١٩٩١.

الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس الحموي الحسيني، المعروف بـ«الشريف الإدريسي». نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. الجزء الأول. بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٩هـ.

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر. فتوح البلدان. حققه وشرحه وعلق على حواشيه: عبد الله أنيس الطباع، عمر أنيس الطباع. بيروت: منشورات مؤسسة المعارف. الأندلسي، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع. الجزء الأول. عارضه بمخطوطات القاهرة وحققه وضبطه: مصطفى السقا. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٣٦٤هـ، ١٩٤٥. الأيوبي، أسعد بن مماتي. قوانين الدواوين. جمعه وحققه: عزيز سوريال عطية. القاهرة: الجمعية الزراعية الملكية، مطبعة مصر، ١٩٤٣.

الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت. معجم البلدان. الجزء الأول. بيروت: دار صادر.

الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد. شذرات الذهب في أخبار من ذهب. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٩.

الدميري، كمال الدين بن محمد بن موسى بن عيسى. حياة الحيوان الكبرى. الجزء الأول. القاهرة: مطبعة الاستقامة، ١٣٨٣هـ، ١٩٦٩.

الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. سير أعلام النبلاء. الزركلي، خير الدين. الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٧٩-١٩٨٠.

سهراب. عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية العمارة. اعتنى بنسخه وتصحيحه: هانس فون مزيك. فيينا: مطبعة أدولف هولزهورن، ١٣٤٧هـ، ١٩٢٩.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك المعروف بـ«تاريخ الطبري». الجزء السابع. بيروت: منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

القرشي، محمد بن محمد بن أحمد. معالم القرية في أحكام الحسبة. تحقيق: محمد محمود شعبان، صديق أحمد عيسى المطيعي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦.

القزويني، زكريا بن محمد بن محمود. آثار البلاد وأخبار العباد. بيروت: دار صادر، ١٩٦٩.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا. الجزء الثالث. القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، سلسلة تراثنا، ١٩٥٨.

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي. نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب. القاهرة، ١٩٥٥.

الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف. القضاة الذين ولو أقضاء مصر. طُبع بمدينة رومية العظمى، ١٩٠٨.

الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف. ولاية مصر. تحقيق: حسين نصار. بيروت: دار صادر.

الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف. الولاية والقضاة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٧٧.

الكوفي، أبو محمد أحمد بن عمر. كتاب الفتوح. المجلد الثامن. بيروت: دار الندوة الجديدة.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي. أخبار الزمان ومن أباده الحدثان، وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران. القاهرة: دار الأندلس للطباعة والنشر، ١٩٦٦.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي. مروج الذهب ومعادن الجوهر. القاهرة: المطبعة البهية المصرية، ١٣٤٦هـ.

المقدسي، محمد بن أحمد. المعروف بـ«البشاري». أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم. ليدن: مطبعة بريل، الطبعة الثالثة، ١٩٠٦. طبعة أخرى؛ القاهرة: مكتبة مدبولي.

المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر. إمتاع الأسماع. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٥.

المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر. الذهب المسبوك

في ذكر من حج من الخلفاء والملوك. حققه وعلق على حواشيه: جمال الدين الشيال. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٥.

المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر. شذور العقود في ذكر النفود. دراسة وتحقيق: محمد عبد الستار عثمان. القاهرة: مطبعة الأمانة، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠.

المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر. المقفى الكبير. أربعة أجزاء. تحقيق: محمد اليعلاوي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩١.

المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي بن عبد القادر. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بـ«الخطط المقريزية». القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩٨.

اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح. المعروف بـ. تاريخ اليعقوبي. النجف: المكتبة المرتضوية، مطبعة العزى، ١٣٥٨هـ، ١٩٣٩.

اليعمري، محمد بن محمد بن أحمد. المعروف بـ«ابن سيد الناس». عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير. جزءان. القاهرة: مكتبة القدس، ١٣٥٦هـ.

المراجع القبطية

ابن المقفع، ساويروس. أسقف الأشمونين. تاريخ البطاركة. قام بنشره: يس عبد المسيح وأولد برمتي. القاهرة: مطبوعات جمعية الآثار القبطية، قسم النصوص والوثائق، ١٩٤٣.

عبد المسيح، يشوي. تاريخ أبرشية دمياط. الجزء الأول: محافظة دمياط. تقديم: نيافة الحبر الجليل الأنبا بيشوي.

الأنبا غريغوريوس. الدير المحرق: تاريخه، ووصفه، وكل مشتملاته. نخلة، كامل صالح. تاريخ وجداول بطاركة الإسكندرية القبط وجدول عام جامع بين أقوال المتقدمين. تاريخ الأمة القبطية، المجلد الرابع. القاهرة: لجنة التاريخ القبطي، ١٩٤٣.

النيقوسي، يوحنا. تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي: رؤية قبطية للفتح الإسلامي.

إعداد: عمر صابر عبد الجليل. القاهرة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.

المراجع الحديثة

- أبي الفداء، إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد. تقويم البلدان.
الباشا، حسن. الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧.
البري، عبد الله خورشيد. القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢.
بكر، سلوى. البشموري. رواية. القاهرة: دار الهلال، ١٩٩٨.
بلال، ثناء عبد الرحمن. الملابس في العصرين القبطي والإسلامي. القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٨٢-١٩٨٣.
تاجر، جاك. أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٩٢م. القاهرة: كراسات التاريخ المصري، ١٩٥١.
ترتون، ا. س. أهل الذمة في الإسلام. ترجمة وتعليق: حسن حبشي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، تاريخ المصريين (٧٠)، الطبعة الثانية، ١٩٩٤.
جروهمان، أدولف. أوراق البردي العربية بدار الكتب المصرية. السفر الرابع. ترجمة: حسن إبراهيم حسن. مراجعة: عبد الحميد حسن. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٣.
حسين، محمد كامل. أدب مصر الإسلامية: عصر الولاة. القاهرة: دار الفكر العربي.
دينيت، دانيال. الجزية والإسلام. ترجمه وقدم له: فوزي فهمي جاد الله. راجعه: إحسان عباس. بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة، ١٩٦٠.
رفاعي، أحمد فريد. عصر المأمون. المجلد الثالث. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، ١٣٤٦ هـ، ١٩٢٧.
رمزي، محمد. القاموس الجغرافي للبلاد المصرية: من عهد قدماء المصريين

إلى سنة ١٩٤٥م. القسم الأول: البلاد المندرسة. تقديم: عبد العظيم رمضان. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصرة.

الروبي، آمال محمد. هومبوليس ماجنا «الأشمونين» في العصر الروماني: بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية حتى سنة ٢٨٤م. رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، قسم التاريخ، ١٩٧١.

زيادة، محمد مصطفى. وآخرون. دراسات عن المقرئزي. مجموعة أبحاث. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧١.

زبود، محمد. «صناعة الورق والوراقة في بلاد الشام في العصر الفاطمي». في: المؤرخ المصري. القاهرة: دراسات وبحوث تاريخية محكمة يصدرها قسم التاريخ، جامعة القاهرة، كلية الآداب، العدد الخامس عشر، يوليو ١٩٩٥.

سامي، أمين. تقويم النيل. القاهرة: دار الكتب، ١٩٣٦.

سزكين، فؤاد. تاريخ التراث العربي. الجزء الأول. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٨.

سليم، محمد صبري محسوب. سواحل مصر: بحوث في الجيومورفولوجيا. القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٩٤.

سيد، أيمن فؤاد. الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات. الجزء الأول. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، ١٩٩٧.

السيد، مجدي فتحي. تاريخ الإسلام والمسلمين في أزهي عصور الخلافة العباسية. طنطا: دار الصحافة للتراث بطنطا، سلسلة صحيح التوثيق (٦)، الطبعة الأولى، ١٩٩٩.

شاروويم، ميخائيل. الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث.

العبادي، مصطفى. «الأرض والفلاح في مصر الرومانية». في: الأرض والفلاح في مصر على مر العصور. القاهرة: مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٧٤.

العدوي، إبراهيم أحمد. مصر الإسلامية درع العروبة ورباط الإسلام. القاهرة: هيئة الآثار المصرية، القاهرة، ١٩٩٢.

الكاشف، سيدة إسماعيل. «الأرض والفلاح في مصر الإسلامية». في: الأرض والفلاح في مصر على مر العصور. القاهرة: مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٧٤.

الكاشف، سيدة إسماعيل. مصر في فجر الإسلام: من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية. القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٧٤.

كحالة، عمر رضا. معجم قبائل العرب القديمة والحديثة. دمشق: المكتبة الهاشمية، ١٩٤٩.

ماجد، عبد المنعم. العصر العباسي الأول أو القرن الذهبي في تاريخ الخلفاء العباسيين. الجزء الأول: التاريخ السياسي. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٣. مؤنس، حسين. أطلس تاريخ الإسلام. القاهرة: دار الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٧.

مبارك، علي. الخطط الجديدة التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، عن طبعة بولاق سنة ١٣٠٥ هـ، الطبعة الثانية، ١٩٩٤.

مبارك، علي. نخبة الفكر في تدبير نيل مصر. القاهرة: مطبعة وادي النيل العربية والإفريقية باب الشعرية، الطبعة الأولى، ١٢٩٧ هـ.

متز، آدم. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام. ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريعة. المجلد الأول. بيروت: دار الكتاب العربي، الطبعة الرابعة، ١٩٦٧.

محمد، بدر عبد الرحمن. «شرق الدلتا منذ الفتح العربي حتى نهاية العصر الفاطمي». في: المؤرخ المصري. القاهرة: دراسات وبحوث تاريخية محكمة يصدرها قسم التاريخ، جامعة القاهرة، كلية الآداب، ٤ يوليو ١٩٨٩.

محمد، حجاجي إبراهيم. مقدمة في العمارة القبطية الرفاعية. القاهرة: مكتبة نهضة الشرق، ١٩٤٨.

محمود، عبد الحليم. الليث بن سعد. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الأعلام (١٣)، ١٩٧٧.

محمود، منى حسن. «السكة الإسلامية في مصر ٢١-١٥٤هـ». في: المؤرخ المصري. القاهرة: دراسات وبحوث تاريخية محكمة يصدرها قسم التاريخ، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم التاريخ، العدد الثاني والعشرون، يوليو ١٩٩٩.

مغاوري، سعيد. الألقاب والحرف والوظائف في ضوء البرديات العربية: دراسات أثرية حضارية. رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، كلية الآثار، قسم الآثار الإسلامية، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤.

نسيم، سليمان. تاريخ التربية القبطية. القاهرة: دار الثقافة العربية، ١٩٦٣.

نصار، حسين. الثورات الشعبية في مصر الإسلامية. بيروت: منشورات اقرأ، الطبعة الثالثة ١٩٨٦.

مختارات الكرمة

١. مليم الأكبر - عادل كامل
٢. دنقلا - إدريس علي
٣. مذكرات جندي مصري في جبهة قناة السويس - أحمد حجي
٤. الشبكة - شريف حتاتة
٥. الناس في كفر عسكر: أولاد عوف - أحمد الشيخ
٦. النزول إلى البحر - جميل عطية إبراهيم
٧. ملك من شعاع - عادل كامل
٨. إجازة تفرغ - بدر الديب
٩. رابعة ثالث - علي الشوباشي
١٠. رباعية أيام الطفولة - إبراهيم عبد الحليم
١١. الرحلة (الجزء الأول) - فكري الخولي
١٢. الرحلة (الجزءان الثاني والثالث) - فكري الخولي
١٣. حديث شخصي: أربع تنويعات - بدر الديب
١٤. الباب المفتوح - لطيفة الزيات
١٥. أوراق شخصية - لطيفة الزيات
١٦. الشمندورة - محمد خليل قاسم
١٧. بيت سري - عثمان صبري
١٨. هوامش الفتح العربي لمصر - سناء المصري
١٩. صدمة طائر غريب - كمال القلش



«واحد من أهم الكتب العربية التي صدرت في السنوات الأخيرة»

جمال الغيطاني

«نموذج للكتابة العبثية وغير المسؤولة للتاريخ»

فهمي هويدي

«هناك مناطق شائكة في تاريخ مصر، يفضل أساتذة التاريخ عدم الخوض فيها، لأسباب عديدة قد يكون من بينها عدم وفرة المصادر والمراجع، لكن السبب الأكثر قوة هو إثارتهم السلامة بعيداً عن وجع الدماغ، ولم تكن الراحلة سناء المصري ضمن هذه الفئة الغالبة، فاثرت أن تقطع الطريق الصعب وعكفت على مرحلة الفتح العربي لمصر»

عزمي عبد الوهاب، الأهرام

«تم تجاهله تماماً في الواقع الثقافي والفكري في مصر بسبب خطورة ما جاء فيه»

يوسف القعيد

كيف كانت المواجهات الأولى بين العرب الفاتحين وأقباط مصر؟

وكيف كان تصور كل طرف عن الآخر؟

وما الذي حدث في الحقيقة في اللحظات الأولى للفتح، قبل أن تستقر الأمور للعرب؟

أسئلة شائكة مضى عليها أكثر من أربعة عشر قرناً، وأهال التاريخ على تفاصيلها رماده الصعب... وآثارها القليلة لا زالت تُروى وتُداول من خلال صوت رسمي ووحيد انكمش أمامه الطرف الآخر رويداً رويداً، وانكمشت معه ذكرياته، حتى كادت أن تمحي من كثرة التجاهل والنسيان.

دراسة كاشفة ومهمة وتعيد النظر في كثير من مسلمائنا، معتمدة في ذلك على المصادر العربية والقبطية الخاصة بتلك الفترة. أثار الكتاب عندما صدر عام ١٩٩٦ ردود أفعال حادة ما بين معترض بشدة (عادة بدون حجج قوية) ومرحب بشدة.

تجمع هذه الطبعة جزئي الدراسة: «حكايات الدخول» و«رحلة الانصهار».

سناء المصري كاتبة وناشطة سياسية وثقافية مصرية من مواليد ١٩٥٨، عُرفت بجراتها في الحقل العام كما في المجال الفكري. نشرت أبحاثاً تناولت فيها مواضيع شائكة وخطيرة وقت صدورها، من بينها: «خلف الحجاب» الذي صدر في أواخر الثمانينيات وهدد السلفيون بحرقه في ساحة عامة، «موقف الجماعات الإسلامية من قضية المرأة» الذي صودر عام ١٩٩٢، «الإخوان المسلمون والطبقة العاملة المصرية»، «تمويل وتطبيع... فقه الجمعيات الأهلية في مصر»، و«هوامش الفتح العربي لمصر». عملت سناء المصري أيضاً في مجال المسرح الحر وشاركت في تأسيس فرقة الضواحي المسرحية. توفيت عام ٢٠٠٠ عن ٤٢ عاماً جراء أزمة ربو حادة.



ISBN 978-977-6467-53-8



9 789776 467538 >

مكتبة الكتب المسيحية

- الكلب المقدس
- ابيات
- التوبة والعتة
- لاهوت وعقائد
- روحية
- سرور وروايات
- تاريخ الكنيسة
- طقوس
- فلسفة وعلم نفس
- اخرى

أحمدت الكتب



• • •

■ كتب روحية



كتاب صوم يونان و الصوم الكبير - الاب متى
المسكين - سلسلة عظات مختارة على اناجيل
القداسات pdf

كتاب الايادي الضاربة - ميشال كواست ترجمة الاب
فكتور الدويهي دار المشرق - تحميل الكتاب pdf

كتاب لاهوت المرضى - جان كلود لارشي - تعريب
روزيت جبور تعاوية النور الارثوذكسية - تحميل